أول أغسطس سنة ١٩٣٢
ربيع الأول سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء الرابع
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولى

المجلد الثالث — شعارها : اعرف نفسك بنفسك — العدد ١٦

المنفلوطى : كاتب العاطفة والوجدان

[كتبت لمناسبة اعتزام خريجى الجامعة المصرية إحياء ذكراه]

فكرة البحث

اعتزم فريق من خريجى الجامعة الأوفياء إحياء ذكرى فقيد الأدب العربى ، المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، لمناسبة مرور ثمانية أعوام على وفاته . وليس من شك فى أن تلك الفكرة — التى اعتزم خريجو الجامعة إنفاذها — فكرة جليلة ، جديرة بالذيوع ، قمينة بالتشجيع ، لما للمرحوم المنفلوطى من أثر — وأى أثر — فى الأدب العربى ، ومن حب — وأى حب — فى نفوس طلابه ومريديه .

فمن حق المنفلوطى إذن على طلابه ، وتلاميذه ، والمنتفعين بأدبه ، والمقتفين أثره ، أن يخلدوا ذكرى رجل كانت له اليد الطولى فى خلق الأدب المصرى ، بل كان له القسط الأوفر فى إنشاء « الدراما المصرية » .

فلقد كان المنفلوطى ، منذ بداءة شبابه ، حتى آخر نفس من حياته ، يمثل الدراما وتمثله أدق تمثيل ، فكان يكافح أغلال الحياة بقوة وصبر ، ويناضل أرزاء الأيام بجلد واتئاد ، حتى تكسرت الأصفاد ، وتحطمت الأغلال ، وصمدت إلى جانبه حياة داوية من الشهرة الذائعة والرواج المنشود .

وإذا كنا سنقصر الكلام — فى إلمامتنا هذه — على عاطفته ، فمرجع ذلك إلى حضرات الداعين إلى إحياء ذكراه ، الذين تفضلوا فاختصوا كاتب هذه السطور بتلك الناحية ، رغم ما تتطلب من دقة وتحديد ؛ ونحن إذ نحاول الكتابة على المنفلوطى ، فإنما نترسم — فى بعض نواحى البحث — أسلوب المنفلوطى ، إحياء لذكرى المنفلوطى .

المرحلة الأولى

يا لها من أيام ! تلك التي استهل بها كاتبنا النابه الخالد حياته ! لقد كانت أياماً عجافاً ، عرف فيها « المنفلوطى » كيف يصطنع نفسه ، وكيف يلقى على عواطفه شعاعا من الخير ، وضوءاً من الحياة . !

لقد كانت أياماً ثقالا ، لم تتمزق فيها أواصر الشقاء ، ولم يقوضها معول الأمل ، ولكن قوضها وأتى عليها معول الطموح .

وكانت أياماً شداداً ، ركن المنفلوطى فيها إلى تلك الحجرة الهادئة الضيقة المظلمة التى لا تطل على الفناء الفخم ، ولا على الباحة الرحيبة ، ولا على السرحة الفينانة ، ولا على المشاهد الفتانة ، وإنما كانت تطل على أخوص ضيق ، كأخوص القطاة ، هو زقاق يتفرع من أحد الشوارع الباقية حتى اليوم فى « كفر الطماعين » .

ولم يكن المنفلوطى منذ كان يطلب العلم فى الأزهر ليرضى فى شأن من شؤونه بما يرضى به ضعاف النفوس ، أو صغار الأحلام ، أولئك الذين يجمعون إلى أنفسهم أواصر الزلفى بالبارزين فى سجل المال وحده ، وإنما بقى منذ بداءة حياته ، حتى آخر مرحلة من مراحل حياته ، يجالد الصغار ، ويناضل الضعة ، ويتألب على السفاسف ، ويزيد فى خلقه مكانة ، وفى كبريائه قوة ، وفى عزة نفسه مناعة ، وفى تمرده على الحادثات عزماً وانطلاقاً .

وهكذا عاش الرجل ، وهكذا مات الرجل ، دون أن يدنس يده بشىء ، أو يصعر خده لانسان ، أويريق ماء وجهه لعظيم ، أو يبذل كرامته نهباً مقسماً بين الناس .

لهذا لم تتحرك روح الآلام فى مصر حركة عنيفة لفقدان أديب نابه كما تحركت يوم مات المنفلوطى ، ذلكم الرجل الذى عاش ليؤدى رسالته إلى الناس فى حق ويقين ، وليوحى إليهم حقائق الحياة الصريحة ، واضعاً أيديهم على مواطن الأسى والشجون .

بؤس وشقاء ...

ترى أى سر هائل كانت تكتنزه نفس المنفلوطى الفتية ؟ وأية مأساة عنيفة تلك التى استهل بها حياته ، وما بزال يافعاً صبياً ؟ بل أى حزن شامل ذلك الذى كانت تتفجر ينابيعه فى مسارب دمه الفوار ؟ وأى أسى مكتوم كانت تختزنه نفسه لتطلع به على الناس لافحاً من اللظى وصيباً من الدموع ! ؟

هل من سر لهذا كله غير البؤس والشقاء ؟ أجل ! ! إنه البؤس وإنه الشقاء ، وحسبهما كارثة أو مصيبة تفدح الأعصاب ، وتزجى الأوصاب ، وتدفع إلى النفس المصاب ، وحسبهما عاصفة هوجاء لا يخمد أوارها حتى تكون ضحيتها رمماً على الثرى ، وحطاماً منتثراً ، ورجاماً مبعثراً ! !

هكذا كانت حياة المنفلوطى فى مختلف مراحلها — على ما أعتقد — صورة واحدة تجتمع إليها ألوان لا تستطيعها يد الصناع الفنان ، ولا تستطيعها الريشة الماهرة المجدية المنتجة الأخاذة .

توجع وأنين ...

وهذه الصورة ، ماذا تكون ؟

إنها الصورة التى أدرك الشرق العربى منها كيف ينتهى الدمع إلى الصميم ، وكيف تذوب القلوب المتحجرة فى بوتقة النار المحرقة، تلك نار الشجن الهائل الحافل ، التى استطاع المنفلوطى أن يغدق منه على قراء العربية صيباً جزيلا، فيه تحقيق للجوانب العابسة ، وفيه تألب على كل جانب مشرق وناحية طروب .

ومن حق المنفلوطى أن تخلده هذه الخاصة التى تفرد بها بين كتاب العربية جميعاً، وأعنى بها خاصة التوجع والأنين ؛ ومن حقه أيضا أن يظل إلى الأبد موضعا لأكبار قرائه ، وتمجيدهم لذكراه ، وترحمهم على حياته التى غذت فيهم ناحية الرحمة ، وأتاحت لهم أن يركنوا إلى قرار الحنان .

وإذا كانت هــذه الصورة الباقية قد أثارت فى نفوس المتأدبين حالة من التوجع ، أو إذا كانت هذه الصورة قد أثارت فى نفوس القراء حالة أخرى من الرضى والقناعة والاطمئنان ، فانها قد أثارت فى الناس جميعاً — متأدبين وغير متأدبين — روح التمرد على تلك العروض الفانية ، عروض اللذاذات التى تفيض عن نعماء الدنيا ورغد العيش وهناءة الأيام .

وللمنفلوطى أن يخلد كل الخلد ، وأن يبقى على الزمن ، لأن قلمه الفاره القدر الجوال ، وأسلوبه الفصيح الصريح ، قد مهدا لعواطف الناس أن تخلص من الغلظة ، وتنأى عن مواطن التحجر ، وتتعهد البر والرحمة ، وترضى بما فى الحياة من آلام ، وتقنع بما فيها من آمال ، وما يعج به بحرها من أوجاع ، وما يقوم على شاطئيه من أشواك .

ألوان العاطفة ...

وبعد ، فأى دموع سخينة تلك التى سحها على صفحات كتبه سحاً أولئك الذين يقرءون رسائل المنفلوطى ؟ ! بل أى عبرات تلك التى سكبوها على « عبراته » سكباً ؟

لقد تقرحت جفونهم من الدمع ، ولقد مهدوا لالامهم أن تمتزج بتلك الآلام التى حملها كاتبنا الأشهر كواهل الأبطال فى قصصه ، وكواهل الصفحات فى « نظراته » .

ولقد راحوا بعدئذ يتساءلون : كيف رضى هذا القلم الجبار أن يقنع بالصور المظلمة من هذه الدنيا ، وأن يدفع عن نفسه كل جانب مشرق بسام ؟

ولـكن : قليلا من الأناة أيها الذين ذرفتم الدمع كلما قرأتم شيئاً لـكاتبنا العظيم .

إنه كان يسترســل فى كتاباته على سياق نفسه ، وعلى ما توحى إليه عواطفه الخاصة ، وأحاسيسه الرقيقة ، ومشاعره التى يدق فيها كل حس، حتى لتـكون الهمسة والأنة، حين تصدر عن وجدانه ، عاصفة داوية ، وريحاً صرصراً عاتية .

كان يأخذ أسلوبه عن عاطفته فحسب ، فكان هذا الأسلوب السهل اللين صورة من الدمعة التى تنحدر فى أناة ، بينما هى جماع النار والألم، جماع الحرارة والفجيعة، جماع المأساة والعنف؛ وكان هذا « الموضوع » الذى يتخيره دائماً ، موضوع البؤس الـكامل ، لأن البؤس كثيراً ما خلق

الزوبعة فى النفس ، وكثيراً ما أتاح الصخب للحس ، وكثيراً ما دفع المعركة بين الحياة والموت إلى كل وجدان .

فهل كان المنفلوطى بائساً حقاً ؟ وهل كان أسلوبه صورة من عواطفه ؟وهل كان المنفلوطى رجلا من رجالات التمائم، وبقية من زمرة المنجمين،حتى يتفق له هذا النفاذ إلى دخائل المشاعر الدقيقة التى تحتضنها نفوس الناس ، وتضن بها على البذل ، وتحرص عليها من لوثة الشيوع ، وتختزنها خوف الذيوع ؟

أجل ! إنه كان بائساً، ولكنه لم يكن من أولئك الذين اخترمت بصيرتهم حجب الغيب، وإنما كان من هؤلاء الذين تسبح نظراتهم فى مجرى عواطفهم . . . فهو يحس ، ويدق فيه الاحساس والشعور، حتى ليسمع أنة المصدور فى فجوة الأرض ، كما يسمع صرخة التائه على الأديم الفسيح .

إنه لم يكن من أولئك الذين احتملهم سحر الأحجبة والتعاويذ ، وإنما كان رجلا يعنى بأوضاع نفسه وألوان حياته . . . لأنه يؤمن ملء قلبه أن هذه الأوضاع وتلك الألوان ، لها فى كل جانب من الدنيا نظير مستور وشبيه مقبور .

وإذا كان « المنفلوطى » قد مهد للبائسين سبيلا إلى الصبر ، ووسيلة إلى التعلل ، وناحية من نواحى السلوان ، فان حياته فى مستهلها هى التى أتاحت لصوته أن يكون نافذ النبرات ، قوى الأداء ، سليم التوقيع ، رائع النغم ، داوياً حين يدوى ، هادئاً حين يريد الهدوء ، ساكناً حين يشاء صاحبه أن يكون ساكناً ، حافلا بالدعة والمرح والايناس !

خصائص رسالته . . .

لقد نجح المنفلوطى فى أداء رسالته الحقة نجاحاً منقطع النظير ، فاليه وحده يعود ابتكار الأسلوب الجزل السهل الممتنع الجذاب ، وإليه وحده يعود توجيه النثر العربى فى العهد الحديث توجيهاً فنياً متزناً طليقاً من شوائب اللكنة والعى والمهاترة والاستخذاء والجمود والركود ، وإليه وحده يعود الفضل الحافل فى تمزيق آخر صفحة من صفحات الركاكة، التى كانت جماع ما يبلو النقادة فى كتابنا الذين جمعوا بين رقدة القرن التاسع عشر ، ونهضة القرن العشرين.

إلى كاتبنا وحده تعود هذه الفضائل ، وليست هى كل ما تميز به على ما فيها من عظمة كل العظمة ، وعلى ما فيها من رواء كل الرواء ، فقد تميز الرجل بخصائص الرجل الكامل ، هذه الخصائص التى قلما يستطيع أحد أن يجمعها إلى نفسه جملة واحدة ، وحشداً واحداً .

وإنه ليقمن بنا أن نطلق الضوء على هذه الخصائص ، فنحصيها أول الأمر ، ثم نعقب على هذا الاحصاء بتحقيق دقيق لأثرها عليه، وأثرها على قرائه، وأثرها بعدئذ على الأدب العربى،(١) اسلوباً وتفكيراً .

إيمان ويقين . . .

وما من ريب فى أن بداءة هذه الخصائص، إنما هى إيمان المنفلوطى إيماناً هو فوق اليقين ،

(١) أرجأنا بحث هذه النقطة الى فرصة أخرى .

وفوق الصراحة الحاسمة بما يصدر عن قلمه، وما ينتج عن يراعته. ولكى تدرك مبلغ ما فى هذه الخاصة من روعة، ومقدار ما تتعهده من خطر، يجدر بنا أن نحدثك بأن جمهرة من كتابنا كثيراً ما يوزعون فى رسائلهم أفكاراً مستحدثة لا يستطيع أحد منهم أن يستطيبها لنفسه، أو ينشدها لحياته الخاصة، كأن يلح أحدهم ـ مثلا ـ فى طلب الحرية للنساء، وحرية السفور، وحرية التمتع بالحق المدنى كاملا غير منقوص، حتى إذا دعى مع زوجه إلى حفل مشهود، تألب على الداعين، ونهض إلى آذانهم يقرع فيها احتجاجه الصارخ قرعاً، لأنهم ذهبوا فى الزراية بتقاليد بيته مذهبا لا قبل له باحتماله، ولا مفر له من أن يحتج عليه احتجاجا شديداً.

ولكن المنفلوطى كان لا يرسل الفكرة فى رسائله إلا بعد أن يؤمن بها أعمق الايمان، وأخلص الايمان، فهو إذن رجل صادق الوحى، صادق التقدير لعواطفه، صادق الود لنفسه، صادق الوفاء لنزعاته وخوالجه وهواجسه جميعا.

سلطانه على قرائه . . .

وإلى هذه الخاصة — على خطرها — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى، ليست بأقل خطراً، ولا بأهون شأنا، تلك هى عنايته بايقاظ الجماهير على ما فيهم من: تناقض فى المدارك، وتباين فى الطبقات، واختلاف فى الثقافة، وتفاوت فى التهذيب.. وهذه العناية منه كانت فى الواقع أمجد ما أتى الرجل، وأخلد ما خلف بين الناس، لأنها من نوع قلما يستطيعه الأكثرون.

كانت «نظرات» المنفلوطى، وكانت «عبراته»، وكانت هذه القصص التى ترجمها، كان هذا كله يندفع إلى الجماهير، فيقرأه الرجل المثقف على أنه هدية لا يتأتى نيلها إلا لرجل مثقف، ويقرأه التلميذ الناشىء على أنه خير ما يستطيع أن يفهمه ويدرك خباياه، ويقرأه العامل ونصف المتعلم على أنه رسالة لها على المشاعر سلطان قوى، ولها فى الوجدان نفوذ غير محدود.

أولئكم جميعا — المثقف، والناشىء، والعامل، ونصف المتعلم — قد فهموا «المنفلوطى» فلم يملوه، ولم يجتووه، ولم يثقلهم حديثه، أو تفدح كواهلهم آياته . . . فأى سحر فى هذا الرجل؟ بل أى سحر فى أسلوبه حتى قدر له أن يطمئن إلى إعجاب الناس جميعاً؟

الواقع أن روح الرجل كانت تخلع على رسائله ثوبا من الصدق، وأن حياته الخاصة ـ بما فيها من كفاف ـ قد حققت لرسائله أسلوب الدقة، ومهدت لها طريق الذيوع، ونفحتها بما يشبه شذى الأزاهير وعبيق الورود.

والواقع أن هذه البساطة فى كل شىء، قد مكنت للرجل أن يكون هادىء الأعصاب، بعيداً عن شهوات النفس: كالحقد والحسد والموجدة والثورة والجمود، ... الخ؛ فهو إذن يلابس المنطق السليم، ويجابه الذوق السليم، وله من منطقه ما يزيد فى وجاهة آرائه، وله من ذوقه ـ بعد هذا كله ـ ما يزيد فى أسلوبه روعة؛ وفى معانيه دقة . !

والواقع أن أسلوب « المنفلوطى » كان أسلوب الرجل ذى العواطف الدقيقة ، لأنك تلمس فيه الجاذبية التى لا تتأتى إلا من موسيقى رائعة ، ومن موسيقى بارع . . . ففى هذا الأسلوب حدود تكاد تشبه حدود الشعر المقفى ، وفيه توقيع يكاد يشمل ما فى نغمات المطرب الصداح من توجيه متزن ، وتلوين مبرقش ، وتقلب رشيق ، وخاتمة لا تقع حين استقرارها إلا على قلوب السامعين.

فهم دقيق ...

وإلى هاتين الخاصتين — على ما فيهما من خطر أيضا — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى فهمه لما يدق على نظائره أن يفهموه . ففى قصة « الشاعر » ، وفى « ماجدولين » ، وفى « الضحية » ، وفى « الانتقام » ، وفى « الفضيلة » ، وفى « عبراته » أيضا ، فى هذه القصص مواقف غريبة عن جو الرجل الأزهرى ، بل هى غريبة عن جو المصريين ؛ ولكن المنفلوطى حين أدرك هذه القصص ليبعثها إلى قراء العربية موشاة بقلمه الفاره ، لم يكن من شأنه أن يدع ما يطلق القاصون عليه « عقدة القصة » ، وأن يترك هذه « العقدة » أو يوزعها توزيعاً لا حبكة فيه ... وإنما استطاع ، فى كثير من السهولة ، أن يترجم العواطف التى جمعتها هذه القصص جمعاً ، وأن يكون فى ترجمته لها غير متبلد ، وغير مسوق بشىء من العى ، أو شىء آخر من التعقيد .

وحى العاطفة ...

وإلى هاتيك الخصائص الثلاث — على ما فيها جميعاً من خطر — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى جنوحه إلى وحى عواطفه ، دون أن يكون متاجراً بأسلوبه القيم ، أو نفوذه الذائع ، أو صيته البعيد ، بل دون أن يكون مهرجاً ، أو مهوشاً ، أو متابعاً لرغبة السوق ، وأطماع الوراقين ! ذلك أنه لم يترجم قصة تناقض عواطفه ، ولم يؤلف قصة تناقض عواطفه أيضاً ؛ ففى « الشاعر » رجل شقى هو « سيرانو دى برجراك » ، وفى « ماجدولين » رجل يائس بائس هو « استفن » ، وفى « اليتيم » — وهى قصة مؤلفة — إنسان حفلت المصائب على كاهله ، وفى أشتات الأقاصيص التى ألفها أبطال هم فى الحق أبطال البائسين ، جرت بأنبائهم يراعة المنفلوطى القادرة ، فسحت لهم دموعاً هى دموعه ، وأبقت لهم ذكراً هو ذكره .

ولو لم يكن كاتبنا يساير عواطفه حقاً ، أما كان من خيره أن يصطنع بقلمه وجوها غير هذه الوجوه القاتمة ، وأن يطرق أبوابا غير هذه الأبواب الثقيلة الرتاج ؟.

أثر خصائصه

أما كيف أثرت هذه الخصائص فى الناس ، فما نحسب أن أحداً ينكر على المنفلوطى أنه جمع أسباب الخلد كله ، فما تزال كتبه ذائعة لها رواجها ولها انتشارها الدائم ، مما لم نر له شبيهاً فى مصر ، بل فى الشرق كله ، وما تزال كلماته حلية الرسائل ، بل ما تزال ثروة للمقتبسين ؛ وما تزال آراؤه هى الآراء الجديدة البكر ، وسيمضى عليها الزمن حقبة إثر حقبة دون أن يخبو ضوءها اللألاء ، ودون أن يهزل هيكلها القوى البناء .

حياته فى بيته

وإذا نحن بحثنا هذه الخصائص كلها على ضوء حياته الخاصة ، تمثلت لنا روح الألفة بين الرجل وبين إنتاجه ... ذلك أنه كان يعيش فى بيته سرى العاطفة ، إذا تقطبت أساريره فلن تتقطب إلا للحادث الفادح ، وإذا انفرجت هذه الأسارير ، فلن تنفرج لما يستقبل من نفع مادى ، وإنما تنفرج لما ينشرح له صدره حين يقضى حاجة معوز ، أو يدفع عن واحد من أصفيائه أذى.

أما البساطة فى العيش ، وأما التألب على الأناقة والبهرج والزخرف ، فقد كانا خير ما فى حياته الخاصة من صفات .

كيف كان يكتب ؟

كان الرجل حين يريد أن يكتب لا يقتنص بنات النثير ، ولا بنات القريض ، بالروضة الفينانة ، ولا بالكأس المترعة ، ولا بالأكلة الدسمة ، ولا بالمشاهد الرائعة ... وإنما كان يقتنص المعنى البكر ، والكلمة البكر ، بهذه الجلسة المتواضعة على السرير ، بينما يرقد أمامه إبريق من الشاى !

حياته وأسلوبه صورة من عاطفته

هى إذن حياة سهلة تشبه أسلوبه السهل ، أو أسلوب سهل يشبه حياته السهلة ، ويمثل عاطفته ووجدانه أصدق تمثيل ، وهى إذن حياة سرية بالعواطف الخيرة تشبه أسلوبه السرى بالعواطف الخيرة .

فكانت هذه الحياة مثار إعجاب وتقدير ، كما كان هذا الأسلوب مثار إعجاب وتقدير .

وإذا كانت هذه الحياة قد أثرت على صاحبها فى شىء ، فالحق أن لها أثراً باقيا لا يبيد ، هو أن « المنفلوطى » لم يجد له فى حياته عدواً أمعن له فى العداء ، وأطنب فى إيذائه والتألب عليه.

وإذا أنت علمت أن كاتبنا النابه قد لقى فى حياته من نباهة الذكر : ما يوفر له حشداً من الحاسدين ، وجمعاً من الناقدين المغرضين . . .

وإذا أنت علمت أن الحسد « الأدبى » كثيراً ما يولد الضغينة الشخصية اللافحة المحرقة...

وإذا أنت علمت أن المنفلوطى لم يلق فى حياته وبعد موته من يتقول عليه ، أو يدفع إليه كلة نابية ، أو حديثا جافيا ...

إذا أنت علمت ذلك كله ، أدركت فى شىء من السهولة ، أن الرجل كان يصدر عن عواطفه ، ويستوحيها ويعمل فى ظلها ، ومن ثم يتحقق لك : أن أدب المنفلوطى كان كالمنفلوطى نفسه ، صورة من عواطفه الخاصة ، وأن رسالة المنفلوطى رسالة صادقة حقة ، هى خلاصة ما أوحت به عاطفته الخاصة .

ولهذا عاش من غير سر يفضح ، ومات كما عاش محفوفاً بالتوقير والتقدير . م؟

عبد العزيز الاسلامبولى

الشعر الجاهلى

تأثيره ومنزلة رجاله

بقلم الاستاذ السباعى السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

لقد كان للشعر الجاهلى فى العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ، ولرجاله بينهم مكانة ما أرفعها من مكانة ، ذلك أنهم كانوا ذوى فطر سليمة ، ونفوس حساسة ، وكان الشعر طبيعة فيهم ، تمتزج منهم بالدم واللحم ، لا يزالون يقولونه ، ويستوحون سماءه ، فينقادون لخياله ، ويخضعون لأحكامه .

وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان ، لا يقل شأناً عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الأفراد والجماعات ؛ فكانت كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها ، وتتخير من بينهم أقواهم حجة ، وأبلغهم قولا ، ليكون المشيد بمحاسنها ومفاخرها ، الذاب عن أحسابها وأعراضها . ولقد أثر فيما أثر أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل الأخرى لتهنئتها ، فصنعت الأطعمة ، ومدت الموائد ، وتباشر الرجال والولدان ، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن فى الأعراس .

ولشدة ما كان للشعر من تأثير ، جاوز فيه المنطق ، وتعدى المعقول ، نسبته العرب إلى الجن ، وسمت الشعراء بالساحرين ، قال رؤبة :

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مراً ومراً شاعرا

ففى كل باب من أبوابه ، كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره : إذا نسب رقق القلوب القاسية ، واستنزل العصم العاصية ، وإذا وصف أراك ما لم تر ، كأنه المرئى ، وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير ، وإذا رثى أثار الشجون ، وحرك مكامن الذكريات ، فاذا ما فخر بالحماسة والاستبسال — وهذا أكثر ما يكون — حبب إلى الجبناء القتال ، وأرخص الموت على مغلى الحياة . قال معاوية بن أبى سفيان : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر آدابكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغبر محجل ، بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الاقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة من شعراء الخزرج الجاهليين.

أما شعراء المديح والهجاء، فقد كانوا شقاء أقوامهم، وسموم أعدائهم، لا يزالون لقبائلهم يحمون سلطانها، ويرفعون بنيانها، فيذبون عن حياضها، ويدافعون عن وردها. وأمر احتماء القبائل بشعرائها كثير الحوادث، مروى الأخبار، فلا حاجة إلى الخوض فيه، ولكن الذى نريده أقوى حجة فى تأثير الشعر: أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء، وفيها من الشعراء من يخشى لسانه، ويتقى هجوه، لم يك أمام قبيلته - فى دفع ما تحذر - إلا حمله إلى من هجاهم متبرئة منه، مسلمة فيه، وهذا ما حدث حين هجا عبد الله بن الزبعرى السهمى بن قصى، فقد حمله السهميون إلى عتبة بن ربيعة خوف هجاء الزبير بن عبد المطلب، وكان شاعراً شديد العارضة قذع الهجاء، فلما وصل عبد الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه، فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فإن قصياً أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها

وكان الزبير غائباً بالطائف، فلما حضر مكة وعلم الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم شمال أو طمار بها ودك كما دسم الحميت
ولكنا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت

وكان الشاعر إذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها، تطلعت إليه القبائل الأخرى، فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لناظريها، كما كان من الحطيئة، وقد استضافه الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة، وقصرت امرأته فى إكرامه وهو غائب، فأخذه بغيض بن عامر من آل لأى بن شماس، وبالغ فى إكرامه مراغماً للزبرقان، فكان خير ما قال الحطيئة من شعر فى هذين الحيين هجاء ومدحا، قال يهجو ويمدح فى ان، والقبيلان ابنا أخوين :

ولما أن أتيتكم أبيتم وشر مواطن الحسب الاباء
ولما أن أتيتهم حبونى وفيكم كان لو شئتم حباء
ولما أن مدحت القوم قلتم: هجوت، وهل يحل لى الهجاء ؟
فلم أشتم لكم حسباً، ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
فأبقوا - لا أبا لكم - عليهم فإن ملامة المولى شقاء

وإن أباهم الأدنى أبوكم وإن صدورهم منكم براء

ولولا أن هذه الحادثة فى خضرمة الحطيئة ، لأتينا من أشعاره فيها بالكثير .

هذا إلى أن التحاسد على الشعراء لم يك قاصراً على القبائل ، بل تعداها إلى الملوك ؛ وهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، تبصر كيف كان اجتذابه للنابغة يمدحه ويمدح آل بيته ، وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام ، فأعظموا حباءه حتى مدحهم، ثم كيف كان غضب النعمان عليه لهذا الانحراف غضباً سارت باعتذارات النابغة من أجله الأمثال ، ومع هذا لم ينل من النعمان رضاً ، لأن الشركة فى هذا الباب بين متناظرين ليست مما يطاق ، ولو أردنا لهذا ضرب الأمثال لكان ديوان النابغة جله نماذج لما نقول .

ومن غريب تأثير الشعر إذ ذاك ، أن الشاعر كان إذا وصم سيداً بهجاء لم يجد من يغسل عنه ذلك إلا هذا الشاعر نفسه . ذكروا أن بشر بن أبى خازم الأسدى حمل على هجاء أوس ابن حارثة بن لأم الطائى فهجاه بأشعار كثيرة ، منها قوله :

ألا أبلغ بنى لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب
وما أوس ولو سودتموه بمخشى العرام ولا أريب
أتوعدنى بقومك يا ابن سعدى وذلك من ملمات الخطوب
وحولى من بنى أسد عديد من بين شبان وشيب
إذا ما شمرت حرب سمونا سمو البزل فى العطن الرحيب

والقصيدة طويلة ، ثم وقع بشر أسيراً عند بنى نبهان من طيء ، فاشتراه أوس بمائتى بعير ، ولما أخذه قال له : هجوتنى ظالما ، فاختر بين قطع لسانك وحبسك فى سرب حتى تموت ، وبين قطع يديك ورجليك وتخلية سبيلك ؛ هكذا ذكر الرواة ، ولكن رأيى : أن استقامة القول تقتضى قرن التخلية بقطع اللسان ، حيث لا خوف منها ، وجعل الحبس مع تقطيع اليدين والرجلين حتى لا يقول ؛ فسمعت أمه ــ وهى سعدى بنت حصن من سادات طيء ــ قول ابنها هذا لبشر ، فقالت له : يا بنى ، لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة ، فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة ، أذعت أنك قاطع رجلا هجاك ، فمن يمحو إذن ما قال فيك ؟ قال : فما أصنع به ؟ قالت : تكسوه حلتك ، وتحمله على راحلتك ، وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه ، ففعل ، فامتدحه بشر فأكثر . قال أبو محمد الأخفش : «مدح بشر أوساً وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس» ، فمن مدائحه فيه قوله من قصيدة (والخطاب للناقة) :

إلى أوس بن حارثة بن لأم لربك فاعملى إن لم تخافى

فما صدع بحبة أو بشرج   على زلق زوالق ذى كهاف
تزل اللقوة الشغواء عنها   مخالبها كأطراف الأشافى
بأحرز موئلا من جار أوس   إذا ما ضيم جيران الضعاف
وما ليث بعثر فى غريف   تغنيه البعوض على الطناف
مغب ما يزال على أكيل   يناغى الشمس ليس بذى عطاف
بأبأس سورة بالقرن منه   إذا دعيت نزال لدى النعاف
وما أوس بن حارثة بن لأم   بغمر فى الأمور ولا مضاف

ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت فى بنى عبد المدان ، إذ هجاهم ببسطة أجسامهم وكانوا يفخرون بها ، فقال :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ   جسم البغال وأحلام العصافير

فلم يزالوا يخجلون من أنفسهم حتى محا ذلك عنهم بقوله :

وقد كنا نقول إذا التقينا   بذى جسم يعد وذى بيان
كأنك أيها المعطى لساناً   وجسماً من بنى عبد المدان

وأغرب مما تقدم فى تأثير الشعر ، أن الشاعر كان إذا تعرض لنابه أنزله من ذروته ، وإذا مدح خاملا رفعه من وهدته . فمن قضى الشعر على مكانتهم ، الربيع بن زياد، وكان من خواص النعمان ، لا يزال ينادمه ويؤاكله ، حتى إذا ما سمع فيه أرجوزة لبيد :

« مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه »

وفيها إقذاع أعرض عنه، فقال الربيع : أبيت اللعن أيها الملك كذب الغلام، وأخذ فى الاعتذار فلم يصغ النعمان إليه ، وقال :

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً   فما اعتذارك من قول إذا قيلا ؟

ثم حجبه ، فسقطت منزلته . وممن رفعهم ـ بعد خمول ـ المحلق الكلابى ، وكان مملقاً كثير البنات ، قد رغب عن مصاهرته الأزواج ، فأشارت عليه امرأته أن يضيف الأعشى وهو قادم إلى الموسم ، فيكرمه بما يملك ليقول فيه قولا تتزوج منه بناته ، وتحسن حاله ، ففعل ولما أصبح الأعشى بعكاظ ، أنشد قافيته المشهورة التى يقول فيها فيما نحن بصدده :

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة   كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم   مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا   بأسحم داج عوض لا نتفرق

ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه   كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس يتسللون إلى المحلق ، يهنئونه ويخطبون إليه بناته ، فلم تمس واحدة منهن إلا فى عصمة رجل بين الفضل على أبيها ، وهذا من التأثير السحرى للشعر .

بل لقد بلغ من تأثيره أنه كان ببيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة ، ومسبتها مفخرة . حدثوا أن بنى العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم لأبيهم ، لما روى من أنه لقب به ، لتعجيله قرى الأضياف ، فلما هجاهم النجاشى بأبياته التى يقول فيها :

وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

صاروا يستحيون منه . وعلى غير هذا كان بنو أنف الناقة يخجلون من هذا اللقب ويتجاوزونه فى نسبهم ، حتى قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

فصاروا يتطاولون به ويعدون أصواتهم فيه بجهارة .

***

فالشعر فى تأثيره كان كما قيل فيه :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة   ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

وقديماً تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إلى هرم بن قطبة ، فسوى فى الحكم بينهما ، ولكن الأعشى قال :

علقم ما أنت إلى عامر   الناقض الأوتار والواتر

إن تسد الحوص فلم تعدهم   وعامر ساد بنى عامر

إلى آخر ما قال ، فنفر الناس عامراً بهذا الشعر ، ولم يأبهوا إلى ما كان من تسوية الحكم بينهما .

***

هذا بعض ما كان للشعر من تأثير فى العهد الجاهلى ؛ ومنه كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب ، كما تخاف وترهب ، فلا يزالون يستخدمون فى الوعيد والاغراء ، ويستعان بهم فى الاستعطاف والاستشفاع ؛ فقد أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة فنكل بهم ، واستشفع علقمة الفحل الحارث الغساني فى أخيه شاس وتسعين أسيراً معه من تميم فأطلقهم له جميعا ، وكذلك كان شأنه وأشد بعد الاسلام ، ولكن ليس هنا مجال القول فيه .

السباعى السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

نثر أبى الفرج الببغاء

بقلم الدكتور زكى مبارك

١ — يمتاز نثر الببغاء بعدة ميزات: أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب فى ميوله الذوقية والوجدانية، فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً، وهو من جهة الموضوع يتصل فى أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع، ولذلك نقرأ نثر الببغاء فى طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التى تشغل بال الرجل المهذب الذى يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول فى حماه العقول.

٢ ـ وأول ما يطالعنا من نثر الببغاء هو رسائله الأخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهى الرسائل التى بث فيها شوقه إلى أصحابه وألافه وأخدانه، بطريقة وجدانية تقرب فى روحها من قصائد النسيب، كأن يقول:

« شوق المملوك إليه شوق الظمآن إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر »(١).

أو يقول:

« شوقى إليه شوق من فقد بالكره سكنه، وفارق بالضرورة وطنه » (١).

وقد يحاول تعليل صبره على بعد موروده فيقول:

« ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتخيل الممثل لمن نأت محلته، والتفكر المصور لمن بعدت شقته، لألهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهمت دموعه، وانقضت ضلوعه، والله المحمود على ما وفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح» (١).

وله فى هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس، وتسكن إليها الروح؛ وانظر كيف يقول فى رفق أشبه بتناجى المحبين:

« إن تزايلت الأشباح، فقد تواصلت الأرواح، وإن نزحت الأشخاص وبعدت، فقد دنت الأنفس وتقاربت، فلا تمض الفرقة وتؤلم، وتنغص النوى وتكلم، وقد ينال بتناجى الضمائر، وتحاور السرائر، ما لا تصل إليه الاشارة، ولا تدل عليه العبارة، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى، وأبعد من الألسنة مرمى » (٢).

---

(١) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٤٣ (٢) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٤٤

ونحن نفهم هذا . فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشاً لا نجده فى وجوه من نسا كنهم ونلاقيهم صباح مساء ، والود ود القلوب .

٣ ـ وفى رسائل الببغاء تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيد لما عرف عن العرب من بعض الخلال ؛ من ذلك رسالته فى التهنئة بمولودة : فهى تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات ، ولهذا نراه فى هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنىء فيقول :

« لو كان الانسان متصرفاً فى أمره بارادته ، قادراً على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، واستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعاً ، وعلى ما عنه ظهر فى الابتداء مطبوعاً ، كان المخرج له إلى الوجود من العدم ، فيما ارتضاه له غير متهم ، ومولانا ـ أيده الله ! ـ مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحدة فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النصح الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة إليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر ؛ وقد اتصل بى خبر المولودة كرم الله غرتها ، وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ، وما كان من تغيره عند اتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك واستنكره ، من مولانا وأنكره ، لضيق العذر فى مثله عليه ، وقد علم مولانا أنهن أقرب إلى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب ، فقال جل من قائل « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور » ، وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف استحدثن ، من طرق الأصهار ، والاتصال بالأخيار ، والملتمس من الذكر نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكر الأنثى أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعا ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويجدد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، إن شاء الله تعالى » (١) .

ويظهر أن هذا النوع من التهانى كان من الموضوعات الملحوظة فى القرن الرابع ، فقد عقد له الحصرى فصلا فى زهر الاداب ، ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأنثى على الذكر قول بعض الكتاب :

« الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ، والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون » (٢) .

(١) صبح الاعشى ص ٦١ ، ٦٢ ج ٩ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية

ويتصل بهذا المعنى ما اقترحه سيف الدولة على الببغاء من الكتابة إلى من تزوجت أمه، وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرهاً شديداً . وقد اتفق لعمرو بن مسعدة أن سأله سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه ؟ (١) وهـذا دليل على أن كتاب القرن الثانى كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء ، أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهراً أشـد الظهور ، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهجن عمله ، وأشار إلى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه فعظم لذلك همه ، وانفرد عن أودائه ، وتوارى عن أصفيائه ، حياء من لقائهم ، وكرهاً لتهنئتهم أو عزائهم ، ثم بين نماذج ما يكتب فى مثل هذه الحال (٢) .

وإلى القارىء نص رسالة الببغاء التى اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

« من سلك إليك ـ أعزك الله ! ـ سـبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله ؛ واتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبك إليها إليك ـ وفر الله صيانتها ـ فى اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروءة يحظره ، لكنت فى مثله بالرضا أولى ، وبالاعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى ، فلا يسخطنك من ذلك ما رضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع ، وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره ، تسخط اختيار القدر له ، والسلام »(٣) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الببغاء تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض ، ولكن رسالة ابن العميد أكثر وحشية ، وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات، وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

« وهناك الله الذى شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته ، والرضا بقضيته . . . وجعل الله تعالى حده ما تجرعته من أنف ، وكظمته من أسف، معدوداً يعظم الله عليه أجرك ، ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعلها، المنتظر من ارتماضك لدفنها (٤) وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك من بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ، وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرءاً من محنة » (٥).

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا إلى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول شرقية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها إنسان ولا حيوان ،فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد ، وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات

---

(١) صبح الاعشى ص ١٤٥ ج ١ (٢)زهر الآداب ص ٦٣٦٢ ج ٢ الطبعة الثانية (٣) صبح الاعشى ج ٩ ص ٧٩ (٤) الارتماض : الحزن (٥) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

إلا لظهور ذلك فى أدبهم ظهوراً قويا (١)، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس، فرأيناهم يؤثرون البنين على البنات، وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين.

٤ – ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغاء رسائله فى استهداء الشراب، وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب، وشباب الأرواح، وفى طى ذلك الاستهداء معنى لطيف، فقد كان المستهدى يشير غالباً إلى أن لديه «زائرين أعزاء»، يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوباً) أسعده بزيارته، وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروماً من نفحة الصهباء، وانظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله:

«من كان للفضل نسباً، ولفلك الفتوة قطباً، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه، ولم تعول الأنفس فى استماحة المسار إلا عليه؛ وقد طرقنى من إخوانى من كان الدهر يماطلنى بزيارته، وينفس (٢) على بقربه ومشاهدته، فصادفنى من المشروب معسراً، ووجدت الانبساط فى التماسه من غيرك على متعذراً، وإلى تفضلك تفزع مروءتى فى الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة، ويجمع شمل المسرة، ويجعلنا لك فى رق الاعتداد بالمنة، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة» (٣).

وفى المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية:

«ألطف المنن موضعاً، وأحلها من الأنفس موقعاً، ما عمر أوطان المسرة، وطرد عوارض الهم والفكرة، وجمع شمل المودة والألفة، وأدى إلى اجتناء ثمرة اللذة، وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حر الشكر، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر، فان رايت أن تنجد بالممكن منه مروءتى، على قضاء حق من أوجب على المنة بزيارتى، فعلت» (٣).

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء؟ يدل أولا على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة – كما يعبر أبو الفرج – فى السهرات الأخوانية، ويدل ثانيا على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء، كما يقع ذلك اليوم فى أكثر الحواضر الشرقية، وإنما كان مما يدخره المترفون، حتى استطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينمقون فى طلبه الرسائل الملاح؛ والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان فى الرسم والنطق والمدلول (٤).

---

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن، أما بغض الهنود للبنات فيكفى في بيانه قول مؤلف كايلة ودمنة: «كان يقال: ان العاقل يعد أبويه أصدقاء، والاخوه رفقاء، والازواج ألفا.، والبنين ذكراء، والبنات خصماء، والاقارب غرماء، ويعد نفسه فريداً» (٢) ينفس: يحسد (٣) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٢٣ (٤) في هذه اللفتة شيء من الحق وكل ما بين الكلمتين من الفرق ان الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعوزون كالطعام، وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون فى أذواقهم وان كانوا فقراء.

ـ ٥ وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك فى أنفس الكتاب ، وقد استهدى الببغاء دواة فقال :

« أنفس الذخائر وأشرف الآمال ، ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، وبالدوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب در الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه فى وجود الرضى على الحقيقة منها ، فان رأى مولانا أن يميط ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح باهدائها إلى أهل تصريفه ، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته ، فعل إن شاء الله تعالى » (١) .

واستهدى مداداً فقال :

« التنافس ـ أيدك الله ! ـ فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة ، والتخير لبيان الامكان والقدرة ، وإلا فسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمده بطون الكتب منها ، وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذى هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الأفهام ، وشرب الأقلام . . . . ولا معدل بى عن استماحة خزائنك ـ عمرها الله ! ـ الممكن من جيده ، فان رأيت أن تستنقذ دواتى من خمول العطلة ، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان والخلة ، فعلت ، إن شاء الله تعالى » (١) .

ولنلاحظ أن الببغاء لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مداداً كيف كان ، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ، ولو كانت عاطلة ، ويستهدى مداداً (جيداً) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جداً فى بعث نشاط الكاتب ، وكذلك تفعل الأقلام الجيدة ، وهذا كلام فصلناه فى المقدمة الفرنسية التى صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارىء هناك (٢) .

٦ ـ وقد لاحظنا أن الببغاء يكتب فى الموضوع الواحد غير مرة، وفقاً للظروف، من ذلك رسائله فى التهنئة بالزواج (٣) والتهنئة بولاية عمل (٤) والتهنئة بالقدوم من سفر (٥) والتهنئة بالمواسم والأعياد .

وهذا كله طبيعى ومقبول ، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه فى التهنئة بالصرف عن الولاية ، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل ، ولكننا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل ، وما ننكر

(١) صبح الاعشى ج ٩ ص ١٢١ (٢) وللقارىء ان يراجع ما أثبته زهر الآداب من (اوصاف آلات الكتابة والدوى والاقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية (٣) اثبت له صاحب الصبح اربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩ (٤) اثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٥) اثبت له اربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩

أن يقع ذلك ، ولكنه فى رأينا من التكلف الممجوج ، وإن كان يدل على لباقة وذكاء، ولننظر كيف يحتال الببغاء فى مثل هذه الحال:

« من حل محله ـ أيده الله تعالى ! ـ من رتب الرياسة والنبل ، كان معظماً فى حالتى الولاية والعزل ، لا يقدح فى قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال ، إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها ـ كان ـ بما أفادته من محمود أثره» (١) .

« لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما اختصك به من كمال الفضل ، ومأثور النبل ، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه بنواظر نزاهتك وصيانتك ، . . . . . فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك ، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك ، ولذلك كنت بالصرف مهنئاً مسروراً ، كما كنت فى الولاية محموداً مشكوراً » (١) .

٧ ـ وهذا الاستطراف لا يفارق الببغاء ، فقد كتب عدة رسائل فى التهنئة بالشفاء من المرض ، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه فى العلة والشكوى، ويعجبنا من ذلك قوله :

« ما كنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتك ، ولا سلامتى مضافة لسلامتك، إلى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحة ، والمرض والمحنة ، فالحمد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك ، وجمل خلقى بملاءمتك ، فيما ساء وسر ، وإياه تعالى أشكر على ما خصنى به من كمال عافيتك ، وسبوغ سلامتك ، وسرعة إقالتك » (٢) .

ولكنا نبتسم حين نراه يهنىء صديقاً بالمرض فيقول :

« فى ذكر الله سيدى بهذا العارض ـ أماطه الله وصرفه، وجعل صحة الأبد خلفه ـ ما دل على ملاحظته إياه بالعناية ، إيقاظاً له من سنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام ، وتنبيه العظات ، غير الصفوة من عباده ، الخيرة من أوليائه، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه ، وحمل عنه بألطافه ثقل ما يعانيه » (٣) .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارىء التى تحتاج إلى التلطف فى المواساة ، وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ ـ وقد يتفق للببغاء أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع واحد ، كقوله فى التعزية :

« اتصل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة ، وسكب العبرة ، وأضرم الحرقة ، وضاعف اللوعة » (٤) .

فانا نراه يعيد هذه التعابير فى كلمة ثانية فيقول :

« اتصل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعة » (٥) .

---

(١) الصبح ج ٩ ص ٧٧ (٢) ص ٦٥ (٣) ٧٦ (٤) ٩٦ (٥) ٩٧

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة ، وبعض المعانى يعسر الافتنان فى تلوينها أحياناً . على أنه استطاع أن يخفى فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) ، مقابل (جدد الحسرة) ، وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقة) ، وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين.

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزية لصديق :

« أحسن الله فى العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته » (١) .

وقوله :

« وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن إلى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك » (٢) .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار (٣) ، والتهنئة بالمنزل الجديد (٤) ، وإن كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ ـ لقد ضاعت رسائل الببغاء ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبى رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

[فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره]

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن رصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء ، وإلى القارىء نموذجاً من رسالة له فى مدح سيف الدولة (٥) :

« الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يطرق الدهر إذا نطق ، وينطق المجد إذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين جديداً ، وذميم الأيام حميداً ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ... ولا انتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبى وآله ... ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه ... بأغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر . . . الخ » .

١٠ ـ هذا ولا ننس أن نذكر القارىء بأن فضل الببغاء فى رسائله لا يقاس إلى فضله وبراعته فى نثره المرسل الذى دبج به قصصه الغرامية ، وقد حفظ له منها شاهد يعز على من رامه من أندى الكتاب قلماً وأسماهم بياناً (٦) .

زكى مبارك

(١) ٩٦ (٢) ٩٧ (٣) ١٧٠ و١٧١ (٤) ٧٢ و٧٣ صبح الاعشى ج٩ (٥) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص١٨٢ـ١٩٢ ج ١ (٦) تجد هذا الشاهد فى اليتيمة ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٨٢

رأى فرويد فى الاحلام

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر
أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

إن رأى فرويد فى الأحلام مرتبط تمام الارتباط برأيه فى اللاشعور أو العقل الباطن ، فلكى تفهم الأول حق الفهم لا بد من فهم الثانى ، ولذا كان لزاماً علينا أن نقص عليك قصص العقل الباطن كما يراه فرويد ، ولو على وجه الاجمال ، تاركين التوسع فى بحث هذا الموضوع إلى فرصة أخرى .

يرى فرويد ومن تبعه أن للعقل ثلاث شعب: شعبة ظاهرة أو شعورية ، وأخرى شبه شعورية ، وثالثة باطنة أو لاشعورية (١) .

أما الناحية الشعورية فمعناها مكونات العقل فى وقت من الأوقات ، أو هى ما يحويه العقل من إدراكات ووجدانات ونزعات ظاهرة يعرفها الانسان ويشعر بها وبآثارها فى حياته لوقته وساعته .

وأما شبه الشعورية ، فتتكون من إدراكات ونزعات كانت من نصيب المرء فى حياته الماضية ، ومع ذلك لا يشعر بها ولا تدخل فى دائرة شعوره الآن ، ولكن من الممكن إحضارها واستدعاؤها إلى حظيرة الشعور عند الحاجة إليها ، أو لسبب من الأسباب .

أما الناحية اللاشعورية التى تسمى بالعقل الباطن ، فتتكون من : رغبات ، ومخاوف ، ووجدانات ، ونزعات قامت بالنفس فى الماضى ، ودخلت فى تجارب الانسان فى حياته الغابرة ، لا سيما فى عهد الطفولة ، ثم قضى عليها القانون الاجتماعى ، وحكمت عليها البيئة والظروف الخارجية بالقمع والكبت والانحدار ، فانحدرت من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور فصارت نسياً منسياً .

وعلى مر الزمن تنضم إليها رغبات أخرى لا تتحقق ، فتتكون فى العقل الباطن عقد أو كتل من الرغبات (٢) والمخاوف ، كل منها مكون من رغبات متشابهة ، تظل كامنة مكبوتة (٣) مدحورة تحتل غياهب العقل الباطن ، ولكنها تنتهز أية فرصة لمحاولة تحطيم ذلك السجن ، والخروج من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، فلا تتمكن من ذلك ، لأن هناك رقيبا (٤) يمنعها من الخروج ؛ ذلك هو العقل الظاهر ، والقوانين الاجتماعية ، أو رغبة الانسان فى العيش فى بيئته عيشة هدوء وسلام .

---

[1] Conscious, Subconscious and Uonconscious.

[2] Complexes [3] Suppressed [4] Censor.

فاذا قويت هذه الرغبات والمخاوف ، ولم تجد لها منفذاً مطلقاً ، تغلبت على الرقيب وخرجت قهراً عنه ، وتخلصت من القيود والاغلال ، وحطمت كل ما يحول دون تحريرها ، وفى هذه الحالة تظهر على المرء أعراض الجنون أو المرض العصبى أو الأعمال العقلية الشاذة .

ولكنها إذا وجدت لها منفذاً ، ولو بالاحتيال على الرقيب ، سعت فى الخروج بالتحايل رأفة بكيان السجن (العقل الباطن) ، ورغبة فى الاتصال بالعقل الظاهر والعيش معه عيشة وئام . واحتيالها على الرقيب يشتد وينجح فى أوقات ضعفه أو غفلته عن الرقابة ، أى حينما يخف ضغط العقل اليقظ ، كما فى حالة النوم ، وأثناء التنويم المغناطيسى ، والمرض ؛ فحينئذ تلبس هذه الرغبات غير ملابسها ، وتتنكر أمام الرقيب ، وتدعى شخصيات غير شخصياتها ، وتخرج إلى الشعور متزيية بأزياء أخرى ، كما هى الحال فى الأحلام الرمزية ، والخبل ، والوهم وانقسام الشخصية (١) . وقد تظهر كما هى غير مشوهة أثناء التنويم المغناطيسى ، وتظهر آثار اللاشعور فى الشعور أيضا : بالنسيان ، وغلطات القلم ، وهفوات اللسان ، والأعمال الشاذة ، والهفوات الاجتماعية ، والذعر من الظلمة ، أو صغار الحيوانات ، أو الأمكنة التى ليس لها منافذ .

ففى كثير من الأحيان قد تريد عمل شىء ، كوضع خطاب فى صندوق البريد ، فتنسى مع سبق عزيمة صادقة على إرسال الخطاب ، وقد تريد أن تكتب اسم شخص فتكتب اسم آخر ، أو تدون كلمة فتدون غيرها فيتغير المعنى لا عن قصد ، وقد يقوم الانسان فى الناس خطيبا فينطق بكلمة بدلا من أخرى فيؤدى ذلك إلى فهم خلاف المقصود ، وكثيراً ما يفعل الانسان ذلك أثناء المحادثة .

ومن الأعمال الشاذة ما نقل عن الدكتور جنسون الأديب الانجليزى المشهور : أنه كلما مر بحاجز خشبى لمس بيده كل قائمة من قوائمه بحيث إذا أهمل واحدة عاد فلمسها ، ولم يعرف لذلك من سبب . ونقل عن بعض الأشخاص أنهم كانوا يولعون بغسل أشياء خاصة مراراً متعددة فى فترات قصيرة مهما كانت نظيفة .

ومن الهفوات الاجتماعية : الميل إلى الاجرام ، وسرقة أشياء حقيرة من نوع خاص (٢) مهما قلت قيمتها . وقد لوحظ أن السارقين من الأشخاص المحترمين الأغنياء الذين ليسوا فى حاجة إلى ما يسرقون ، وإذا سئلوا فى ذلك عجزوا عن الجواب .

ومن مسائل الذعر ما نقل عن بعض الجنود الأقوياء الشجعان الذين مارسوا القتال ، وقاسوا ما قاسوا فى الخنادق أثناء الحرب العظمى أياما وليالى - أنهم بعد عودتهم من ساحات القتال ، كانوا يخافون الحيوانات الحقيرة كالأرنب والفار والصرصار ، وأن بعضهم كان يخاف الظلمة خوفاً مريعا ، وإذا سألت أحدهم عن السبب أخذه الخزى ولام نفسه على هذا السلوك الشاذ الذى لم يدر له من سبب .

[1] Dissociation. [2]Petty thefts.

فهذه الأمور وما أشبهها كانت تفسر فى الزمن الماضى بأنها أعمال شاذة يرجع بعضها إلى التعب ، وبعضها إلى المرض ، والبعض الآخر يهمل شأنه ، ويدخل تحت الأعمال الشاذة التى ليست خاضعة لقوانين علم النفس .

أما الآن فقد توصل علماء علم النفس التحليلى(١)ـ وهم لا يزالون على أبواب البحث ـ إلى أن هذه الأعمال ليست شاذة لا يمكن تعليلها ، ولكنها هى الأخرى خاضعة لقانون آخر هو قانون العقل الباطن ، وقد أصبح من الممكن تفسير كثير من هذه الحوادث تفسيراً علمياً بفرض وجود العقل الباطن .

وقد اضطر الأطباء النفسيون لدراسة العقل الباطن ، ومعرفة ما فيه من مخاوف ورغبات وعقد رغبات، لتعرف أسباب الأمراض العصبية وعلاجها ، وقد وجدوا أن الوصول إلى أسباب الخوف يذهبه ، وأن معرفة الرغبات المكبوتة يضعف من شأنها ، ويذهب بآثارها السيئة.

ثم تمكنوا بعد البحث المتواصل من ابتداع طرق يتوصلون بها إلى أعماق النفس ، ويسبرون بها غور العقل الباطن . وأهم هذه الطرق هى : (١) تفسير الأحلام (٢) التنويم المغناطيسى (٣) الايحاء أو الاستهواء ثم التحريض (٤) التحليل النفسى بتداعى المعانى المقيدة. والطرق الثلاث الأخيرة ترمى إلى شيء واحد ، هو إزالة الضغط الشعورى عن العقل الباطن ، وإعطاء المريض فرصة لاخراج ما كمن فى نفسه من الأفكار ، والتعبير عما يعود له من الذكريات والرغبات الماضية .

فتفسير الأحلام إذن من الوسائل التى تعرف مكنونات العقل الباطن ، ولذا يقول فرويد: «إن الأحلام الرمزية ما هى إلا مجموعة رموز يشير كل منها إلى رغبة من الرغبات المكبوتة ، فاذا رأيت فى حلم من الأحلام أن ثعبانا هاجمك فضربته فصرعته ، فالثعبان يمثل عدواً من أعدائك السابقين ، وصرعه يمثل الانتصار عليه ، وفى ذلك إرضاء لرغبتك » .

ويعلل فرويد تحقق الرغبات المكبوتة أثناء النوم، بأنها لو لم تتحقق لحصل الاضطراب فى النوم ، وما كان من الممكن أن يظل الانسان نائما ؛ فلتخفيف العبء على النائم ، وإخراجه من المواقف الحرجة تتحقق الرغبات ، فيظل النائم هادئا مطمئنا ، وذلك تبعا للطريقة العامة التى يتبعها العقل الباطن فى الدفاع عن النفس والمحافظة على كيانها ، ولذا نرى أنه إذا لم تتحقق رغبة من الرغبات أثناء الحلم ، أو لم يظهر الحالم بمظهر المتغلب بل بمظهر المقهور المغلوب ، فانه يستيقظ من نومه وجلا مذعورا .

ولو وقف فرويد عند هذا الحد لوافقه معظم المتقدمين والمحدثين ، ولكنه يقول : إن

[1] Psychoanalysis. [2] Psychotherapists.

الثعبان فى المثال السابق يمثل الأب مثلا، الذى كنت تعده ـ وأنت صغير ـ أكبر منافس لك فى التقرب إلى والدتك، والحصول على محبتها وعنايتها، وقد كنت فى ذلك الوقت تود التغلب على أبيك واحتكار عطف أمك ومحبتها، ولكن أباك حال دون هذا فكرهته لذلك التدخل، ولكنك فى الوقت نفسه ،حببته لعطفه عليك، فتكونت مشكلة أو عقدة وجدانية هى مزيج من الكراهية والحبة، فظهرت المحبة لعدم معارضة الظروف لها، أما الكراهية فانحدرت واستكانت إلى اللاشعور فبقيت هناك، وأضيف إليها وجدانات أخرى ضد الأب، فلما عظمت مجموعة الوجدانات هذه حاولت الظهور فظهرت أثناء النوم بتلك الصورة المذكورة.

وقد ترى أن شخصاً توفى، وبالتحليل تعلم أن ذلك الشخص يمثل أباك أو أخاك، أو أحد الأشخاص الذين نازعوك سيطرتك، او حالوا دون تمتعك برغباتك الذاتية، فوددت لو كانوا بعيدين عنك؛ وكذلك يؤول حصولك على سيارة جارك بالحصول على وظيفته او زوجته التى تمنيتها لنفسك يوماً ما.

فعلى كل حال يرى فرويد أن وظيفة جميع الأحلام هى تحقيق الرغبات المكبوته، وأن معظم تلك الرغبات ـ إن لم يكن كلها ـ يرجع إلى الغريزة الجنسية، أو إلى محبة الانتقام ممن حال دون تحقق الرغبات الذاتية الجنسية.

ويجعل فرويد للأحلام منزلة كبرى فى التحليل النفسى، ويتخذ تحليلها من أكبر الوسائل لمعرفة أسباب الاضطرابات والأمراض العصبية، لأنها تدل على الرغبات المكبوتة التى أثرت على الحياة العقلية.

وفوق ذلك يقول: إن الأحلام إذا فسرت تفسيراً دقيقاً تدلنا تماماً على طبيعة صاحبها وميوله وأخلاقه التى يحاول إخفاءها وسترها عن أعين الرقباء وآذانهم.

قصور هذا الرأى (١)

هذه هى خلاصة رأى فرويد فى الأحلام، وله ـ كما ترى ـ نصيب من الصحة، ولكنه مع ذلك جزء من الحق لا الحق كله.

إننا لا ننازع فرويد فى أن وظيفة كثير من الأحلام هى تحقيق رغبات مكبوتة، ولكننا نرى مع ذلك أن هناك أحلاما مرتبطة بالمستقبل، وليس لها علاقة متينة بالماضى، وهى التى تكون نوعاً من الاخبار بالغيب، وكذلك لا نعرف كيف يؤول فرويد الاحلام التمثيلية الآنفة الذكر التى يرى الانسان فيها ما حصل بالفعل أثناء حادثة من الحوادث.

هذا إلى أن فرويد يذهب بعيداً فى تقدير اللاشعور، ويمنحه ما لا يتحمل من الأهمية، حينما يقول إن الأحلام لا تحقق إلا الرغبات المكبوتة التى تحتل اللاشعور، إذ أننا نعرف أن كثيراً من الرغبات الشعورية تتحقق فى أحلام اليقظة والنوم أيضاً.

[1] See Woodworth "Psychology" PP.507

[البقية على الصفحة رقم ٤١٤]

البلبـــــــــــل

لشاعر الاسـلام
الأستاذ محمد عاكف بك
أستاذ الأدب التركى بالجامعة المصرية

بعد أن انتهت هذه المجزرة البشرية ـ التى يطلقون عليها الحرب العالمية الـكبرى ـ أرغمت حكومة الآستانة على توقيع معاهدة سيفر فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وفى هذه المعاهدة لم يضع من أيدى الأتراك كل شىء فحسب، بل انتزعت منهم بلادهم أيضاً، واضطروا اضطراراً لأن يعترفوا بوضع مصر تحت الحماية البريطانية، وانتداب انجلترا لأدارة شئون العراق وفلسطين، وانتداب فرنسا لأدارة سوريا ، وكان لليونان النصيب الأكبر فى إرث آل عثمان ، فقد ضمت إليهم تراقيا وأخذوا جزءاً من الأناضول وقسم الجزء الباقى إلى مناطق تفوذ بين الحلفاء الذين لم يكتفوا بهذا ، بل وضعوا رقابة دولية على الآسـتانة والدردنيل والبسفور بعد أن حطموا القلاع .

ومع كل هذا لم تستطع تركيا أن تحرك ساكناً، لأنها خرجت من الحرب منهوكة القوى، ضعيفة كل الضعف، حتى خيل إلى الحلفاء أنها على وشك الفناء؛ إلا أن القوة الحيوية الـكامنة فى نفوس الأتراك سرعان ما دفعتهم لأن يهبوا من جديد ، وأن ينازعوا اليونان ذلك الارث العظيم، فألفوا حكومة فى أنقرة رأسها مصطفى كمال باشا، ولموا شملهم الحربى، وأعلنوا بطلان معاهدة سيفر... هنا سلط الحلفاء اليونان على الأتراك، ومع قوة اليونان الحربية والمالية، فانهم لم يستطيعوا الوقوف فى وجه الأتراك الذين حملوا عليهم حملة اضطرتهم إلى الجلاء عن أراضى الأناضول فى خريف عام ١٩٢٢ ، واسترد الأتراك كل ما كان لهم فى الأناضول وتراقيا فى معاهدة « لوزان » سنة ١٩٢٣ ؛ وانجلى الحلفاء عن الآستانة ، ونزلوا عن مقدار عظيم من الغرامة الحربية ، وعن كل ما لهم من الامتيازات فى تركيا . ولم تقف هذه الحركة المباركة عند تركيا وحدها ، ولـكن تيار النهضة قد عم الممالك الشرقية ؛ ففى مصر والعراق والشام تفتحت الأذهان وتجمعت الصفوف، ونرجو مخلصين ألا تتفرق أو يقضى على معاهدة «سيفر» هذه، وتنال الممالك الشرقية استقلالها وحريتها .

ضاقت البارحة (١) على نفسى ،ونقمت على العالم كله ، ثم انتهيت إلى التطواف فى البرية والمبيت فى إحدى القرى ، وكانت الافاق تظلم إذ كنت أحاول الفرار بنفسى من المدينة ، ثم أطبق على الوادى ظلام موحش .

لا ضوء ولا صوت ولا عابر سبيل ! ! انقلبت الخليقة كلها خرساء،وليس هناك نفس واحد يردد فى هذا السبات العميق ! وخيل إلى أن هذه الآفاق مثال من الانسانية الكئيبة،فرجعت أتسلق الماضى ، فأية آلام جاشت بنفسى وأية ذكرى ؟ !

وبينما تفيض نفسى بآلاف الهواجس مسلسلة ، إذا بصياح مديد ينبجس فى صدر الليل ، فماج به هذا الوجد الراكد والتطم ! !

وتجاوبت أرجاء الوادى بخرير الأنات فى كل ناحية ! ! يارب ! أية نغمات من النار ، وأية أمواج من الصفير ! ! قد اقشعرت منها الأشجار والأحجار كأنما هى نفخة الصور ! !

* * *

أيها البلبل !! عندك الالف ولك العش والربيع الذى كنت ترتقب! فما هذه القيامة ، وماذا دهاك ؟ قد استويت على عرشك الزمردى ، وأقمت مملكة فى السماء ، ولو وطئت كل ديار الدنيا فمملكتك لا تنالها الأقدام ! !

اليوم واد أخضر بهيج ، وغداً حدائق الورد القانية تمرح فيها ، وأسرتك فى سعادة ، وقلبك فى هناء ، ودنياك فى سرور وصفاء ! ! إن ترد روحك الطليقة أرضاً لا خريف فيها ، فالآفاق والأبعاد الشاسعة كلها طوع جناحيك ، وإذا بسطت جناحيك لا تسعك الأبعاد بله القيود !! إن حياتك هى أقصى ما يتمناه الأحرار فى هذه الدنيا ، فلماذا يملأ الشقاء والأحزان أيامك ؟ وما هذا البحر الزاخر فى صدرك ، وما صدرك إلا قطرة صغيرة ؟

* * *

كلا ! لست بالمآتم جديراً ، وإنما هى نصيبى !

إن آفاقى لم تستشعر الضوء منذ قرون ، ولا حظ لى من السلوى ، وليس فى ربيعى إلا بكاء الخريف ، وها أناذا اليوم غريب مشرد فى ديارى ! ! أى خسران أن أترك – أنا ابن الشرق العاق – ديار أجدادى كلها تداس تحت أقدام الغرب ؟ لقد هاج فكرى وماج ، إذ ذكرت ديار صلاح الدين والفاتح ! ! وأية ذلة أن يدوى الناقوس على رأس « عثمان » (٢)!! وأن

(١) أنشأ عاكف بك هذه القصيدة أثناء تلك الحروب التى ذكرناها ، وقد كان هو أحد هؤلاء الجنود الذين حملوا سلاحهم للذود عن بلادهم والدفاع عن وطنهم ، كتبها فى ساعة يأس عند ما راجت اشاعات بأن اليونان قد استولوا على مدينة « بروسة » واستباحوا حرمتها .

(٢) مؤسس المملكة العثمانية .

يصمت الاذان فينمحي من ذاكرة الفضاء اسم الله ؟ وأى حرمان أن ينقلب ذلك الماضى الأمجد سرابا ؟ وأن تصير تلك القدرة وهذه السطوة هباء منثوراً ؟ وأن لا يبقى من جامع « يبلدريم » (١) إلا قبة مهدمة ؟ وأن يداس قبر « أورخان » العظيم فى أشنع صورة ؟ وأية خيبة أن تنقض جامعة الدين حجراً بعد حجر ؟ وأن يفترش الغبراء ملايين من المسلمين لا مأوى لهم ولا وزر ؟ وأن تتململ أسر بائسة تحت أسواط العذاب والنكال ؟ وأن تقطع آلاف مؤلفة من الجذوع الخاوية إرباً إرباً ؟ وأدهى من ذلك وأمر أن يطوف الأعداء الأجانب فى حرم الاسلام !!

لست بالمآتم جديراً، وإنما هى نصيبى ، فاصمت أيها البلبل !! عبد الحميد الدواخلى

(١) مسجد بمدينة «بروسة» العاصمة الاولى لآل عثمان وبها كل المشاهد المذكورة في القصيدة .

رأى فرويد فى الاحلام

[بقية المنشور على الصفحة رقم ٤١١]

ثم إننا لا نرى وجهاً لقصر الرغبات المكبوتة اللاشعورية على الرغبات الذاتية الجنسية، ما دمنا نعرف أن بعض الرغبات اجتماعى له علاقة بغريزة حب الظهور التى تعارض وتكبت من عهد الطفولة ،وتستمر كذلك أيام الشباب والرجولة ، وتكون لها آثار ظاهرة فى أحلام النوم واليقظة .

وفوق ذلك كله لا نشك أن لتداعى المعانى أثراً كبيراً فى الأحلام ، حتى فى تلك التى تتحقق بها رغبات مكبوتة فى اللاشعور ؛ فكثيراً ما تجر الرغبة المكبوتة غيرها من الأفكار أو الأعمال لما بينهما من رابطة ؛ حتى ولو لم تكن هذه الثانية من الرغبات .

فقصر الأحلام على أنها رموز تتحقق بها رغبات مكبوتة تحتل اللاشعور مرتبطة ـ على الأخص ـ بالغريزة الجنسية ،وغريزة المحافظة على النفس ؛ تحكم لا يعضده الواقع، ولم يقم عليه الدليل العلمى .

فيحق لنا أن نأخذ رأى «فرويد» على أنه مكمل لآراء غيره من الأطباء النفسيين أمثال : رفرز (١) ومكدوجل (٢) .

وموعدنا العدد المقبل للكلام على رأى «رفرز» فى الأحلام والتجارب التى قام بها لاثبات رأيه .

حامد عبد القادر

[1] W.H.R. Rivers. See his book "Instinst" and The Unconscious.

[2] William Mcdougall. See his book. "Jutlines of Abnormal psychology"

فضل المستشرقين

على اللغة العربية

كتب الدكتور حسين الهراوى فصلا فى مجلة « المعرفة »(١) يحذر فيه شبان الشرق مما يكتب المستشرقون ، فناقشناه فى جريدة « البلاغ » بكلمة بينا فيها فضل المستشرقين على اللغة العربية ، فعاد فراجعنا فى مجلة « المعرفة » ، وراجع الدكتور هيكل فى جريدة « السياسة » ، مصراً أشد الاصرار على رمى المستشرقين بالسعى لتمكين الاستعمار فى الشرق ، والعمل على تقويض القومية الاسلامية .

وأنا أحب أن أقول كلمة ختامية فى هذا الموضوع : وأصرح بأنه لا عار على المستشرقين فى أن يكونوا طلائع لأممهم فى الشرق ، لأن العالم كله ميدان صالح لطلاب المجد والملك من جميع الأجناس . والاستعمار ــ كما قلت غير مرة ــ شريعة إنسانية يفرضها القوى على الضعيف ، فمن آذاه ذلك فليتسلح بسلاح القوة ، أو لينافس الأقوياء كيف شاء ، وليعلم قومى ــ إن سرهم أن يعلموا ــ أنه ليس فى الدنيا حق وباطل ، ولكن فيها ضعف وقوة ، والذئب لا يظلم الحمل حين يفترسه ، كما لا نظلم نحن الحمل حين نشويه على السفود ، بل تبلغ بنا المكابرة أن نذكر اسم الله حين نذبحه مطمئنين إلى أن ذلك حق مشروع ، وهو كذلك !

فليس من الرجولة ــ إذن ــ أن نكتفى بالبكاء والنحيب كما شاهدنا عدوان الغالبين ، فتلك سجية النساء ، ولكن علينا أن نغالب ونصارع ونقاتل ، حتى ننتهب حظنا من المجد فى الحياة .

ذلك جانب من المسألة ، أما الجانب الثانى وهو أثر المستشرقين فى نهضة اللغة العربية ، فاننا نصرح بأن جهود أولئك القوم من العناصر الحية جداً فى الدراسات العربية ، وقد عرفت من بينهم رجالا يصلون النهار بالليل فى الدرس والتحصيل ، وعرفت من بينهم أفراداً لا أبالغ إذا قلت بأنى لم أر لهم نظيراً فى الشرق ، وقد كتب أحد أعضاء بعثة الجامعة المصرية كلمة فى « الأهرام » منذ أسابيع ، ذكر فيها : أنه لم يعرف أحداً من المستشرقين فى باريس ، فأسفت مر الأسف ، لأن المستشرقين فى باريس هم خير الأساتذة هناك على الاطلاق ، وقد لاحظت ــ وأنا أدرس فى السوربون ــ أن أعظم أساتذة جامعة باريس هم الأساتذة الذين يدرسون الآداب الأجنبية ، ومن أعظم من عرفت : المسيو تونلا الذى يدرس علاقة الأدب الفرنسى بالأدب الألمانى والانجليزى ، فدلنى ذلك على أن المقارنات لها فضل عظيم فى إيقاظ الأذهان والعقول ،

---

(١) راجع العدد الماضى (يوليو سنة ١٩٣٢)

فليس من المستغرب إذن أن يكون اهتمام المستشرقين بدرس الاداب الشرقية مما فتق أذهانهم، وجعلهم من أعلام قومهم فى فهم عقليات الشعوب .

ولا أكتم القارىء أنى قضيت أيامى فى باريس فى نضال وجلاد مع المستشرقين الفرنسيين، ولقيت من بعضهم عناداً أضجر نفسى وقلبى ، ولكنى لما عدت إلى وطنى أخذت أتلمس جهود المواطنين فى خدمة اللغة العربية فلم أرها تفوق السراب الخداع،وصرت أتذكر المسيو دعومبين الذى أعد لنفسه مكتبتين غنيتين: إحداهما فى باريس لأيام الشتاء ، وثانيتهما فى هوتو لأيام الصيف ، والمسيو مرسيه الذى يجده الزائر فى مكتبه فى جميع الأوقات ما عدا ساعات الطعام ، وهى عنده لحظات ، والمسيو ماسينيون الذى يكاد يعرف كل شىء عن آثار العرب والمسلمين ، والمسيو كولان المتوقد الذهن الذى يطالعك بالرأى الصائب والفكر العميق .

لكم أن تقولوا إن هؤلاء مغرضون يخدمون أممهم قبل أن يفكروا فى خدمة الشرق ، ولكن لا تنسوا أن هؤلاء أوقدوا فينا نار الحماسة لخدمة اللغة العربية ، وعلمونا من مناهج البحث وطرائقه ما لم نجد له ظلا فى المعاهد المصرية التى لا يجرى فى أروقتها غير قيل وقال !

وأنا بعد هذا موافق للدكتور الهراوى فى بعض اتجاهاته ، وليس من الزهو فى شىء أن أعلن أننى أول باحث شرقى قارع المستشرقين فى عقر دارهم ، وصرح فى مقدمة رسالته بأنه جاء لتصحيح أغلاط المستشرقين ، وأنا أفرض على الباحث الشرقى أن يقرأ أبحاث المستشرقين ومعه عقله ومنطقه ، وأكره له أن يحاكيهم فى غير فهم ولا تبصر كما يفعل بعض الناس !

والمستشرقون رجال نبتوا فى أمم قوية ، ومصاحبتهم نافعة جداً لمن يريد الاستفادة من عشرة الأقوياء ، فان القوة تعدى كما يعدى الضعف ، والصاحب القوى أنفع من الصاحب الضعيف .

أليست هذه الدعوة أنفع من دعوتك يا دكتور هراوى حين تحرض شباننا على أن يغمضوا أعينهم عما يكتب المستشرقون ؟ إنك لتدعوهم إلى القناعة بالدراسات المصرية والشرقية ، والقناعة شر ما يوصى به الناصحون ؛ وهل اغتنينا إلى حد أن نضرب صفحاً عما يكتب الأجانب عن لغتنا وأدبنا ، مع أنه لم يوجد عندنا إلى اليوم كتاب واحد يشبه كتاب المسيو بروكلمان فى مصادر الاداب العربية ؟

عد لى عشرة أشخاص يخلصون للأدب العربى كما يخلص مئات الفرنسيين للأدب الفرنسى، إنك إن فعلت فسأوصى معك شباننا بالاكتفاء بما يكتبه أولئك العشرة المصطفون !

وبعد، فستقول إنى كتبت ما كتبت وفاء للأساتذة الذين تلقيت عنهم من المستشرقين ، وأنا والله ياصاح يسرنى ويشرح صدرى أن تعرف أنى لأساتذتى وفى أمين ، والسلام .

زكى مبارك

لو كنت وزيراً للمعارف !

حديث مع الدكتور أحمد فريد رفاعى

> حين تحدث الاستاذ الدكتور أحمد فريد رفاعى فى موضوع القراءة والقراءات ـ وكان ذلك فى عدد مايو من « المعرفة » ، وحين أخذ بخناق وزارة المعارف ليحاسبها على ما يراه عيوب الماضى وعيوب الحاضر ـ أردنا أن ننقذ الموقف ، فسألناه : ماذا كان يفعل لو أنه أصبح وزيراً للمعارف ؟ ..
> ونحسب أن هذا السؤال قد خلق أكثر مما أملنا أن يخلق ، وفى هذه الاجابة المستفيضة عليه من صديقنا الدكتور ما يغنى عن التعقيب بكلمة ثناء . ؟ المحرر

قال الدكتور :

وهكذا .. أنتم معشر الكتاب ! تدخلون على قلوبنا القلقة التى جعلتها أرزاء الحاضر مطمئنة إلى ما تعانيه من يأس وقنوط ، وعلى حصاتنا وعقولنا التى جعلتنا فى عصمة عن الناس ، وفى معزل عن الحياة وزخرفها ، غير حافلين بقالها وقيلها ، وصخبها وضجيجها .

وهكذا أنتم معشر الكتاب ! تتسللون فى خفية إلى ما فى النفوس البشرية من أحلام وأطماع ، ومن شهوات وآمال .. ما زالت جاثمة فى نأمة وهدأة ، حتى تجرونها فى لين وهوادة ، وتعللون أصحابها فى رشاقة ولباقة ، وتحركون دفائنهـا بمعسول الأمانى ، وخلب الرغائب ... وهكذا أنتم معشر الكتاب تخلقون من الحبة قبة ، ومن القطرة ديمة سحاب غزير ماؤه ، وابل سيله ، فتطلعون علينا يوماً بمختلف الموضوعات التى هى أقرب إلى الخيال ، وإمتاع النفس ، وإشباع البطن ، منها إلى الواقع ؛ وتطلعون يوماً آخر بما تنحتونه من أفئدتكم ، وعصارة قلوبكم ، ومتدفق أخيلتكم ، ودفين رغباتكم ... ولعلكم على حق فى ركونكم إلى الخيال وإمتاع النفس فى هذا العصر ـ عصر الخيال وإقفار النفس ـ وأنتم على حق أيضاً حين تعيشون فى جو التمنى ، وتحت ظلال دولة « لو كنت ! » .

* * *

يظهر أنك يا صديقى مفلس إلى السلطة ، وإلى الحول والطول ، وإلى تصريف الأمور ، لأنك تعيش فى جو من الحول والطول ، وما وراء الحول والطول ، وفى عهد من تصريف الأمور يمشى على أرجل غير أرجلك ، وبعقول ليست من متفجرك ، ولا فى مستوى عقولكم معشر الكتاب .

ولماذا لا تسألنى عما أفعله لو كنت غنياً ؟ إنه ليخيل إلى أنك فى أول الشهر ! وأن جيبك مترع بالمال ، ملىء بالنقود ! فأنت لا تطلب المال ، ولا تفكر فى المال ، وأنت فى عصر يشكو الناس فيه قلة المال ، وصفر الأيدى من المال ، وقد كان يكون من مصلحتك ـ ولاسيما فى

هذه الأزمة الطاحنة التي أكلت الزرع والضرع ـ لو جئتني في آخر الشهر وعللتني بسبحة من الخيال ، ولذائذ سوانح الحياة ، فسألتني : ماذا أفعل لو كنت غنياً ؟!

ولست أدرى لماذا لم تسألني عما أفعله لو كنت صحفياً ؟.. أستغفر الله ، بل لو كنت صاحب صحيفة ؛ فأنا أعلم لماذا لم تسألني عما كرهته نفسك وسئمته شهوتك لنفرتك مما تعانيه الصحافة.

ثم لماذا لم تسألني عما هو معقول ، وعما يعتبر الطريق السلطاني المعبد للوزارة ، أعني بذلك .. ماذا كنت أفعله لو كنت نائباً ، ولكن يخيل إلى أنك قد نفرت من النيابة والنواب ، وسئمت من التغيير والتبديل ، وسئمت من التطاحن والتدابر ، وسئمت من التقاتل والتنافر... ولسنا نتكلم في السياسة في عهد لا تستحب فيه السياسة ، وإنما هو كلام في كلام ، في عصر يتدفق فيه الكلام ، ويعيش فيه الناس من الكلام.

على أنى سأحدثك حديثاً عاماً ، فلا تنتظر منى كلاماً عن خيبة الآمال من فشل التعليم في مصر ، ولا تنتظر منى انتقاداً لنتائج الامتحانات ، ولا تنتظر منى تعليقاً على لجنة التحقيق المشكلة أخيراً ، ولا تنتظر منى بحثاً في فوضى التعليم الأهلى والحكومى معاً ؛ ثم لى رجاء متواضع مثلى ، وهو أن تأخذ حديثى على علاته ، وهو حديث رجل اشتغل في الادارة ردحاً غير قليل ، وسلخ عشرين عاماً من عمره موظفاً ... وحديث رجل ربما درس الناس واتصل بالصحافة عن قرب أو بعد ، وربما اتصل بالأدب والأدباء عن قرب أو بعد أيضاً.

أريد بذلك أنى لا أزال في إسار من الخوف من جمهرة الموظفين ؛ فلا جرأة عندى لمساس ما يقدسونه من مرتبات ضخمة مهما ناءت بها كواهل الأمة ؛ ومهما حالت بين الأمة وبين بذلها بسخاء على التعليم والتربية وإفادة الناس ، ومن كثرة في عددهم أكثر مما تتطلبه طبيعة أعمالهم ، فلا أدعو إلى ما دعا إليه «جدس» في انجلترا من نقل أو تبديل ، ومن تحوير أو تفصيل .

وأريد أن أقول لك إنى في رق من الوظائف ، ومن ملق الموظفين إلى رؤسائهم ؛ فما بالك بالوزراء وأشباه الوزراء ؟ وأنت تعلم أن الملق ، والمراء ، والنفاق ، والدهان ، وما إلى ذلك كله ، إنما هى ذرائع الرقى ، وسلم التقدم ، ودرجات الارتقاء ، والرضاء ، والحبو بالمال والجاه.

وأريد أن أقول إن صلتى بالأدباء والمؤلفين ، وبمن يتصل بالأدباء والمؤلفين من كتاب وصحفيين فيها عقلة للسانى ، وحبسة لجنانى ؛ فلا أتحدث إليك في صدق وصراحة عن طريقة وزارة المعارف في تقرير الكتب ، ونظام البرامج ، والاستكانة إلى سياسة اللجان ، وإلى نوم اللجان ، وهجيع أصحاب اللجان .

على أنا ما دمنا نتكلم في الخيال ، وعلى أجنحة الخيال ، وما دمنا نعيش في عصر الخيال لا عصر الأعمال ؛ فأظن أن لا غضاضة على هؤلاء وهؤلاء ، من أن نتكلم .. ونتكلم فقط...

لو كنت وزيراً يعتمد فى تصريف أموره على ملهمات شعبه ، ورغبات أمته ، لاخترت أن أكون وزيراً للمعارف، ثم لصارحت النواب ومنتخبي النواب أنى سأثور على نظم وزارة المعارف وسياسة التعليم فى مصر ثورة تحطيم وإبادة ... ولقلبت الحال غير الحال رأساً على عقب ... وإن شئت دقة فى التعبير ، ودقة فى استعمال الألفاظ ، ودقة فى إجراء المعانى فيما خلقت له ، ودقة فى احترام المنطق والعقل الانسانى ، لقلت لك : إنى لا أثور ، لأن ما هو موجود ليس بنظام فيثار عليه ، وإنما أحاول ، وأحاول فقط رد الأمور إلى نصابها، وجرى الأمور فى مجاريها ، وإيجاد النظام بديلا من الفوضى ، وإحلال ما هو معقول،وما هو منطقى فى ما فرضته الشهوة ، وأوجدته الأغراض .

إن الوطن لا يزال فى خطر ، وإنه فى خطر ليس بعده خطر ... إنه فى أمية ، ولا أقول فى جهالة مطبقة،إنه فى حياة اتكالية مصدرها تلك السموم الاتكالية التى تنخر فى عظامنا ، والتى تفسد فينا دماء الحياة ، والتى تتكاثف ظلماتها ودياجيرها أمام أعيننا ، فنرتطم ونتعثر ونكبو .. إنه فى إفلاس روحى ، وفى إفلاس سياسى ، وفى إفلاس اقتصادى ، وفى إفلاس اجتماعى ، وفى إفلاس خلقى ؛ فلا رابط ولا حائط ، ولا شادى ولا هادى ، ولعل مصدر ذلك كله هو السياسة التعليمية التى ما زلنا نتخبط فيها ، والتى قضت على كل شىء فى قوانا ، فهل يا ترى من منفذ ، وهل يا ترى من سبيل إلى أن نعود أحياء ، أو أشباه أحياء ؟

اما أولا ، فان فى وزارة المعارف جيشاً عرمرماً من الموظفين الكتابيين ، فلماذا لا ينقل هؤلاء إلى غير هذه الوزارة،ويستبدلون بفريق من حملة الشهادة العالية،أوثلاثة أرباع المتعلمين أو أنصاف المتعلمين ، لكى يعهد إليهم ـ حين إلزامية التعليم ونشره نشراً حقيقياً ، ونشراً نظامياً ، ونشراً بيداجوجياً ـ بأداء ذلك الواجب المقدس فى الدول الحية التى تقدس أسباب الحياة الحقيقية .

سيقال بأن هؤلاء ينقصهم فن « البيداجوجيا » وما يتصل به من علوم التربية ، و « السيكولوجى » والأخلاق ، وما إلى ذلك مما يتصل بالتعليم وبطرق التعلم..وأنا لا أحب أن أتساءل عن سر إلغاء مدرسة المعلمين ، وإنما أتساءل عما يحول بين الوزارة وبين إنشاء مدراس ليلية لتلك الدروس التكميلية لهذه الآلاف المؤلفة من الموظفين الذين أضحوا عبئاً فادحاً لا مبرر له بسبب قلة الأعمال لديهم ، وكثرة القائمين بها من الرؤساء وغير الرؤساء ، حتى إن الخطاب الواحد يمر تقريبا على عشرة أيدى بطريقة ميكانيكية قديمة ، لا يقبلها العقل السديد ، ولا تسوغها طبيعة الأشياء ؛ فمن كاتب للصادر وآخر للوارد ، إلى كاتب يعرض الخطاب على شبه رئيس ، ثم على رئيس فرقة ، فعلى رئيس قلم ، فوكيل إدارة ، فمدير إدارة، فمراقب ، إلى أن يهبط الوحى الميكانيكى الذى يجيده صغار الموظفين... ثم يعود كساقية جدا فى نفس المراحل،وبنفس الطرق الميكانيكية الطويلة المدى ، والمجدبة الأثر، بلا روح ولا حياة

وهكذا مما فيه مضيعة للوقت وللجهود ، ولحياة الرجال ، ولاضاعة الأموال ، بينما يمكن ، ويمكن جداً إنجاز نصف الأعمال أو أكثرها بالتليفون ، كما هو الحال فى ألمانيا ، وفى إنجلترا ، وفى غيرهما .

ما علينا . . إنما أتساءل عما يحول بين إذاعة الفنون التعليمية بين هؤلاء جميعا ، حتى نعد منهم عدة كافية ، أو عدة ضرورة ـ إن شئت دقة فى القول ـ لدرء خطر الأمية . فاذا قلت : وأين الأمكنة ؟ أجبتك فى التو واللحظة بأنى لا أستبعد أبداً ، أن أعيان البلاد الذين يشتغلون فيما لا يفيد الوطن ولا يعمل على إنقاذه واضطراد تقدمه يمكن استغلالهم ، أستغفر الله ، بل استنهاض عزماتهم إلى التبرع بمنزل أو أكثر فى مدنهم لهذا السبيل ، بدلا من إقامة السرادقات والزينات ، ونصب أعلام الأفراح والليالى الملاح .

بل لماذا لا تستخدم دور التعليم لدروس ليلية كما هو الحال فى مدرسة التجارة العليا ؟

بل لماذا لا تقدم مجالس المديريات أو المجالس المحلية أو المجالس القروية التى تبذل أموالها فى إزالة منازل وخط شارع جديد أو متنزه جديد أو مشروع إنارة أو ما إلى ذلك من ضروب الكماليات التى مهما قلت عن أهميتها وإنها بعيدة عن إفادة عمرو ونكبة خالد لغرض سياسى أو شهرة محلية أو فكرة حزبية ، فانك لا تستطيع أن تقنعنى بأنها تربو فى نفعها عن إنشاء مدرسة وتعليم جهال وتثقيف أميين وإنارة عقول وترقية أفهام وتعمير قلوب وأذهان .

تعوزنا الارادة والعزيمة ، ثم تعوزنا الفكرة الصائبة والرأى المختمر المبيت لا الجدلى ولا الفطير ولا الحزبى .

ثم عندك البرامج التعليمية ، وهذه مسائل حيوية ومحلية ، وسأحدثك عن ناحية ضئيلة منها .

أريد أن أقول : إن أولاد المزارعين الذين يحتاج إليهم الحقل والزرع ، يجب أن لا أخلق منهم عالة وكماً مهملا وعبئا على الأهلين . . إن سياستى معهم ستكون سياسة إقليمية ، أى أننى إلى جانب تعليمهم ما هو أولى ، وتثقيفهم بالثقافة العامة الأولية ـ من تعلم القراءة والكتابة والحساب ودروس الأشياء وما يتصل بها فى ساعات قليلة من النهار ـ أعلمهم أيضا العلم الاقليمى الذى يحتاجون إليه ، فيأخذون بسائط علوم الفلاحة والبساتين والزراعة وصناعة الأسمدة والجبن والزبدة ، وفى إقليم آخر تكون تربته مواتية للخضروات والفواكه ، أعلمهم تلك الزراعات وما يتصل بها من صناعة المربات وحفظ الفواكه وتصريف الخضروات وغير ذلك ، وفى إقليم ثالث يتمشى مع صناعة النسيج أو النجارة أو الدباغة أو غير ذلك ، أتمشى فى سياستى التعليمية على هذا الأساس .

ليس معنى ذلك أنى أبالغ كثيراً فى سياسة قدماء المصريين التعليمية ، أى أن يكون ابن الحائك حائكا ، وابن المزارع مزارعا ، وابن تاجر الماشية تاجر ماشية وهكذا ، وإنما أريد أن أكون مقتصداً

ملبيا طلبات الأهلين وحشد أبناء الأهلين فى مدرسة الحياة الصغيرة لأن يكونوا رجالا عاملين فى مدرسة الحياة الحقيقية الكبرى، ولن أحظر على ذوى المواهب - من أولاد هؤلاء وهؤلاء - أن يتمموا دراستهم فى الطريق النظامى المعبد، مادامت تواتيهم ظروفهم وظروف أهليهم وظروف سياسة الدولة المسؤولة عن نشئها، وتخريج رجالاتها، وتعليم أبنائها وإعداد العدة القوية لمستقبل حياتها.

ولكن المسألة - كما قلت لك - هى مسألة إرادة مرهفة وعزيمة نافذة ومضاء حازم مسدد.

ثم أريد أن أقص عليك قصة من واقع الحياة، لتعلم أن الارادة هى كل شىء، وأنها مصدر كل شىء.

أريد أن أحدثك عن رجل زنجى لم يكن بوزير، وإنما كان من عامة الشعب أحس إحساسهم، وتألم بتباريحهم، ذلك هو « بوكر واشنجطن » الزنجى الأمريكى، الذى بعث الحياة فى نفوس أبناء جلدته، وبعثها قوية ناضجة، وبعثها صلبة مكافحة حتى ساووا بينهم وبين البيض . . .

أتعرف ماذا فعل ؟ إنه لم يأبه بالزيارات، ولم يحفل بالخطابات، ولم يجنح إلى سياسة الاعلانات، بل أنشأ مدارس، وأنشأها من لا شىء.

إنه اجتمع فى الخيام، ثم كلف تلاميذه السود الذين علمهم صناعة الآجر، وعلم بعضهم النجارة والزراعة، وعلم الآخرين الحدادة، وصناعة ذلك كله، ثم تقدم صانعو الآجر مع زملائهم لصناعة ما يكفى إقامة مدرسة، واحتطب الآخرون من الغابات أخشاباً صنعها الآخرون أبواباً ونوافذ ... إلى أن شيدت الدار من نفس الطلبة فى سواع فراغهم من الدرس والتحصيل، ثم لم يفته أن يعلمهم صناعة الجبن والزبدة، وما إلى ذلك، حتى نافس السود البيض فى تلك الصناعات، وحتى احترمت الحكومة واحترم الأهلون هذه المدارس، وكثر لها الأنصار والمؤيدون، واستخدم طلابها أصحاب الأعمال والمتاجر، وصارت نموذجاً حياً واقعياً فى صورة مصغرة لمدرسة الحياة الكبرى، لأنها أعدت من هؤلاء وهؤلاء رجالا حقيقيين يضطلعون بأعباء الحياة الحقيقية.

أرأيت كيف يستطيع الرجل الفذ، وتستطيع الارادة الفذة، وتستطيع الروح الفذة إنتاج العمل الحيوى الفذ ؟ على أنى أود أن أترك التعليم الأولى الالزامى، وهو جد هام، بل هو العمود الفقرى للبلاد، ولأنماء ثروتها، ولضمان الأيدى العاملة فى ربوعها وبين ظهرانيها، وأود أن أنتقل بك إلى عدم عنايتنا بالتربية الاستقلالية فى ربوع مدارسنا عامة، وإلى عدم استقرار سياستنا التعليمية فى برامجها ردحاً كافياً من الزمن، وإلى قلة مدارسنا الأهلية، وإلى قلة مدارسنا الابتدائية والثانوية والعالية ؛ وأود - قبل هذا وذاك - أن أحدثك عن افتقارنا الجدى إلى التعليم الجامعى، كما أود أن أحدثك عن افتقارنا إلى نظام المكتبات المتنقلة التى تنشر العلم فى يسر وسهولة بين الأهلين عامة، وفقراء الشعب خاصة.

ويجب أن تعلم أن فقراء الشعب هم غالبيته، ومنهم النوابغ والعباقرة، ومنهم جند الوطن البواسل، ومنهم ناخبو النواب، ومنهم بناة الأوطان ؛ كما أود أن أحدثك عن ضرورة

التمشي مع حاجات البلاد ومطالبها ، وعدم الكفاح والمنافسة بين مصر وجيرانها ، وعدم الاعتماد فى ثروتها على مصدر واحد قد يصيبه الكساد ، أو يقعد به ركود الحال وسوء الحظ، وضرورة إنماء موارد جديدة لثروات البلاد ، حتى يخرج المال المصرى من جيب المصرى ليدخل فى جيب المصرى ، ولا يكون ذلك إلا باعداد رجال إخصائيين فى فروع شتى من الصناعات ومختلف المهن ، بمعنى أن تكون لنا سياسة تعليمية صناعية وزراعية واقتصادية معينة .

ثم أريد أن أحدثك عما يجب أن تكون عليه سياسة الكتب، وسياسة المنافسة التأليفية ، وسياسة تعليم اللغة العربية ، وسياسة تعليم اللغات الأوربية ، وبث المقروءات التاريخية لأصحاب الشخصيات البارزة ، ولمختلف الموضوعات الحيوية ، التى تشحذ النفوس وتصقلها ، وتبعث فيها الهمة والمنافسة والاضطلاع بأعباء الحياة .

ثم أريد أن أحدثك عن أثر السينما فى التعليم ، وعن فوائد تعليم روضة الأطفال، وفوائد التعليم فى الهواء الطلق .

وأريد أن أحدثك عن أثر ذلك كله فى إيجاد أمة متعلمة متجانسة الميول والاهواء تساعد على إيجاد كتلة وطنية ، ووحدة فى الجبهة ، والكفاح، والتساند، والتآزر ، لاتفاق المشارب والتئام وجهات النظر، وفى ذلك إفادة للجميع، كما فيه إفادة لأصحاب الصحف التى ستقرأ بالملايين ، كما هو الحال فى الأمم التى تقرأ وتكتب ، والتى تنشر من صحافتها الملايين ، ومن مؤلفاتها مئات الالاف، والتى تجد فيها رأياً عاماً هو مصدر حياتها وقوتها ، ومصدر رهبتها وحرمتها. فماذا أبدأ لك ؟

يخيل إلى أن كل ناحية من تلك النواحى التى حدثتك عنها تتطلب بحثاً خاصا ، وإنى أتواضع معك كثيراً إذا ما قلت لك ذلك ، لأنك جد عالم أن كل ناحية من تلك النواحى الهامة الخطيرة تتطلب كتابا ومؤلفا قائما بذاته ، إذن فلأقتصد معك ، ولأكتف بالتحدث إليك عن التعليم الجامعى ، وضرورة نشره فى المدن الكبرى ، إذ أن الوطن يفتقر إليه بقدر افتقاره إلى التعليم الالزامى .

وإنى أقترح عليك أن تفتح هذا الموضوع على مصراعيه، وتجعله باب استفتاء لجمهرة الباحثين فتسألهم عما يقدمونه : هل التعليم الجامعى ، أم نشر التعليم الالزامى ؟

وليكن موضوعك فى تفضيل وضع سياسة تعليمية جامعية ، ووضع سياسة تعليمية أولية وبأيهما نبتدىء ، وأيهما ننفذ ؟

ولست أشك أنك تحزن كثيراً إذا ما رأيت القطر المصرى لا توجد فيه إلا مدرسة واحدة للحقوق، والطب، والهندسة، والزراعة العليا، والتجارة العليا وهكذا ، ولست أشك أنك تأسف لتلك الأموال المهدرة التى يصرفها الأغنياء منا على أبنائهم فى أوروبا ، ولست أشك أنك جد آسف على اكتفاء جمهرة متعلمينا بالتعليم الثانوى أو التجارى أو المتوسط، وترقب أكثرهم —

إن لم تقل ترقبهم جميعا - لوظيفة من وظائف الحكومة يتبلغون منها الفتات الضئيل .

على أن موضوع السياسة الجامعية يتطلب هو الآخر بحثا مستفيضا متشعب النواحى ، إذن فلنقتصد فيه ، ولنتحدث عما يعتبر روحه ، أو النواة الأساسية فى نشره وإذاعته .

لنتحدث إذن عن معنى التعليم الجامعى ، هل هو شحن الطالب بما فى بطون المؤلفات والمطولات من الكتب ومسهب المعلومات ؟ بمعنى أن طالب القانون يقف على ما يقول دالوز وغيره من المراجع كقانون نابليون ، والقانون الرومانى ، وهلم جرا ، ويقف طالب الآداب والهندسة والزراعة على مجموعة المعلومات المطولة فى فنونهم ومواد دراستهم ؟

أظن أن ذلك نظام عتيق يخرج من الطلبة عشرات بلا فائدة ، كتلك الكتب الفارغة التى تزاد فى نسخ الكتب البائرة ، وأظن أن دراسة الجامعات تقوم بتوجيه الأذهان إلى تفهم الروح العلمية ، وابتكار النظريات بعد درس الموجود منها ، وأظن أن المهم والأساس فى التعليم الجامعى هو إحياء وسائل البحث الحر ، وتوجيهها بين الطالب والأستاذ فى الناحية الحرة الطليقة ، تلك الناحية المثمرة والمكونة للشخصيات الانتاجية المثمرة .

ولا يكون ذلك إلا فى إطلاق العنان للفكر الانسانى ليكون حراً طليقا .

إذن فلأحدثك عن هذا المدى وتلك الناحية ، وخير لى ولك وللقراء أن أحدثك الآن فقط عن آراء الأساتذة الجهابذ : مكريد ، والدكتور بارلز ، والسير آرثر كيث ، والأستاذ أرنست باركر ، والأستاذ صلص ، والأستاذ إليوت سمث ، والأستاذ سدنى هكس ، والأستاذ باردنر ، عن ضرورة تقديس حرية البحث فى التعليم الجامعى ، ومدى الحرية الفكرية وما لها من حرمة وتقديس فى التعليم الجامعى ، وأنها بمثابة الروح والقلب واللباب .

ولكن ذلك يتطلب هو الآخر بحثا مستفيضا ، ومؤلفا مسهبا .

إذن فلأحدثك عن رأى رئيس كلية الملك بلندن الأستاذ أرنست باركر ، وأعتقد أن ذلك يصور لك - تصويراً دقيقا - المعنى السامى الذى يجب أن يهدينا سواء السبيل فى تعليمنا الجامعى ، والذى يجب أن يكون شعارنا وهدينا .

يقول المستر أرنست باركر ما يأتى ، والترجمة ليست لى ، وإنما لصديقى الأستاذ فؤاد صروف :

« إلى أى مدى يستطيع الرأى العام فى دولة من الدول - كما يعبر عنه مجلسها التشريعى - أن يسيطر على التعليم وبرامج الدروس فى المدارس والجامعات ؟ يتراءى لى أنه قد يحق لدولة من الدول أن تسيطر على برنامج العلوم التى تعلم فى مدارسها ، ولكن لا يحق لها فى حال من الأحوال أن تسيطر على ما يعلم فى هذا العلم أو ذاك ، والسبب بسيط المثال : الغاية من التعليم تنبيه القوى وتدريبها ، وما من معلم يستطيع أن ينبه عقول تلاميذه ويدربها إلا إذا

استعمل عقله حراً من القيود ، فاذا علم المعلم ما يؤمر بتعليمه كان هو وتلاميذه كالآلات ، هو ينقل ما قيل له أن ينقله ، وهم يقبلونه من غير بحث أو مناقشة ، وكان العلم والتعليم سطحيين ، ومتى قيد المعلم كذلك فقد احترامه لنفسه ، وما له من المقام والكرامة فى نفوس تلاميذه ، وإذا فقد مقامه فى نفوسهم عجز عن التأثير فى عقولهم . التعليم يتوقف على اشتراك المعلم والتلميذ فى البحث اشتراكا حراً ، هو يعلم ما يمليه عليه الفكر والبحث ، وهم ينقادون إليه لما فى تدريبه من قوة ، فيتمكن من قيادتهم فى سبل البحث والتنقيب ، ولا يستطيع أحد أن يقود غيره إذا لم يكن كلامه خارجا من أعماق نفسه .

إن روح الحرية الذى أوجد المجالس النيابية ـ وهو روح حياتها ـ يجب أن يمنعها من القضاء على روح الحرية الذى نفخ فى معاهد التعليم وصار روح حياتها أبداً .

إننا لا نستطيع أن نملى على مجلس تشريعى مستقل ما يجب أن يسنه من القوانين ، كذلك لا نستطيع أن نعين لجامعة من الجامعات ما يجب أن يعلم فيها . . . الرأى العام قوة عظيمة ، ولكن لا تستطيع تكوين رأى عام ناضج من غير مناقشة ، ولا مناقشة صحيحة من غير تعليم صحيح حر ، فاذا حاول مجلس من المجالس التشريعية أن يقضى على حرية التعليم قضى على نفسه ، لأنه قائم على حرية القول .

وإذا سعى الرأى العام لطمس حرية الفكر والقول ، طمس صوته القوى ، لأن الرأى العام ينشأ عن حرية التفكير والقول ، وما من دولة ديموقراطية تقدر أن تقضى على الحرية ، أو تخمد حرية الفكر من غير أن تقضى على ذاتها وتخمد شعلة حياتها ... » .

***

تلك هى جملة الآراء التى انتهى إليها « أرنست باركر » ؛ وليس أدل على سدادها من صواب ما فيها من نظرات ، وروعة ما فيها من وجوه ...

فهل تريد أن أسهب لك فى تفصيلها ، وأطنب لك فى تحقيقها وتمحيصها ، وتسجيل ما يزدحم عليها من ميزات . . . هى باعث التوفيق للتعليم الجامعى ، والتربية الجامعية ، بل التربية الشعبية على السواء ؟

إن هذا البحث يا صاحبى يدعو هو الآخر إلى مجلد ضخم ، ويدعو لتكوين هذا المجلد الضخم إلى وفرة أناة ، وكثرة اتئاد ، وهدوء أعصاب ، ورحيب وقت .

وهذا كله يدعو إلى تخصيص جزء كامل من « المعرفة » حتى نبلو الهدف ، ونبلغ الشأو.

فلأكتف بما أدليت ، ولأقف عند ما أحصيت ، وليكن ما أحصيته وأدليت به حافزاً لمن يريد الاصلاح ، أو ينشد الاصلاح ، أو يملك بين قبضتيه أسباب « الحل والعقد » كما تتحدث إلينا لغة الدواوين ! أنقذنا الله من سياسة الدواوين وجمود الدواوين ... وإلى الملتقى .؟

ع ...

مقـــــــــدور

بقلم القصصي الكبير الاستاذ محمود تيمور
(من كتاب « الوثبة الأولى » ـ تحت الطبع ـ)

— ١ —

ظهر الشيخ سيد على السكة الزراعية ، يمشى متمهلا وهو يلهث ، رازحاً تحت ثقل جسمه الهائل ؛ يحرك إحدى يديه إلى الأمام مستعيناً بها فى السير كما يستعين النوتى بمجذاف قاربه ، بينما يده الأخرى تقبض على طرف (زكيبة) ملقاة على ظهره ، بها ما يجود عليه المحسنون من طعام ، وكان جلبابه القذر ـ كسوته الوحيدة التى لا يملك سواها على جسده ـ يمتلىء بهواء الريف القوى فيزيده ضخامة على ضخامته ، وربما علا وهبط على جسمه فكشف للرائى سيقاناً مشققة كسيقان الفيل .

واتجه نحو القناة التى تستمد مياهها من الساقية ، وهبط عليها فى المكان المعد لسقى المواشى ، وأخذ يرتوى بشره كما يرتوى الحيوان العطشان .

وترك عم خضر الساقية ـ حيث كان منشغلا بمراقبة الثور ـ واتجه نحو الشيخ سيد وأمسك بيده وقبلها ، ثم قال له :

ـــ ادع لى يا شيخ سيد . ادع لى ليفتحها الله فى وجهى ، ويشفى أم عبد السلام زوجتى المسكينة .

فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ غير واضح :

ـــ يلعن أبوك انت وهى .

فابتسم البستانى ، وأخذ يد الشيخ سيد فقبلها مرة أخرى وهو يقول له :

ـــ ربنا يسمع منك !

ثم تركه وعاد إلى الساقية ؛ وكان الرجل قد تمدد بجوار القناة متوسداً إحدى ذراعيه ، واستعد للنوم .

— ٢ —

كان الشيخ سيد ـ فى طوره الأول ـ عميد أسرته ، وكان معروفاً برجاحة عقله وطيبة قلبه ، محترم الجانب ، محبوباً من الجميع ؛ وكان يعيش فى رخاء ، يملك هو وأخواه عشرة أفدنة ، يشتركون فى زرعها وتقسيم محصولها عليهم بالسواء ؛ وكانوا يسكنون كلهم فى دار أبيهم ؛ وهى دار ريفية رحبة وسعتهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم

وعاش الرجل هكذا معززاً مكرماً حتى أشرف على الخمسين ، وحدث يوماً بينما كان عائداً بحماره إلى داره ، إذ عثر الحمار فى الطريق فأوقعه على الأرض ، وأصاب رأسه حجر غليظ أسال منه الدم غزيراً ، وحمل على أثر ذلك إلى منزله ، وبقى طريح الفراش عدة أسابيع بحمى شديدة ، غائباً عن صوابه ؛ ولما التأم الجرح وزالت الحمى ، أصبح سيد أبو علام غيره بالأمس ، رجلا فاقد الذاكرة معتوهاً ، ولم يعد يصلح لعمل ما من أعمال الفلاحة ، فتركه أخواه فى فناء الدار يقضى وقته مع الأطفال يشاركهم لعبهم ، ولما طال مرضه ، وعز شفاؤه ، داخل أخويه طمع الحياة ، وفكرا فى التخلص منه ، ثم قر رأيهما على طرده هو وعائلته ، وحرمانهم جميعاً من ثروتهم ؛ وكان للرجل ذرية عديدة ، ولكن لم يكن بينها فرد يقوى على الدفاع عن حقوقهم المسلوبة ، وخرجت العائلة مطرودة من دارها والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم ، أو متاع من أمتعتهم ؛ واستقر بهم المقام فى دار مهدمة صغيرة من دور العزب ، عاشوا فيها عيشة البؤس ، يكسبون مكسباً ضئيلا لا يكاد يقوم بأودهم .

واستمر الشيخ سيد على هدوئه وخموله لا يفارق الدار ، يمضى وقته إما مع الأطفال ، أو نائماً بجوار الحائط ، لا يعرف ليله من نهاره ، وغلظ جسمه وترهل ، وتهدل شعره ، واشتبك بعضه ببعض ، وتلبك من الأوساخ ، فبشع منظره ، واحتجبت ملامحه القديمة ـ ملامح الرجل الذكى العامل ذى القوة والبأس ـ خلف ذلك القناع الوحشى ذى العينين الشاردتين المربدتين ـ كما يحتجب الضوء اللامع خلف الزجاج المترب القذر .

وكانت للشيخ سيد أم ضريرة كانت تزوره فى الخفاء ـ من غير علم أخويه ـ وتحمل إليه الهدايا من طعام وكساء ، فكان إذا رآها هلل بها تهليل الأطفال ـ وهو يجهل من هى ـ ويأخذ منها الحلوى والملابس بفرح وسذاجة ، أما هى فكانت تجلسه بجسمه الغليظ على رجلها الواهية ، وتضمه إلى صدرها بحنو وشغف ، تطعمه بيدها الحلوى ؛ وتروى له حكايات الغول والشاطر محمد ، وإذا حل عليه النوم وسدته حجرها ، وغنت له أغانى الطفولة الجميلة .

ـ ٣ ـ

وماتت زوجة الشيخ سيد ، تاركة له أطفالا دون سن الرشد ، فعز على أمه العجوز أن ترى هذه العائلة بلا عائل ولا مدبر ؛ فلحقت بها ، واقتسمت معها مضض العيش ، تعمل جهدها على تفريج ضيقها .

وكر الزمن ، وكبر الأطفال إلى شبان وفتيات ، ووجد الشبان الرزق محدوداً فى تلك الجهة ، فرحلوا متفرقين إلى جهات عديدة يناضلون فى ميدان الحياة الواسع ؛ أما الفتيات ، فقبعن فى الدار ينتظرن الزواج ، ولكن الزواج كان يمر عليهن ساخراً لا يمد لهن يداً ، وساءت أحوال العائلة يوماً بعد يوم ـ على أثر رحيل الأخوة الذكور الذين كانوا يعولونها ـ فأخذت الأم

الضريرة تفكر فى الأمر ، وقر رأيها أخيراً على الخروج بابنها المعتوه إلى الأسواق للاستجداء، فأم ضريرة وابن أبله مسكين يحركان الشفقة ، ويستنديان الأكف للاحسان .

وخرجت الأم فى اليوم التالى تجر ابنها جراً لعدم رغبته فى الخروج ، وذهبت به إلى السوق ، حيث مكثت وإياه اليوم كله يستجديان ، وعادا إلى الدار ومعهما بضعة نقود وشىء يؤكل .

وتكرر الخروج كل يوم ، واعتاد الشيخ سيد أن يتجول بمفرده فى البلدة تاركا أمه على رأس الطريق ؛ فكان يطوف على الدكاكين والقهاوى يكلم نفسه ويضحك ويشتم ويحرك يده حركات غريبة ، ثم يعود إلى أمه وفى زكيبته شىء ينتفع به .

ـ ٤ ـ

ودخل الشيخ سيد مرة دكان « أبى شوشة » الجزار وبادره بقوله :

ـ لقد قلت لك من زمن يا حمار إن الخير كتير . أهو واحد ... اتنين ... تلاته ... الأردب القمح فى الدوار ... والماء بالراحة فى الترع ... واحد ... اتنين ... تلاتة ... ربنا يلعن جدودك ابن كلب صحيح ...

ـ أنا ابن كلب !.. وهل فعلت شيئا أستحق عليه هذا ؟

ـ فعلت شيئاً ؟.. أبداً ... الخير كتير يا ولد ، الخير كتير!.

فابتسم ثانيا أبو شوشة ووضع فى زكيبة الرجل قطعة من اللحم ، وخرج الشيخ سيد وهو يضحك ويكرر ما قاله للجزار ، وجلس أبو شوشة فى الدكان ، وقد اعتمد بذقنه على يديه ، وأخذ يفكر فى ما قاله له الرجل ، لقد عد أمامه : واحد اتنين ثلاثه ، ثم كرر جملته « الخير كتير » فما معنى ذلك ؟ ألا يقصد قضية الأطيان ، إن الجلسة بعد ثلاثة أيام .

ومضت الثلاثة أيام ، وربح أبو شوشة القضية ـ التى ظلت معلقة فى المحاكم سنين طويلة ـ وكان ابتهاجه بذلك عظيما ، فأقام ليلة أنس كليلة الأفراح ، وزع فيها الصدقات ، وغمر الشيخ سيد بمختلف الهدايا .

وكان انتصاراً كبيراً للشيخ سيد تناقله الناس وأذاعوه ؛ فاشتهر صيته ، وقصده طلاب الحاجات من كل صوب يستوضحونه ما خفى من أمرهم ، فكان يخبط معهم خبط عشواء ، وساعده الحظ وأفلح فى هذيانه ، فهابه الجميع وأجلوه ، وأغدقوا عليه الهدايا والأموال .

ـ ٥ ـ

كان رفعت افندى ناظراً للزراعة التى يسكن عزبتها الشيخ سيد ، وكان رجلا أحمق متكبراً ، له زوجتان : الأولى امرأة ناهزت الخامسة والأربعين ، وتسكن داره التى فى العزبة ،

بينما الثانية فتاة تبلغ الثامنة عشرة وتسكن داره البعيدة التى فى البلدة ، وكان يميل إلى الثانية ويفضلها على الأولى فأوغر بذلك صدر الأخيرة .

ففى يوم من الأيام كان رفعت أفندى جالسا على شاطىء الترعة أمام العزبة مستظلا بشجرة الجميز الكبيرة ، يتناول طعام الغداء بمفرده ، ويقوم بخدمته خادمه الصغير ، كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ، مقبحا الأكل وصانعته ، وجاء الشيخ سيد فى ذلك الوقت يتهادى فى جلبابه الفضفاض المنتفخ بالهواء ، يجذف بيده ويلهث ، وجلس بالقرب من رفعت أفندى وأخذ يحدق فى طعامه وهو يتكلم كلامه غير المفهوم ، فلم يأبه به رفعت أفندى وتابع أكله وهو يسب ويشتم بلا حساب ، فزحف الشيخ سيد إليه وأخذ يحرك له يديه ويصرخ فى وجهه ، فرمقه الأفندى بنظرة شذراء ، مزمجراً ، وعيل صبر الشيخ سيد فمد يده واختطف لقمة من الصينية أخذ يلتهمها وهو يضحك ملء شدقيه ، فاستشاط رفعت أفندى غضباً ، وقام ورفع الشيخ سيد محاولا إيقاعه فلم يتزحزح الأخير عن مكانه قيد أنملة ، وحسب أن الناظر يمازحه فمد إليه يده ودفعه ببساطة فانقلب الرجل على ظهره فى الوحل وهو يهدر كالثور الهائج ، والتف حولهما جمهور غفير من سكان العزبة وضجوا بالضحك والسخرية عند ما شاهدوا الناظر يتخبط فى الطين ، وسرعان ما احتل الشيخ سيد مكان رفعت أفندى على المائدة وأخذ يأكل بشراهة وغبطة ، والقوم يهللون ويصفقون ، وقام الناظر وهو ينظف نفسه ، يلعن ويشتم ويهدد ، وقصد داره ، ورهط كبير من الأطفال يجرون خلفه يزفونه بسخرية ومجون ؛ أما الشيخ سيد فبعد أن أتى على الأكل كله تمطى وتثاءب وتمدد بجوار الترعة متوسداً زكيبته ونام نوما عميقا مصحوبا بغطيط مزعج .

دخل رفعت أفندى منزله وهو يهدد ويزوم ، وبعد قليل قامت ضجة فى الدار مصحوبة بتكسير أثاث ، ثم هدأت وخيم على المكان سكون عميق .

وبعد آذان العصر بقليل سمع من منزل الناظر صراخ وعويل وندب .

واجتمع الناس حول الدار ، وظهر الشيخ حمزة خطيب الجامع — صاحب اللحية الحمراء والوجه المجدور — على عتبة الباب وقال بصوته الجهورى :

— يا عباد الله ، لقد هلك الظالم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

فهمهم الجميع يطلبون لأنفسهم الرحمة ، وأخذ الشيخ حمزة يشرح للناس « كرامة » الشيخ سيد فى هلاك الناظر الذى لم يراع مع الشيخ أصول اللياقة والكرم ، وجعل يسهب لهم فى هذا القول وهو يمجد لهم الشيخ سيد ويثنى على أعماله ويبرهن لهم بمختلف البراهين أنه ولى كبير من أولياء الله ، قادر على إهلاك الأشرار والبر بالصالحين الأخيار .

وكان لهذه الحادثة وقع كبير فى نفوس الحاضرين ، فأخذوا ينشرونها بين الناس فى حماسة ويقين .

— ٦ —

وكان للشيخ سيد عدة بنات تجاوزن سن الزواج . وحدث أن شاباً من عائلة معروفة فى البلدة شاهد كبراهن وهى تملأ الجرة من الترعة ، فأعجبته وتزوجها ، وكان له زوجتان غيرها لم تلدا له ما كان راغباً فيه من ذرية ؛ ولم يمض على زواجه من ابنة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى عين عمدة للناحية ، ثم بعد أربعة أشهر أخرى ولدت له زوجته الجديدة صبيين توأمين ، وكانت مباغتة له لم يكن يتوقعها ، فعد زواجه الجديد كرامة عظيمة من الشيخ سيد ، وانتشرت هذه الحادثة كسابقتها ، فأقبل وجهاء البلدة على منزل الشيخ سيد يطلبون بناته للزواج .

وعاش الرجل وأمه فى دارهما وحيدين ، ولكنهما عاشا فى بحبوحة من العيش . وآثرت الأم الاحتفاظ بكوخها ، ورفضت أن تنتقل بابنها إلى دار من دور أزواج حفيداتها إذ كانت مستبركة به ، وكانت لا تخرج منه إلا لتملأ الجرة من الترعة أو لتجلس على عتبة الباب تستنشق الهواء فى هدوء وغبطة . أما الشيخ سيد فكان يخرج صباحاً ولا يعود إلى الدار إلا فى المساء وهو محمل بأفضال المحسنين . كان يزور مختلف القرى ويجوب الأسواق ، يأكل حيث يريد ويستريح حيث يرغب ، محترم الجانب ، مهاباً من الجميع .

هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنين كاملة .

— ٧ —

وبدأ جنون الرجل يتحول من جنون هادىء لطيف إلى جنون هائج خطر .

كان يدخل الأسواق كالزوبعة ، يخطف ويبعثر كل ما تصل إليه يده ، ويقصد إلى القرى فيمسك بالطيور فيخنقها ، وكثيراً ما ضرب الناس بلا سبب .

وأمسك مرة بالشيخ حمزة خطيب الجامع الوقور ، وأخذ ينتف شعر لحيته الشقراء حتى كاد يفنيها عن آخرها ، ثم ركل الشيخ فى بطنه ركلة قوية كادت تقضى على حياته .

وبدأ الناس يتذمرون ، ولاحظوا أن شرور الرجل تتزايد وأنهم أصبحوا غير آمنين على أرواحهم وأرواح عائلاتهم . وأخذ الشيخ حمزة يهمس فى الاذان ، وكانت كلمة « الشيطان » تردد على الأفواه .

وحدث يوماً أن شوهد الشيخ سيد يجرى صوب الساقية وبين يديه طفل يبلغ العامين ، يعضه بأسنانه كأنه وحش منقض على فريسته ، وصراخ الطفل يمزق الفضاء ، وكان يجرى خلف الشيخ سيد بعض رجال من الضيعة يصيحون عليه ليترك لهم الطفل . ولكن الشيخ سيد كان منهمكا فى عمله غير آبه بصياح أحد . وكان قد اقترب من الساقية ، ولمعت فى ذهنه فكرة مريعة أراد أن ينفذها فى الحال ؛ ولكن والد الطفل لحق به وانتزع الطفل من بين يديه .

وكانت أم الطفل بالقرب من زوجها ، فأخذت ولدها فى لهفة وجزع وهى تبكى وتولول ، ثم عادت به إلى المنزل لتضمد جراحه وتعتنى بشأنه . أما الزوج فبعد أن سلم الطفل إلى زوجته ، عاد إلى الشيخ سيد ثائراً ، لا يستطيع ضبط نفسه . والتحمت بين الرجلين معركة هائلة انتهت بفوز حسن سلام والد الطفل ، فترك خصمه بعد أن كال له الضرب ألواناً ؛ وقام الشيخ سيد وهو يبكى كالأطفال ، يئن ويتوجع ويجر نفسه فى إعياء ، عائداً إلى منزله .

أما حسن سلام فبادر بالرجوع إلى داره ليطمئن على طفله فوجده نائماً على حجر أمه نوماً هادئاً ، فانتحى ركناً من أركان الدار وجلس يستعرض فى ذهنه ما وقع له ؛ وكان يسمع بين فترة وأخرى خوار الجاموسة وهى فى ذريبتها تطلب العلف ، واعتراه وجوم غريب ودب فى قلبه الخوف ، وخشى أن يكون مصيره كمصير ناظر الزراعة ، وبدأ يلوم نفسه على تسرعه فى معاقبة خصمه ، وكان الأجدر به أن يتركه وشأنه بعد خلاص ابنه منه ، وازدادت مخاوفه وكثرت هواجسه واعتقد أنه لن تمر الليلة دون أن يقع له مكروه ، وشعر باضطراب تنفسه ، واختلطت فى ذهنه المشاهد المزعجة ، فرأى الشيخ سيد يعزم تعازيمه السحرية ، وشاهد أشباح المردة من الشياطين ترقص أمام عينيه وتندلع من فمها ألسنة النار ، وبيدها الهراوات الثقيلة تلوح بها فى وجهه ، وأحس بأنفاس حارة تهب عليه ، وشعر باختناق شديد ، فصرخ مستنجداً وهو يمزق ملابسه :

ــ خلصونى منه . . . نجونى من الشياطين . . . يريدون قتلى . . . إنهم يهجمون على . . .

فقامت إليه زوجته مضطربة ، وسألته ما به ؟ فأمسك بها وهو يشير لها إلى شياطينه ويكرر لها ما قاله قبلا ، فخرجت المرأة من الدار تولول وتقرع بيدها على صدرها ، فهرع إليها جماعة من الجيران ، يتقدمهم عم مبارك أكبر عجائز الحى سناً ، وسأل عما حدث فأخبرته الزوجة بالأمر ، فتنهد الرجل وقال بصوت حزين « إنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل الدار بعكازته الطويلة يسير مطأطئ الرأس ، يتمتم بالفاتحة على روح حسن سلام ، فلما رآه الأخير زحف إليه وأمسك يده بشدة وهو يقول له :

ـ سأموت يا عم مبارك ، سأموت . فأجابه عم مبارك وهو يربت على رأسه :

ـ لا يستطيع أحد أن يرد قضاء الله يا ولدى !

فأخذ حسن سلام يبكى بمرارة وهو يلتصق بعم مبارك كأنه يريد أن يرد عنه غائلة الموت.

وبدأ عم مبارك يقرأ على رأس الرجل الايات القرآنية التى يتلوها عادة على رأس الأموات، فتخاذلت قوى حسن سلام ، وارتمى على صدر الشيخ فاقد الوعى .

ودخل الدار فى تلك اللحظة « أبو حجازى » فسأل من حوله قائلا :

ـ ماذا جرى يا جماعة ؟ فأجابه عم مبارك على الفور :

ـ حسن سلام تعيش إنت يابو حجازي .

فتقدم أبو حجازى من حسن سلام وفحصه ملياً ثم قال وكله ثقة بنفسه :

ـ كلام فارغ ، الراجل فيه الروح مثلنا ، هاتوا يا جماعة قلة الماء.

فأسرعت الزوجة « بالقلة » وتناولها أبو حجازى وأخذ يرش الماء على وجه حسن سلام ، ثم جعل يدعك يديه ورجليه بشدة حتى استفاق الرجل وفتح عينيه وهو يقول :

ـ أنا فين يا جماعة ؟ فأجابه أبو حجازى ضاحكا :

ـ إنت فى دارك يا حسن ـ شد حيلك يا أخى !

ورنت فى أرجاء الدار « زغاريد » الزوجة ، واستبشر الناس فرحين بنجاة حسن سلام ، وسرعان ما انقلب المأتم إلى عرس ، وصرخ أبو حجازى على الزوجة قائلا :

ـ عاوزين نشرب الشربات « يابت » حلاوة قيام حسن سلام بالسلامة . يلله بلى السكر واعصرى اللمون .

وخرج عم مبارك مستاءاً وهو يتمتم بكلام غير مفهوم . وتنفس الناس الصعداء بعد هذا الانتصار الحاسم الذى ناله حسن سلام على الشيخ سيد فلم يعودوا يخشون شره ، وكانوا يمرون بداره يصيحون متوعدين شامتين ، فرأت الأم الضريرة أن تحجز ابنها خوفا عليه من غضب الناس ، وكانت تخرج خلسة وتقفل الباب خلفها لتأتى له بالطعام والشراب ، وهدأت العاصفة نوعا ، ولكن الشيخ سيد لم تكن ترق فى عينيه حياة المسجونين ، فكان يحاول فتح الباب ليخرج ، ثم يرتد خائبا وهو يصرخ ويبكى ، يضرب رأسه فى الحائط حتى يدميه .

وحدث مرة أن استطاع الافلات من سجنه ، فذهب تواً إلى سوق البلدة ،وبدأ ينهب ويبعثر ما تصل إليه يده ، ولكن الناس تجمهرت عليه وأقصته عن السوق بعد ضربه ، وخرج الرجل من السوق فزعا كالفريسة الوحشية التى يطاردها الصيادون ، ورغب فى العودة إلى داره فاستقبله جمهور من فلاحى الضيعة وطاردوه بالطوب حتى وصلوه إلى البيت .

ومنذ ذلك اليوم والشيخ سيد لا يكاد يفلت من داره حتى يعود إليه مثخنا بالضرب ؛ وبالغت أمه فى الاحتفاظ به فلم يستطع الهرب من سجنه ، واقتصر على الصراخ والعويل يملأ بهما جو الغرفة ، وسدت أبواب الرزق فى وجه « الأم » وتنكر لها جميع الناس حتى حفيداتها ، فكانت تجلس أمام باب بيتها تطلب الاحسان والناس يمرون بها ولا يقربونها وهم يستعينون بالله من شر الساحرة الماكرة .

ولما يئست المرأة من معونة أحد اعتكفت فى ركن من أركان الدار مع ابنها منتظرة بصبر واستسلام قضاء الله ، واشتد بها الضعف فتمددت على الأرض بهلاهيلها تردد أنفاسها فى غير انتظام ولا استقرار ، وقد تضاءل جسمها وجف ، وجحظت عيناها غير المبصرتين كأنهما تبحثان فى الظلام عن شىء يؤكل ؛ أما الشيخ سيد فكان يدور فى الحجرة ثائراً وهو يقضم الطوب ، فاذا ما ناله التعب جلس بجوار أمه يبكى فتقبله وتلاطفه ، محاولة جهد استطاعتها أن توهمه بأن الطعام لم ينضج بعد.

— ٨ —

وحدث أن استطاع الشيخ سيد أن يفلت من سجنه ، وكان الوقت ظهراً ، والشمس على أشدها ، والسكون يسود العزبة ، والمكان قفر ، والهواء خمل ، وكانت جميع الدور مقفلة ، خرج الرجل هائجاً كالحيوان الجائع يجرى هنا وهنالك فى حيرة وارتباك ، وفتح باب أحد الدور وخرجت منه امرأة تحمل على رأسها قصعة من الطعام ، ذاهبة بها إلى زوجها فى الغيط ، وكان يسير بجوارها طفلها الصغير ، وشم الشيخ سيد رائحة الأكل فاستجمع قوته وانطلق يعدو نحو المرأة ، وكان يتعثر فيقع على الأرض ثم يقوم يعدو وراءها ليلحقها ، ورأته المرأة ففزعت فزعاً كبيراً ، واختطفت طفلها وحملته بين يديها وأرادت أن تعدو فخانتها قواها ، ولحقها الشيخ سيد وأمسك بها فتعثرت فى أذيالها على الأرض ووقعت القصعة وانتثر الطعام على الأرض ، ثم جعلت تصيح مستنجدة ، أما الشيخ سيد فهجم على الطعام الملوث بالتراب وأخذ يحشو به فمه .

وهبت فى جو العزبة عاصفة هوجاء من الصوات زادها تألب الكلاب على النباح ، وسرعان ما انتشر بين الجميع أن الشيخ سيد منقض على طفل يأكله ، فجن جنون الناس ، وجاء الرجال على عجل بنبابيتهم إلى مكان الحادثة ، وطاحوا بالشيخ سيد يضربونه بلا حساب.

وأخيراً صاح فيهم صائح : كفى أيها الاخوان وارفعوا أيديكم .

فكفوا عن الضرب وجعلوا يجففون عرقهم بأكمام جلابيبهم ، وتقدم أحدهم وقلب الرجل بين يديه ثم تمتم متعجباً ، والتفت إلى إخوانه فأقبلوا يقلبون الرجل معه ، وانتشرت همهمة بين الجميع عقبها صمت ثقيل .

وظهر الشيخ حمزة وصاح فى الجمع قائلا : ما لكم واجمين كالأصنام ، هيا للعمل .

وتقدم أمامهم يوسع الطريق ، فشمر الرجال عن سواعدهم المعتدلة وجروا الشيخ سيد كما يجرون ثوراً ميتاً ، والأطفال خلفهم يرقصون ويهللون ، وأخيراً وقف الشيخ حمزة وقال : هنا . ... وحفروا له حفرة متسعة عميقة ، ورموا بالجثة فيها ، فسمع لها دوى غليظ مخيف ، ثم هالوا التراب عليها ، وعاد كل إلى عمله كأنه لم يقع شىء .

وما كاد طريق العزبة يقفر من المارة حتى ظهر على عتبة الشيخ سيد ـ شبح يزحف ويجر نفسه فى ضعف وتهالك ، واتجه نحو مكان الجريمة وأخذ يتحسس التراب الممزوج بالدم ، يشمه تارة ويفحصه بين أصابعه تارة أخرى ، وجسمه كله يهتز مرتجفا ؛ وبغتة صاح باختناق وجعل يلطم وجهه ، وهو يقول :

ـ آه يا ابنى . . . قتلوك يا ابنى . . . قتلوك ياحبيبى يا ابنى . . . : وارتمى على وجهه ينهنه كالأطفال .

« محمود تيمور »

المعاني الافلاطونية عند المعتزلة

بقلم الاستاذ محمود الخضيرى

عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

الى العلامة الجليل الاستاذ السيد مصطفى عبد الرازق الذى يرجع اليه الفضل فى احياء الفلسفة الاسلامية فى مصر وتأسيس دراستها فى الجامعة المصرية ، أقدم هذا العمل تحية تلميذ يعترف بما لأستاذه عليه من جميل ؟ م. م. خ.

***

مقدمة عامة

الفصل الأول

يبدو لأول وهلة أن دراسة المعتزلة تقصينا بعض الاقصاء عن الخطة الفلسفية ، وذلك لأنه لم تجر العادة على اعتبارهم بعض أولئك الذين يمثلون أو يواصلون الأنحاء الفلسفية الاغريقية عند المسلمين ، ويرجع هذا أيضا إلى أن الفلاسفة المسلمين لا يتحدثون عنهم ؛ وأكبر السبب فى ذلك منشأه اختلاف الاصطلاحات، وهم إذا عرضوا لهم اتهموهم بسوء فهمهم لمقاصد الفلاسفة ، وقد يعترفون أنهم لا يستطيعون أيضا أن يفهموا مقاصد المعتزلة .

ومما يؤيد هذا ما جاء فى حديث أبى سعيد السيرافى النحوى المتوفى سنة ٣٦٨ ﻫ (٩٧٨ م) إلى متى بن يونس القنائى الفيلسوف المتوفى سنة ٣٦٨ ﻫ (٩٣٩ م) : «...وهذا الناشىء أبو العباس قد نقض عليكم ، وتتبع طريقكم ، وبين خطأكم ، وأبرز ضعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا عليه كلمة واحدة مما قال ، وما زدتم على قولكم : لم يعرف أغراضنا ولا وقف على مرادنا وإنما تكلم عن وهم »(١) .

والناشىء المذكور هو أبو العباس عبد الله بن محمد الأنبارى شرشر ، معتزلى من الطبقة الثامنة ، توفى فى مصر عام ٣٤٦ ﻫ (٩١٥ م) ، ألف كثيراً فى نقض كتب المنطق ، كما وضع كتابا عنوانه « المقالات » شرح فيه مذهبه فى العدل(٢) .

وكذلك ما كتبه ابن القفطى المصرى (٦٤٦ ﻫ — ١٢٤٨ م) فى كتابه « تاريخ

---

(١) أبو حيان التوحيدي (٤٠٣ ﻫ — ١٠١٢ م) مقتبس من مقدمة السيد حسن السندوبى لكتاب المقابسات ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٨٢ .

(٢) راجع الأستاذ (مكس هرتن) «المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام» بون سنة ١٩١٢ ص ٣٤٨
«Max Horten: Die philosophischen systeme des spekulativen Theologen im Islam»
وسنقتصر فى الاشارة الى هذا الكتاب بقولنا : هرتن — المذاهب .

الحكماء» بمناسبة كتاب أرسطو «السماء والعلم»، (وقد كان العرب يعتبرون هذين الكتابين ـ الصحيح والمنتحل ـ كتابا واحدا) : « ... كتاب السماء والعالم .... ولأبى هاشم الجبائى عليه كلام وردود سماه التصفح، أبطل فيه قواعد أرسطوطاليس.... وسمعت أن يحيى بن عدى (٤٠٧ هـ — ٩٧٤ م تقريبا) حضر مجلس بعض الوزراء ببغداد فى يوم هناء، واجتمع فى المجلس جماعة من أهل الكلام فقال لهم الوزير : تكلموا مع الشيخ يحيى ؛ فانه رأس متكلمى الفرقة الفلسفية ؛ فاستعفاه يحيى، فسأله عن السبب، فقال يحيى : هم لا يفهمون عبارتى وأنا لا أفهم اصطلاحهم ... » .

وأبو هاشم المذكور هو عبد السلام أبو هاشم بن الجبائى، من شيوخ الطبقة التاسعة من المعتزلة، توفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م ؛ وسنفرد له فصلا فى نهاية هذا البحث .

ويؤيد ذلك أيضاً ما كتبه الغزالى (٥٠٥ هـ — ١١١١ م) فى كثير من كتبه مثل قوله : « إن أول أنواع الخلاف بين الفلاسفة وخصومهم (أى المتكلمين بما فيهم المعتزلة) يرجع النزاع فيه إلى مجرد اللفظ » ؛ أو كقوله : « ... ولكن المنطق ليس مخصوصاً بهم (أى الفلاسفة)، وإنما هو الأصل الذى نسميه فى فن الكلام كتاب النظر، فغيروا عبارته إلى المنطق تهويلا ؛ وقد نسميه كتاب الجدل، وقد نسميه مدارك العقول، فاذا سمع المتكايس المستضعف اسم المنطق، ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون، ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة » (١) .

ثم إن المتكلمين، وجمهور أهل السنة، لا سيا بعد الأشعرى، مع أنهم لا يجمعون المعتزلة فى صف واحد مع الفلاسفة، إلا أنهم يعتبرونهم، رغم هذا، مبدعة يجب ألا تدرس آراؤهم . روى أبو حامد الغزالى أن الامام أحمد بن حنبل « أنكر على الحارث المحاسبى ـ رحمهما الله ـ تصنيفه فى الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : الرد على المبدعة فرض ؛ فقال أحمد : نعم ! ولكن حكيت شبههم أولا، ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع جوابك مطالع الشبهة فيتعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر فى الجواب فلا يعرف كنهه » (٢) .

من أجل هذا كانت معرفتنا بالآراء الفلسفية للمعتزلة ناقصة مشوهة، لا سيا ونحن لا نملك شيئاً من مؤلفاتهم، وقد انتهى إلينا أكثر ما نعرفه من مقالاتهم عن طريق خصومهم من المتكلمين الذين لم يكونوا فى أغلب الأحايين يفهمون مقاصدهم، وكثيراً ما يعرضونها فى صيغ

---

(١) « تهافت الفلاسفة » ص ١٠، ١٥، ١٦ من طبعة الأب (موريس بويج Bouyges) بيروت سنة ١٩٢٧ .

(٢) « المنقذ من الضلال » ص ٢٧، ٢٨ من طبعة شميلدرز Schmölders فى كتابه « مقالة عن المذاهب الفلسفية عند العرب » الخ . باريس سنة ١٨٤٣ « Essai sur les Écoles philosophiques chez les Arabes »

تكشف عن الجهل بمغزاها الفلسفى الصحيح ؛ وأكثر من هذا ، فان لغة المعتزلة ـ كما تبدو لنا فى القطع المنسوبة إليهم فى مؤلفات خصومهم وأنصارهم ـ لغة غير ثابتة ولا محدودة ، بحيث قد نجد للكلمة الواحدة فى فقرتين من نص واحد معنى عاميا ومعنى فنيا ، ثم إن المعنى الفنى قد يختلف أيضاً فى مدلوله ، فأحياناً يدل على المعنى عند الفلاسفة ، ويدل أحياناً أخرى على معناه الخاص عند المتكلمين . ومن أجل هذا كان تفسير نصوصهم على الوجه الصحيح من أشد الواجبات عناءاً وتعباً ، ومن أكثرها استلزاماً للحذر والانتباه .

والغرض من بحثنا هذا أن نبين أن المعتزلة هم أول المفكرين المسلمين الذين عالجوا الفلسفة بادئين من معان لا شك أنها إغريقية ، لا سيما من مذهب المثل الذى ينتهى كماله عند الاغريق فى فلسفة أفلاطون. وهذا العمل هو فى الواقع محاولة لدرس وجه خاص للفلسفة فى أول عهدها عند المسلمين، ونحن نعتقد أن مثل هذا الدرس لا يخلو من فائدة، ولا سيما إذا انتبهنا إلى الزمن الذى عاش فيه هؤلاء المفكرون الذين سنشرع فى درس آرائهم ، وهو زمن الاعداد والتحضير للفلاسفة وللمتكلمين.

لم تكن اللغة العربية قد استملكت بعد كتابات الاغريق فى الفلسفة ، تلك الكتابات التى أصبحت فيما بعد المصدر الوحيد للفلاسفة فى بناء مذاهبهم . ومن أجل هذا وجب علينا أن نبحث فى محيطهم العقلى عن عناصر الثقافة الفلسفية التى استمد منها المعتزلة ما احتاجوا إليه لتشييد مذاهبهم .

الفصل الثانى

كان المعتزلة الذين سنتولى دراستهم مسلمين ، عاشوا فى البصرة إبان القرن الثامن والتاسع للميلاد، (من الثانى إلى الرابع من الهجرة) ؛ ويكادون أن يكونوا جميعاً من أصل غير عربى ، كما يدل عليه كون أغلبهم من الموالى أو العبيد المعتوقين ، ثم إنهم كانوا من خاصة أهل الثقافة ، كما يدل على ذلك اتصالهم بالخلفاء ، حيث كان يلتقى فى قصورهم خير ممثلى الثقافة فى عصرهم ؛ ثم إن المسائل التى عنوا بدرسها غير مطروحة فى القرآن فى صيغ تسمح بأن تصدر عنها مناقشات فلسفية، وكذلك فان الحجج التى يستعينون بها لشرح أصولهم ومقالاتهم غريبة مطلقاً عن الأدب العربى السابق .

قال ابن خلدون (١٤٠٦ م) : « إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى »(١) .

---

(١) « المقدمة » ص ٣٤٨ مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٢هـ

وهذا هو فى الواقع ما فعل العرب عند وفاة النبى ، إذ أنهم أحسوا بالحاجة إلى أن يتمكنوا من فهم القرآن ، وأخذوا يبحثون عن تفاصيل الحوادث الكونية والتاريخية التى ورد ذكرها مجملة فى الكتاب المنزل . وتوضح لنا بقية كلام ابن خلدون النتائج الاعتقادية التى حدثت فى الاسلام فى أول عهده بتأثير الاستعانة بعلماء الدين الاسلامى الذين كانوا يهوداً قبل اعتناقهم الاسلام ؛ ذلك بأن نفوذهم وحججهم كانا سائدين فى الواقع على المؤلفات الأولى فى التفسير . لم يكن اليهود والمسيحيون الذين توجه إليهم العرب ليمتازوا عنهم فى كثير من حيث الثقافة والعلم، إذ أنهم كانوا – على حسب اصطلاح ابن خلدون – بدواً وأميين مثلهم ؛ وقد كان يهود الجزيرة على الخصوص مجسمة ينسبون إلى الله صوراً جد إنسانية ، الأمر الذى حاربه فيما بعد موسى ابن ميمون (١٢٠٤ م) .

وإذن فان العرب لم يحتكوا فى الحقيقة بالثقافة والعلم إلا بعد غزوهم الشام والعراق وفارس، وإذ ذاك اتصلوا بأهل ديانات تهذبت علومها تحت تأثير الفلسفة الاغريقية ، وكذلك فان الديانات الفارسية والهندية – التى كانت غنية بأساطيرها وبمعانيها الخاصة بالعبقرية الارية – لم تكن أجنبية عن العلوم والروح الاغريقية (١) .

كان المتأدبون من المسلمين يتلقون العلم – ولا سيما فى العراق – مع المجوس وغيرهم من الفرس ، ومع النصارى واليهود. وكان الخلفاء يستقبلون – بكرمهم المعهود – الأطباء والفلاسفة والفلكيين من الفرس والسوريين . وهنا ينبغى ألا نغفل عما فعله السوريون فى نقل الثقافة الاغريقية إلى الشرق، وذلك لأن مقدرتهم التجارية وشغفهم بالأسفار جعل منهم خير وسطاء؛ ثم إن الاغريق لم يغفلوا من ناحيتهم أن ينشروا أنوارهم فى الشرق الذى غزوه بالسلاح وبالاراء، وإذا كانت فارس والهند قد استطاعتا فى زمن يسير أن تتخلصا من سيادة هذا الشعب الصغير، فان الثقافة الاغريقية ظلت رغم هذا سيدة ، وذلك بفضل صفاتها الانسانية على الخصوص .

وقد اعتاد ملوك فارس (الأكاسرة) – منذ القرن الرابع للميلاد – أن يستدعوا الفلاسفة اليونانيين . وفوق ذلك فاننا نعتقد أن الشرق – لا سيما الشرق الحديث الذى يهمنا الان – قد نفذت إليه فلسفة اليونان قبل هذا بكثير ، إذ أن انتشار الاراء والمعانى فى الأوساط العقلية المتحضرة لا يمكن أن يكون بطيئاً . وفى الواقع فان الشهرستانى (٥٤٨هـ — ١١٥٣ م) يحدثنا عن تلميذين رشيدين لفيثاغورس ذهبا يذيعان فلسفة أستاذهما ؛ أحدهما فى فارس

(١) قال الاستاذ ل. جوتيه L. Gauthier « ... كانت هذه الديانة (ديانة زرادشت) تشمل نظرية للتثليث ، ان لم تكن كاملة صريحة ، فانها كانت تشتمل على الاقل مذهب الكلمة الالهية، مع تصور شبيه بمذهب المثل الافلاطونى . « مقدمة لدرس الفلسفة الاسلامية ... الخ» باريس سنة ١٩٢٣ ص ٨٢ ، ٨٣
Introduction a l'étude de la philosophie musulmane Etc.

والاخر فى الهند(١) ، وفى الواقع إن مذهب الفيثاغورية ومذهب الفيثاغورية الحديثة غير غريبين عن البلاد التى فتحها العرب بين عامى ٦٣٤ و ٦٤٠ للميلاد (١٣ — ٢٠ للهجرة) .

ولمدينة حران فى العراق (على حدود سوريا) أهمية عظيمة فى هذا الشأن ، إذ أنها كانت مدينة ظلت بعيدة عن الديانات السامية ، وفيها كانت تدرس الرياضيات والفلك ، ومذاهب الفيثاغورية الحديثة والأفلاطونية الحديثة ، ولكن كان يحيط بجميع هذا مذهب روحى فلسفى ، ينتهى بديانة صوفية معروفة عند العرب باسم ديانة الصابئة .

كان للصابئة عبادة روحية يتوجهون بها إلى معلميهم « أغاذيمون Agathodeumon » و « هرمس Hermes » الذين كانوا يعتبرونهما أرباباً وآلهة ووسائل وشفعاء « عند الله وهو رب الأرباب وإله الالهة » (٢) . ولا شك أن هذه الديانة عريقة فى حران ، وكثيراً ما يتحدث عنها الشهرستانى باعتبارها معاصرة ومقابلة لديانتى ابراهيم وموسى . وكذلك يقول ابن النديم (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) : « إن أول رؤساء الحرانيين جلس على كرسى الرئاسة عام ١٠٤ للاسكندر » (٣) . وكان الصابئة - على حسب شرح الشهرستانى - يقولون: « إننا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ؛ لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب » .

ولكنهم لما لم يقتصروا فيما بعد على الروحانيات البحتة والتقرب إليها بأعيانها، فزعت جماعة منهم إلى هيا كلها، وهى السيارات السبعة وبعض الكواكب الثابتة؛ فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهنود مفزعها الثوابت (٤) . وقد عاشت ديانة الصابئة فى عهد الاسلام ، وكان أهلها يعرفون (السريانية) لغتهم الدينية ، واشتهر منهم رياضيون وفلاسفة وأطباء أمثال : ثابت ابن قرة (٢٨٩ هـ - ٩٠١ م) ، وابنه سنان بن ثابت (٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) ، وغيرهما من العلماء والمترجمين .

ومما يجدر بالملاحظة أن عبادة الكواكب التى تتصل - بالطبع - بديانة الصابئة عملت على إذاعة آراء المذهب الفيثاغورى الحديث ، ومما لا شك فيه أن العرب عرفوا هذه الديانة قبل مجىء الاسلام ، كما يثبت ذلك نص القرآن ، إذ جاء فى السورة السادسة منه (الأنعام) :

---

(١) الشهرستانى « الملل والنحل » ج ٣ ص ٢٣ — ٢٤ من طبعة خليفة . القاهرة سنة ١٣٤٧ .

(٢) « الكتاب المذكور » ج ٢ ص ٧٧ . ونقول بهذه المناسبة ان الاعلام الاجنبية مشوهة فى هذه الطبعة تشويهاً كبيراً .

(٣) كتاب « الفهرست » طبعة (فليجل Flûgel) لايبسك سنة ١٨٧١ ص ٣٣٦ .

(٤) الشهرستانى « الملل والنحل » ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .

[البقية على الصفحة رقم ٤٤٤]

وحدة الوجود

(هند) فيك المنى وفيك المنايا نعمة أنت ، أم جماع البلايا !
تبسمى خفية فتفرق روحي من وميض اللما وبرق الثنايا
وتذوب القلوب شوقاً ووجداً بحلول الصفا وصقل المرايا

***

مظهر يجذب الخلى بهاءاً وبهاء مطلسم بالخفايا
يسحر اللب والفؤاد ويلهو بأسود الشرى فتمسى سبايا
منظر لاح فى رواء ومجلى وغناء ولذة ومزايا
فيه للعاشقين لغز خفى ومصون الجناب تحت الحنايا
خمرة تحتسى بغير مدام وتمس العقول قبل الخلايا
فهى كالنار والسعير لهيباً تأكل الغير والسوى والخطايا
كم لهذا الجمال صرعى وقتلى ونشاوى تهتكوا وضحايا
(غادة) ترتدى الخمائل والخز لها المجد والعلا والتحايا

***

فلماذا تحجبت وتجنت يا خليلي وأولجت بالخبايا
نكتة يهرع الحكيم إليها جاهد الفكر خاضعاً لقضايا
والقضايا موصلات لأخرى مع قياس ومنطق ومهايا
وغموض يدق إثر غموض تنتديه الشكوك رغم النوايا
تعب الكل فى تقصى أمور لا تؤدى إلى جلاء الخفايا
فاسترح أيها الحكيم ورفقاً من طويل العنا بجهد المطايا
فمتى كان للنهار دليل والضحى واضح وشمس البرايا

***

(هند) نفسى تبرقعت بنقاب عن مرائى العيان بين الطوايا
لحظة تكشف القناع لمسنا ذلك السر لا عناءاً ولايا
فهى روح الوجود لب المعانى قد تجلت تحائفاً وهدايا

على سالم عمار

أقسام اللعب أو طوائفه

بقلم الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ التربية بدار العلوم العليا والأخلاق بقسم التخصص بالأزهر
وتاريخ الادب المسرحى بقاعة المحاضرات التمثيلية

يمكن أن يقسم اللعب من نواح متعددة وحسب اعتبارات كثيرة ، ولكننا سنقتصر على تقسيمه من حيث إنه عامل من العوامل التى تدرب القوى الجسمية والنفسية على القيام بوظائفها، وتعد – بذلك – الطفل للحياة المستقبلة ، متخذين نظرية جروس(١) أساساً لهذا التقسيم .

تنقسم الألعاب – بهذا الاعتبار – إلى قسمين رئيسيين : ألعاب تدرب بها القوى الجسمية والنفسية على القيام بوظائفها العامة ، وألعاب تمرن بها تلك القوى على القيام بأمور خاصة .

فمن القسم الأول ما يأتى : —

١ — ألعاب الحواس . — يأتى الأطفال – وخاصة فى الدور الأول من طفولتهم – بأمور لعبية الغرض منها مجرد الاحساس بالأشياء ، فتراهم يضعون على ألسنتهم كل ما يصل إلى أيديهم ليتذوقوا طعمه ، ويقذفون هناتهم على الأرض ، أو يدقونها بأصابعهم ، أو يقرعون بعضها ببعض . . . . ليسمعوا ما تحدثه من الأصوات، (ومن هذا أيضاً ألعاب الزمارة والطبل وما إليها) ، ويحدقون فى الكرات ذات الألوان المختلفة ليروا بريقها، (ومن هذا أيضاً ما يفعله بعض الأطفال الصغار من الخط بالحكاك (الطباشير) أو بالأقلام على الألواح والقراطيس) وتبعث أناملهم بالأشياء ليدركوا ملمسها وما فيها من خشونة أو نعومة . . . الخ . . . الخ .

وقد سمى المربون هذه الطائفة من الألعاب « ألعاب الحواس » أو « الألعاب الحاسية » لأن الطفل قد زود بالاتجاه نحوها لتدرب حواسه على القيام بوظائفها العامة .

٢ — ألعاب الحركة . — وهى أجل من أن تحصى ، ووظيفتها تدريب قوى الطفل الحركية على أداء ما خلقت له ؛ وتنقسم من هذه الناحية إلى قسمين، يقوم القسم الأول منها بوظيفة التدريب على تنسيق الحركات ، والاتيان بها على شكل يؤدى إلى نتائج معينة: (الرمى بالكرات لتصيب هدفا معينا ، أو لتتجه اتجاهاً خاصاً – تلقفها – ، لعبة القفيزى (٢) ، لعبة

(١) راجع هذه النظرية بعدد يوليو سنة ١٩٣٢ صفحات ٣٢٣ وتوابعها .
(٢) لعبة للصبيان ينصبون خشبة ويتقاذفون عليها .

« كيك على العالى » . . . وما إلى ذلك) ؛ ويقوم القسم الثانى منها بوظيفة التدريب على الاتيان بحركات قوية تتطلب مجهوداً : (العدو، المسابقة فيه ، الوثب من مكان مرتفع، التدحرج ، الطفور ، تخطى الوهاد ، القذف بالحصا إلى مكان بعيد . . . الخ) .

ومن ألعاب الحركة أيضاً ما يسمونه « الألعاب اللفظية » ، وهى النطق بكلمات متنافرة عدة مرات مثل :

«وليس قرب قبرحرب قبر» ، «غربال غربلنابه وغربال ما غربلنابوش» ، « بربرى برنبال بنى منبر ، وبربرى برما طلع منبر بربرى برنبال » . . . الخ . — وفى اللغة الفرنسية :

(Didon Dîna Dit - On Du Dos D'un Dodu Dindon)

(Chasser Sachant Chasser Sans Son Chien)

٣ — الألعاب النفسية . — وتشمل كل لعب من شأنه أن يدرب قوة من قوى النفس على القيام بوظائفها ؛ وهى تنقسم إلى ما يلى :

(ا) — الألعاب الفكرية . — وهى الألعاب التى تعتمد ـ بشكل أساسى ـ على قوة من قوى التفكير : (الاستدلال ، الحكم ، الموازنة ، الذاكرة ، الفهم ، التأمل ، الخيال الحسى ؛ الخيال الاختراعى ، تداعى المعانى ... الخ) ، وذلك مثل لعب (السيجة) ، الورق (الكتشينة)، النرد ، الشطرنج ، الألغاز والأحجيات ، رسم شىء سبق للطفل رؤيته ، اختراع حكاية ... الخ.

هذا ، ولما كان « الخيال الاختراعى » أهم قوة نفسية يحتاج إليها الانسان فى حياته ، فهو الدعامة لجميع مظاهر تفكيره ، ولكل أعماله العقلية ، والخاصة التى باعدت ما بينه وبين بقية أصناف الحيوان ، ومكنته من أن يسيطر على الطبيعة ، ومن أن يؤلف من شتى العناصر المادية والمعنوية تلك المجموعات الاختراعية التى يرجع إليها الفضل كله فى حضارة بنى الانسان: (العلوم ، الفنون ، الفلسفة ، المخترعات الصناعية . . . الخ) ، — لذلك زود الطفل باتجاهات نحو طائفة كبيرة من الألعاب، لا غرض منها إلا تدريب قوة خياله الاختراعى، وإعدادها للقيام بتلك الوظائف الجليلة التى خلقت لها . على أننا إذا أنعمنا النظر فى بقية الطوائف اللعبية لم نكد نعثر فيها على صنف لا يستخدم فيه ـ بشكل ما ـ الخيال الاختراعى .

وبفضل هذا الخيال أمكن الطفل ـ فى ألعابه ـ أن يعطى الأشياء والأناسى ما يشاؤه من الصفات : يرى فى قطعة خشب أحياناً فرساً ، وآونة سفينة ، وتارة قاطرة بخارية ، وحيناً إنساناً . . . ينفخ خياله الروح فى الجمادات ، ويحرك الساكنات ، يمنح نفسه ما يشاؤه له هواه من الألقاب والرتب : ينتقل من سدة العرش إلى كرسى الوزارة ، ومن سطوة القائد إلى خضوع الجندى ، ومن منزلة الأستاذ إلى مكانة التلميذ . . . ليس عليه بمستنكر أن يجمع العالم فى شخصه .

وقد تملك عليه هذه الأوهام نفسه ، وتختفى أمام شمسها الوهاجة نجوم تفكيره ، فيظن أن الواقع يتفق مع أهوائه ، ويرى حقيقة ما هو من مخترعات خياله .

وليس هذا قاصراً على حياته اللعبية ، بل قد يتعداها إلى حياته الجدية، فكثيراً ما رأينا أطفالا يغيرون حقائق الأشياء والوقائع عند ما يسألون عنها، ويحملوننا على أن نصفهم بالكذب فى أقوالهم ، وما هم فى الغالب بكاذبين ، وإنما هو خيال اختراعى قد استحوذ على نفوسهم ، واختفى أمامه كل ما عداه من مظاهر تفكيرهم ، فحسبوا حقيقة ما هو من مختلقاته . — وعلى هذه القاعدة قرر كثير من علماء النفس عدم الاعتداد بشهادات الأطفال فى القضاء (انظر مثلا ما كتبه الأستاذ جونكير فى مؤلفه « كذب الأطفال ») .

هذا، ومن الألعاب العقلية «ألعاب حب الاستطلاع » ،وتشمل الأسئلة التى يلقيها الأطفال على الكبار لمعرفة مهايا ما يحيط بهم من الأمور المادية والمعنوية ، والتى يكلفون بها الكلف كله، ويخصصون لها أكبر قسط من مظاهر نشاطهم اللعبى فى بعض أطوار طفولتهم، (سمى الأستاذ جمس سلى هذه الأطوار « الأطوار السائلة ») ، كما أنها تشمل أيضاً «ألعاب التحليل والتحطيم» التى لا يلجأ إليها الطفل فى الغالب إلا مدفوعاً بغريزة حب استطلاعه لعناصر الأشياء ومعرفة ما تحتوى عليه .

(ب) — الألعاب الوجدانية . — وهى الألعاب التى يحاول الأطفال بوساطتها إثارة عواطفهم المختلفة مثل عاطفة الألم ، (يتضارب الأطفال فى بعض ألعابهم بعصا رفيعة لينظروا أيهم يستطيع تحمل أكبر كمية من الضربات دون أن يصرخ . . . الخ . . . الخ) ؛ — وعاطفة الخوف ؛ (ومن ذلك الألعاب القصصية التى يكون موضوعها الجن أو الغول ، واللعبة التى يسميها الفرنجة «لعبة الوحش الأسود» ، وهى التى يختفى فيها أحد اللاعبين ليثب على زميله ـ الذى يبحث عنه على حين غرة منه ـ وثوبا يملؤه خوفا ورعبا، ومن ذلك أيضا تعرض الأطفال لمنازل غيرهم : يقرعون أبوابها أو يدقون أجراسها ثم يركضون عدواً خشية أن يلحق بهم البواب أو صاحب المنزل . . . الخ . . . الخ) ؛ وعاطفة الجمال : (عمل نماذج من الصلصال ، بناء منازل من الرمل، رسم صور الأشخاص والأشياء ، التلوين . . . الخ)، وما إلى ذلك من مظاهر الوجدان التى يضيق المقام عن حصرها ، وعن حصر الألعاب التى من شأنها أن تقوم بتدريبها على أداء وظائفها العامة .

(ج) — الألعاب الأرادية . — وهى ألعاب من شأنها تدريب قوة الأرادة ، وأهمها الألعاب التى تتطلب من الطفل مجهوداً إراديا لأيقاف حركة من حركاته الجسمية ، (يقص قصة مضحكة أو يحك عضواً من أعضاء الجسم المثير حكها للضحك ، لينظر أى اللاعبين أقدر على كتمان انفعالاته ، محاولة بعض الأطفال إيقاف تيار ضحكهم ، عملهم على ألا يطرفوا أبصارهم

عند تقريب يد أو شيء نحو أعينهم ، محاولتهم عدم الحركة تقليداً للتماثيل ، وحبس التنفس محاكاة للأموات . . . الخ ... الخ).

ومن القسم الثاني ،(وهي الألعاب التي يمرن بها الطفل على أعمال خاصة يحتاج إليها في حياته المستقبلة) ما يأتي : —

١ — ألعاب المبارزة : — وتشمل كل الألعاب التي من شأنها أن تدرب الطفل على الهجوم أو على الدفاع أو على كليهما معاً ، وتنقسم إلى قسمين : ألعاب مبارزة جسمية (المصارعة ، والملاكمة . . . الخ) ؛ وألعاب مبارزة عقلية (النكات الهجومية ، المسابات الهزلية . . . وما إليها) .

هذا ، ولا نكاد نعثر على صنف من الألعاب لا يمرن فيه الطفل على المبارزة ، فكلها تقريباً تؤدي هذه الوظيفة ، غير أن منها ما يؤديها أولا وبالذات ،أي كوظيفة أساسية ،(وهي الألعاب التي وقفنا عليها هذا العنوان ، والتي ذكرنا أمثلة منها)، ومنها ما يقوم بها ثانياً وبالعرض ، أي كوظيفة غير أساسية ،(الشطرنج) ، و«التينس» ، وكرة القدم ،وتسلق الجبال ، وما إلى ذلك من الألعاب التي يكون حب التغلب على خصم حسي أو معنوي - أي على شخص أو على صعوبة - سبباً من الأسباب الدافعة إليها) .

٢ — ألعاب الصيد : — وتشمل كل الألعاب التي من شأنها أن تدرب الطفل على الأعمال الضرورية للقنص (المتابعة ، الاختفاء ، البحث . . . الخ) ،وتنقسم إلى قسمين : ألعاب صيد حقيقي ،(ومنها ما يولع به الصبيان الذكور في بعض أطوار طفولتهم من متابعة الحشرات والجراد ، وصيد الطيور بالأشراك وغيرها ، وهدم أعشاشها للحصول على صغارها أو على بيضها . . . وما إلى ذلك) ؛ وألعاب تشبه عناصرها عناصر الصيد (لعبة البحث والاختفاء « الاستغماية » وما إليها) .

٣ — ألعاب الجمع : — وتشمل كل الألعاب التي يرضي بها الطفل غريزتي الملك والادخار ، والتي من شأنها أن تدربه على الحرص ، وبعد النظر ، والتفكير في حوائج الغد ، والاستقلال بملك الأشياء ، ومنع غيره من أن تمتد يده إلى ما يملك . . . الخ .

يولع الصبيان بهذه الطائفة من الألعاب في طور من أطوار طفولتهم ، فتراهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم . إذا فتشت في جيوبهم أو في حقائبهم ، أو في الزوايا التي يعتبرونها عقارهم الخاص ،وجدت ثمة مخازن قد وسعت كل شيء ، بها من تافة الهنات ما تقضى عجباً لاهتمامهم بجمعه ،وما لا يمكننا أن ندرك عظم قيمته في نظرهم ،إلا إذا أتيح لنا أن ننعم لحظة بالرجوع إلى أطوار طفولتنا الأولى : قصاصات ورق ، طوابع بريد مستعملة ، تذاكر ترام ، مسامير قديمة ، قطع من الحصى والصدف والأحجار والخشب والفلين والفحم . . ، حشرات

ميتة ، أقمشة مختلفة الألوان . . وما إلى ذلك من الأشياء التى لا سعادة للطفل حينئذ إلا فى كبر حجمها ، وزيادة كميتها .

٤ ــ الألعاب الأسرية : وتشمل كل الألعاب التى من شأنها أن تدرب الطفل على حياة الأسرة وعلى ما يتطلبه تكوينها وإدارتها ، وأهمها أربعة أنواع :

ا ــ ألعاب العرائس : وهى من أكثر الألعاب انتشاراً، ومن أقدمها فى النوع الانسانى (إن لم تكن أقدمها) : تجيب بها الطفلة داعى غرائز كثيرة ، أهمها : غريزة الأمومة، وغريزة السيطرة والحكم ، وغريزة التقليد ؛ وتدرب بوساطتها على ما ستقتضيه حياتها عند ما تصبح ربة منزل .

ب ــ ألعاب الزواج : وهى التى يتزوج فيها ذكور الأطفال بأناثهم ، ويحاكون أثناءها تقاليد أمتهم الدينية والقضائية والعرفية المتبعة فى الخطبة والعقد وزف العروس إلى زوجها.. وما إلى ذلك .

جـ ــ ألعاب الأم والأب : بعد أن تتم حفلة الزفاف يهتم العروسان بتنظيم حياتهما فيعمدان إلى طنف (البلكونة)، أو إلى نافذة من نوافذ المنزل يجعلانه محلا مختاراً لاقامتهما، ويقسمانه إلى حجر ومرافق يجهزانها بما يشاءان وتشاء لهما أهواؤهما من الأثاث. وسرعان ما يرزقهما الله بمولود سعيد (« قالب طوب » أو « عروسة ») : وعندئذ يستقبلان حياة جديدة ملأى بالجد والعمل الذى يوزعانه بينهما توزيعاً يتفق مع واجب كل منهما نحو أسرته : على الأب السعى فى مناكب الأرض وابتغاء الرزق ، وعلى الأم تدبير منزلها والقيام بشئون ولدها الصغير . . . أليس هذا هو كل شىء فى حياة الأسرة ؟ اللهم بلى !

د ــ ألعاب التدبير المنزلى : الطهى ، والخبز ، والغسيل ، وما إليها وهى منتشرة بين إناث الأطفال أكثر من انتشارها بين ذكورهم ، والسبب فى ذلك واضح .

٥ ــ الألعاب الاجتماعية : ــ وتشمل كل لعب من شأنه تدريب الطفل على الحياة الجمعية، وعلى تكوين الجمعيات وما إلى ذلك . ولأهمية هذه الأمور للنوع الانسانى ، لا نكاد نعثر على لعب لا يمكن إدخاله فى هذا القسم (اللهم إلا الألعاب الفردية البحتة) .

٦ ــ ألعاب الصناعات : وتشمل ألعاب النسيج ، ألعاب الخياطة ، ألعاب الحدادة، ألعاب النجارة، ألعاب البناء ... الخ .

٧ ــ الألعاب الزراعية : ومنها ألعاب الحرث والسقى والفلح وتربية الدواجن وما إليها .

٨ ــ ألعاب السباحة ٩ ــ ألعاب الجندى والشرطى ١٠ ــ ألعاب الرقص ١١ ــ ألعاب البريد . . الخ .

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذه الفقرة أن ننبه إلى أمرين :

١ - إن الأقسام السابقة كلها ليس منفصلا بعضها عن بعض الانفصال الذى يوهمه هذا التقسيم ، وأنه قد تتوفر فى صنف واحد من اللعب عدة صفات تسمح لنا أن نجعله من أفراد أقسام كثيرة . فالشطرنج مثلا يصح اعتباره من الألعاب العقلية ومن الألعاب الوجدانية (فهو يثير عاطفة الخوف) ومن ألعاب المبارزة . . . وهلم جرا .

٢ - إن أهم ما نرمى إليه فى هذه الفقرة إنما هو البرهنة - بشكل غير مباشر - على صحة نظرية كارل جروس (١) وبيان أن جل طوائف اللعب تقوم بتدريب الطفل على ما تتطلبه حياته المستقبلة .

على عبد الواحد وافى

دكتور فى الاداب من جامعة باريس

المعاني الافلاطونية عند المعتزلة

[بقية المنشور على الصفحة رقم ٤٣٧]

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين [٧٤]. وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين [٧٥]. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ؛ فلما أفل قال لا أحب الافلين [٧٦]. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين [٧٧]. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون [٧٨]. إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين [٧٩] » .

ومن هذا يتضح أن إبراهيم لم يرض بعبادة الأوثان التى كان يؤمن بها قومه ، ففكر فى عبادة الكواكب ، ولكن لم يرضه أفولها وغيابها وتغيرها ؛ وتشهد لنا هذه الايات بوجود عبادة الكواكب فى جزيرة العرب قبل الاسلام ، أو تؤكد لنا على الاقل علم العرب بهذه الديانة قبل البعثة النبوية الاسلامية .

(يتبع) محمود الخضيرى

---

(١) التي شرحناها ونقدناها بعدد يوليو سنة ١٩٣٢ صفحات ٣٢٣ وتوابعها

٣ ـ شلر SCHILLER

بقلم الدكتور على مظهر

---

١ — عذراء أورليان

أولع الكتاب والأدباء بسيرة تلك العذراء الفرنسية ، التى حاربت وقادت الجنود لمحاربة أعداء أمتها إذ ذاك ، ولطرد الانجليز المحتلين من أرض فرنسا، وقد أغرم الناس بذكرها ؛ ولذا ترى عدة قصص ومسرحيات بهذا الاسم على تلك الفتاة ، ومن أولئك الأدباء شلر الشاعر الألمانى الكبير ، بل ربما كان من أوائلهم فى ذلك المضمار .

وعذراء أورليان هى جان دارك المولودة سنة ١٤١٠ فى قرية (دوم رمس) بالقرب من بوكولير فى مقاطعة الشمبانى ، وكان أبواها مثريين سريين، وفى ذلك الحين كانت انجلترا تحارب فرنسا سنين طويلة . وقد حارب ملك انجلترا هنرى الخامس (١٤١٣ — ١٤٢٢) ، وانتصر انتصاراً باهراً فى موقعة (ازنكور) سنة ١٤١٥ على ملك فرنسا شارل السادس الضعيف العقل (١٣٨٠ — ١٤٢٢) . وفتح هنرى بلاد النورماندى وكل الأراضى التى فى شمالى اللوار تقريباً، حتى أن خلفه هنرى السادس (١٤٢٢ — ١٤٦١) كان يسمى ملكا على أكثر الجزء الشمالى من فرنسا . وتقهقر ملك فرنسا شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١) بعد كل تلك الانتصارات الانجليزية . وقد انضم إلى الانجليز كل من إيزابو أم شارل ودوق البرجند. وحاصر الانجليز مدينة أورليان ، وأصبحت على وشك التسليم للأعداء ، وعندها تقدمت عذراء من أورليان وقادت صفوف الفرنسيين واضطرت الانجليز لرفع الحصار عن المدينة (سنة ١٤٢٩)، وأرادت أن تقود ملكها فى منطقة الأعداء إلى مدينة ريمس لتتويجه هناك ، ولكنها وقعت أسيرة فى يد أعداء بلادها الانجليز بمدينة كمبين ، وقدمت لمحاكمة كلها خزى وعار ، وأخذت سنة ١٤٣١ إلى مدينة روان، وأحرقها الانجليز وهى حية لاتهامها بالكفر والزندقة ، ولو أنه أعلن سنة ١٤٥٣ أنها كانت عفيفة لا ذنب ولا جرم عليها. هذا هو التاريخ الصحيح ولو أن شلر لم يراعه تماماً فى فاجعته التى كتبها عن تلك الفتاة .

أما المأساة فخيالية لما بها من اعتقادات بالولاية والكرامات الدينية أثناء القرون الوسطى، وأكثر أجزائها خيالا خاص بأهم شخصية للقصة نفسها . فأنت تجد العذراء ناعمة رقيقة شفيقة ذات شعور وإحساس سام، وقد قادتها نوازع الوحدة وميلها للحمية الدينية وتعصبها للمعتقدات لأن تتصل بعالم الأرواح، وظهرت لها مريم أم المسيح كما تظهر أمثال تلك الأرواح فى المنام.

---

* راجع العددين السابقين من « المعرفة »

فلقنتها واجبها نحو وطنها المهدد بالأعداء وأنه يجب عليها أن تنقذه وأن تنجي ملكها. وأخبرتها أنه للقيام بذلك الواجب يجب عليها أن تنبذ كل حب للرجال، وأنه يجب عليها أن لا تبقى على أى عدو أو أن تراعيه، وقالت لها: «يجب عليك أن تقتلى كل حى يبعث به إليك إله الحرب»؛ وأصغت العذراء للنصح والارشاد وهجرت خطيبها، فغم ذلك أباها إذ طلقت الحياة وملاذها الدنيوية، وخلفت كل عواطف الأنوثة وإحساسها الرقيق أثناء الحرب، ورفضت الزواج بقائدين باسلين رغبا فى البناء بها، وهما دونوا ولاهير؛ ولما اقترب منها الفتى مونتجمرى راجياً منها العفو جعلت تنظر إليه، ولكنها لم تعطف عليه، ولم ترق له ولم ترض به ولم ترض ببطل آخر، وأخيراً اقترب منها (ليونل) أنبل القواد الانجليز، وكانت انتصرت عليه، وعند ما وقع نظرها عليه لم تر قتله، بل أحب قلبها عدو بلادها؛ ولكنها ما لبثت أن اعترفت بخطأها وهى تتبرم وتتأذى، وجاء وقت الاستغفار، وكان ما كان من وقوعها فى يد أعدائها وحرقها وهى على قيد الحياة.

وكتب شلر بعدئذ مأساة جديدة أسماها (عروس مسينا) أو (الاخوة الأعداء)، وكان ذلك فى سنة ١٨٠٣، وهذه هى الفاجعة بايجاز:

فى بيت أمير مسينا ترى جداً يلعن أعقابه لعناً محتداً، وهو فى حلم، وقد رأى الأمير فى حلمه شجرتين من شجر الغار وبينهما زنبقة صارت لهباً والتهمت ما حولها بسرعة، وفسر له عربى ذلك الحلم بأن سيكون للأمير بنت سوف تسبب خراب ولديه وأعقابه وأولادهما، ولما سمع الأمير ذلك التفسير أمر بأن يقتل ابنته التى ولدت بعدئذ بقليل، ولكن الأميرة رأت حلماً آخر، فقد رأت طفلا جميل الخلقة يلعب فى الأعشاب وجاء أسد من الغابة فوجد فى حجر الطفل صيده، وكذلك فعل النسر الذى انقض من عل، وبقى الأسد والنسر عند أقدام الطفل، فأخبرها راهب - كانت تجد فى كلامه النصح والسلوى - بأن تفسير ذلك: أن ابنتها التى ولدتها سوف تجمع بين أولادها الغضاب، وبذلك نجت الابنة من الهلاك وتركتها الأميرة فى دير، وأخذت القديسة (سيسلى) فى تربيتها وتهذيبها، ولبثت البنت سنين وهى مختبئة فى ذلك الدير إلى أن مات الأمير. وفى أثناء تلك المدة شب ابنا الأمير وترعرعا ونشأ بينهما خصام وكراهية، وطالما عاش الأمير كان يسكت ما يخمد بينهما من لجاج، وما يشب بينهما من عداوة وخصام؛ ولكنه لما مات استعر لهيب العداوة بينهما ونشبت الحرب بين الأخوين، وهددت كيان البلاد، ونجحت الأم فى مسعاها، واصطلح الأخوان على أن يقيما فى قصر أبيهما بمسينا وهما على وفاق، ولما عاد لهما السرور وعمهما الحبور، أخبرتهما الأم بحكاية أختهما، وأخبرها الولدان بأنهما خطبا عروسين، وسوف يقدمانهما لأمهما، ولكن ما لبث أن انقلب السرور إلى حزن، إذ ظهر أن كلا من الأخوين يحب أخته المشار إليها. فقد رأى الدون مانيول أنثى الآيل فطاردها يريد اقتناصها حتى وصل إلى حديقة الدير، فلمح بياتريس فأحبها، وتمكن حبها من قلبه. أما أخوه الآخر دون سيزار، فقد رآها يوم جناز

أبيه فى كنيسة القصر فأحبها عندئذ ولم يشك فى حبها له ، وفى ليلة اتفاق الأخوين أخذ ماينول حبيبته من الدير وفر بها ، وجاء بها إلى حديقة منفردة ، ولما تصالح هو وأخوه أسرع إلى هناك لاحضارها فتصبح أميرة فى قصر أبيه ، وجاء جاسوس إلى سيزار وأخبره بفرار حبيبته من الدير وغواية أخيه لها ، فطعن أخاه – وهو مغضب – لأنه ظن أنه خانه ، وأمر فأحضرت بياتريس لأمها وكشفت عن الحقيقة ، ولم يلبث المطعون أن مات ، وأن انتحر الأخ الآخر ، وحق فى ذلك تفسير الحلم الأول .

وترى من ذلك أن شلر قد حافظ كل المحافظة على الأصول العتيقة فى تلك الفاجعة ؛ بينا تراه قد ركن إلى الخيال فى (عذراء أورليان) ، ونعنى بالأصول العتيقة : ماتراه من فكرة القضاء والقدر ، وما قسم لأسرة بأكملها أن تهلك ، لما جره عليها ذنب الأجداد ، وأن ليس لأخلاق الانسان ولا لارادته علاقة ما بالمقدور ، بل يلبث مختفيا ويدفع الناس للهلاك . فلكل ما قدر ، وليس من منقذ ولا شفيع . ويعتقد الانسان أنه باحتراسه سوف ينجو فيكون فى ما ظنه هلاكه ، وكذلك تم الأمر فى تلك الفاجعة ، وقد سار شلر على طريقة القدماء بادخاله التراتيل فى تلك الفاجعة ، وإن كان لم يتبع طريقة الاغريق فى كتابة المآسى تماما . وشخصيات الفاجعة ليست واضحة معينة تماما ، وإنما تبين حدودها ، ولكن للفاجعة عظمتها التامة وروعة أسلوبها الشعرى .

٢ – فيلهلم تل

كتب شلر تلك المأساة سنة ١٨٠٤ ، وكانت ختام ما كتب من تلك المآسى . وفى (فيلهلم تل) نراه قد عاد إلى نوع المآسى التاريخيـة الفعلية ، فتراه فى تلك المأساة قد أوضح عن آرائه فى الحرية إيضاحا كافيا ، وهى التى ظل ينادى بها منذ نشأته ، وفى مآسى صباه وشبابه . وتعالج المأساة قصة ثلاثة من السويسريين هم شوتيز وأورى وأونتر فالدن ، وحربهم ضد الدوق البرشت النمساوى الذى أصبح بعدئذ قيصر ألمانيا وسمى البرشت الأول ، وظل كذلك من سـنة (١٢٩٨ — ١٣٠٨) ، وكان يرى استعباد سويسرا وأهلها ، فأرسـل إليها حكاما ومفتشين كلهم متغطرس متعجرف ، فظلموا البلاد والعباد ، فطرح السويسريون النير عن أعناقهم ، وتم ذلك باتحاد عقد فى (مرج رتلى) الواقع على بحيرة الأقاليم الأربعة ذات الغابات بسويسرا ، وقد تم لتل إنقاذ البلاد من عدوها الأكبر الحاكم جسلر وانضم إليه كثيرون . وفى تلك المأساة يظهر تل بمظهر رجل العمل ، ومع أنه كان مغرما بحب بلاده ، إلا أنه لم يشترك فى اتحاد رتلى المشار إليه ، ومن العجب أن شلر لم ير فى حياته سويسرا ، ولـكنه قد أجاد فى وصفها وصفا صحيحا ، وقد طالع قبل كتابته تلك المـأساة من المراجع : تاريخ حلف السويسريين ليوهانس فون مولر (ولد سنة ١٧٥٢ فى شافهوزن وتوفى فى كاسل سنة ١٨٠٩) ، وله تآليف أخرى ، كما أنه راجع

حوادث (اجيديوس تشودى)،وقد اتبع شلر فى قصته ما فيهما من حقائق،حتى أنه نقل الخطب التى نقلها (تشودى) فى حوادثه .

وقد دعى لبرلين ليحضر تمثيل فيلهلم تل هناك ، ولكنه أبى ، وقد تحسنت حالته العامة فى سنيه الأخيرة،وانتقل من عسر ـ كافحه فى صباه ـ إلى يسر ظاهر ، وأنعم عليه قيصر ألمانيا بلقب تشريف ، بناء على إيعاز من(الهر تزوج) اعترافا بخدماته،وكان ذلك سنة ١٨٠٢ ، ولما احتفل بزواج ولى عهد فيمار على الأميرة العظيمة (ماريا باولوفنا) أنشدقصيدته (نعمة الفنون).

وكان فى عزمه أن يكتب أثاراً أخرى ، منها فاجعة جديدة اسمها (دمتريوس) من خيار ما كتب الشاعر ، ولكنه لم يتمها ، فقد عاجله الموت بفيمار فى اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٨٠٥ ، وقد عاشت أرملته فى بون إلىسنة ١٨٢٦ ، وخلف كارل وأرنست وابنتين هما كارولينا وإميلى ، وقد توفيت الأخيرة سنة ١٨٧٢،ومات آخر حفدته الذكور سنة ١٨٧٧ ، وكان بكباشيا فى الجيش النمساوى ، ولا يزال ابن حفيدته يعيش حتى الان فى مونيخ وهو كاتب معروف .

على مظهر

وصف العود

للأستاذ مصطفى جواد (بغداد)

شيخ المعازف طول عمره ... أعصابه من فوق نحره
يبكى فيصمت فجأة ... فكأن حشرجة بصدره
ويظل طوراً نائحاً ... فتظنه يبكى بسحره
وعلى كلا الحالين ير ... عشيا أسى لغريب أمره!
أمريض حمى نافض ... أم واصف ضربان دهره
أم ريشة العواد آ ... ذته فبدد كل صبره
واهتاج ينفض نفسه ... كالميت ينشر بعد قبره
ضربوا به كل اللحو ... ن فياله جهلا بقدره
أتراه للأفراح تو ... اقاً وذاق وبال عمره
شيخ يحارب دهره ... للآن لم يظفر بنصره

مصطفى جواد

النفس والله فى فلسفة أفلاطون *

بقلم الاستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بالجامعة المصرية

النفس

(ا) إن فكرة النفس ماثلة فى جميع مؤلفات أفلاطون ، وقد رأينا أن نظرية المثل تتضمن القول بالنفس موجودة قبل اتصالها بالبدن ، من حيث إن هذه المثل ليست متحققة فى التجربة ولا مكتسبة بالحواس ، فلا بد من قوة روحية تعقلها ، أو بالأحرى تذكرها ، بعد أن عقلتها فى عالم يماثلها. ورأينا فى (تيماوس) والقوانين ، أن المادة لا تتحرك بذاتها ؛ فلا بد لتعليل الحركة من الرجوع إلى مبدأ غير مادى يتحرك بذاته ويحرك غيره ؛ وأن الجوهر المنقسم لا يعقل ، فلا بد من وضع العقل فى جوهر بسيط هو النفس ؛ أضف إلى ذلك الرد على المذهب المادى القائل فى (فيدون) : إن النفس توافق العناصر المؤلفة للبدن بحيث لا يكون لها وجود ذاتى بل ، تكون كالنغم بالاضافة إلى الالة والأوتار (85e-86) بأن التوافق والنغم نتيجة ، والنتيجة لا تباين المقدمات ؛ ولكن النفس تدبر البدن وتتحكم فى الأعضاء ، بل تقاوم البدن بالارادة متى كانت حكيمة ، ولم يكن ذلك ليتأتى لو كانت النفس نتيجة تناسق البدن وطبائعه فليست نغما ، ولكنه الموسيقى الخفى الذى يحدث النغم (92c-95a) ؛ وعلى ذلك فالنفس حقيقة لا ريب فيها يدل على وجودها تذكر المثل والتعقل الخالص وحركة البدن وتدبيره بمقتضى الحكمة .

(ب) على أن رأيه فى ماهية النفس وعلاقتها بالبدن لا يخلو من التردد والغموض . ففى المحاورة الواحدة « فيدون » يحد النفس تارة بأنها فكر خالص ، وطوراً بأنها مبدأ حياة وحركة للجسم،دون أن يبين ارتباط هاتين الخاصيتين ولا أيتهما الأساسية . وفى المقالة الرابعة من «الجمهورية» يجعل للنفس ثلاث قوى : العاقلة والغضبية والشهوية ، ثم يقول فى « تيماوس » بنفوس ثلاث : الواحدة إلهية خالدة والأخريان طبيعيتان فانيتان ، ويعين لكل منها محلا فى البدن . وبينا يشبه النفس فى « فيدر » بمركبة مجنحة ، الحوذى فيها العقل ، والجوادان الارادة والشهوة ، ويرى أنه قد يحدث فى الحياة السعيدة التى تقضيها النفس مع الالهة

---

* بدأنا بنشر هذه السلسلة ابتداء من الجزء الثانى من السنة الثانية لمجلة « المعرفة »

أن الحوذى لا يحسن القيادة ، أو أن يعصاه الجوادان ، وخاصة الجواد الجموح بالطبع وهو الشهوة ، فتهبط النفس من مقرها الالهى ـ إذا بكلامه فى « ثيماوس » يشعر أن الغضبية والشهوية صنعهما الآلهة للحياة الأرضية والوظائف البدنية .

كذلك الحال فى علاقة النفس بالبدن ، فتارة يعتبرهما متمايزين تمام التمايز ، فيقول : إن الانسان النفس ، وإن البدن آلة ، وطوراً يضع بينهما علاقة وثيقة ، فيذهب إلى أن البدن يشغلها عن فعلها الذاتى ـ وهو الفكر ـ ويجلب لها الهم بحاجاته ولذاته وآلامه ، وأن الموت خلاص لها، وأن مهمة الفيلسوف العمل على النجاة من البدن جهد المستطاع ورياضة النفس على الموت (Phédon 64-66) دون أن يبين ماهية هذا الاتصال وإمكان هذا التفاعل بين المادة والروح تفاعلا يذهب ـ فى ثيماوس مثلا ـ إلى حد علاج النفس بالبدن والبدن بالنفس ، وقيام الشعور والادراك فى النفس عند تأثر البدن بالحركة المادية على ما بين هذه الحركة والظاهرة النفسية من تباين .

(ج) وشغل أفلاطون شغلا كبيراً بمسألة الخلود ، ذكرها مراراً قبل أن يخصص لها «فيدون» وكان يحس إحساساً قوياً بخطورتها ووجوب بحثها من جهة ، وبضعف العقل بازائها من جهة أخرى ، فقال هذه العبارة الجامعة : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن العدول عن البحث واليأس قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما ـ إن امتنع ذلك ـ استكشاف الدليل الأقوى والمخاطرة عليه لاجتياز الحياة، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب. (Phédon 85 cd) ؛ وهو يسوق أدلة ثلاثة : الأول أسهلها تناولا ، لأنه قائم على العقيدة القويمة وهى : (أرفية ومصرية وفيثاغورية) بتداول الأجيال البشرية ، فاذا كان صحيحاً أن النفس التى تولد فى هذه الدنيا تأتى من عالم آخر ذهبت إليه بعد الوفاة ، وأن الأحياء يبعثون من الأموات، ينتج لنا أن النفس لا تموت بموت البدن. ثم يعمم الدليل ويقول : ونحن إذا نظرنا فى التغير بالاجمال ـ وهو قانون العالم المحسوس ـ وجدناه تبادلا دائراً بين الاضداد يتولد الأكبر من الأصغر ، والأحسن من الأسوأ وبالعكس ، فتصح لدينا العقيدة القديمة بأن الحياة تبعث من الموت ، ولو لم يكن الأمر كذلك لانتهت الأشياء إلى الفناء ، وإذن فقد كانت النفس قبل الولادة وستبقى بعد الموت (70c-72e) . ويتأيد هذا الدليل من ناحية أخرى ، ذلك أن هناك ضدين هما العلم والجهل ، وبعثاً من نوع آخر هو تذكر المثل ، فاذا كانت النفس قد عرفت المثل قبل هبوطها إلى الأرض ، فليس ما يمنع بقاءها بعد الموت (72e-77d) .

والدليل الثانى يدور على تعقل المثل ، فان هذه بسيطة وبالتالى ثابتة ، إذ أن المركب هو

الذى ينحل إلى بسائطه ويتحول ، أما البسيط فلا يجوز عليه تحول أو انحلال ؛ فلا بد أن تكون النفس التى تعقل المثل شبيهة بها على حسب القول القديم : الشبيه يدرك الشبيه وعلى ذلك فالنفس بسيطة ثابتة (78b-84b) .

ولكن أفلاطون يقر أن كل ما يلزم من الدليل الأول بفروعه الثلاثة هو أن النفس كانت قبل الولادة ، ومن الثانى أنها شبيهة بالمثل ؛ فمن هذين الوجهين لا تتنافى خصائصها مع البقاء، أما البقاء نفسه فلما يقم البرهان عليه ، إذ من يدرينا أن النفس لا تفنى بتلاشى قوتها بعد أن تكون تقمصت أجساماً عدة ؟ (86e-88b) . هنا يلجأ أفلاطون إلى نظريته فى المثل والمشاركة، ويقدم دليلا ثالثاً ، فيقول : لما كانت النفس حياة فهى مشاركة فى الحياة بالذات ولا تقبل الماهية ما هو ضد لها إلا وتتلاشى كما يتلاشى البارد إذا قبل الحار ، ولكن النفس لا تقبل الموت ، فانها منافية له بالطبع من حيث إنها مشاركة فى الحياة بالذات البسيطة الباقية .فالنفس لا تتلاشى (105c-107) .

غير أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالضعف البشرى لا يفارقه . فنراه يعلن أن هذا الشعور يضطره لبعض التحفظ بازاء هذه الأدلة على وجاهتها عنده ؛ بل يذهب إلى أن مقدماتها أنفسها مفتقرة لبحث أوكد (107ab) ؛ وهو يعود للموضوع فى « فيدر » (245c-246) ثم فى «القوانين» (893-896) ، ويعرض دليلا جديداً قائماً على ماأسلفنا فى تقسيم الحركة إلى ذاتية وقسرية ، وتعريفه النفس بأنها ما يتحرك بذاته ؛ ويحرك المادة فيقول من ناحية : إن ما يتحرك بذاته فهو خالد ، من حيث إنه لا يوجد فيه ولا فى غيره ما يقف حركته ؛ ومن ناحية أخرى : إذا كانت النفوس علة الحركات الطبيعية فهى باقية ، إذ لو كانت تنتهى لانتهت الطبيعة أيضا . ولسنا ندرى مقدار ثقته بهذا الدليل ، وإذا رحنا نقوم أدلته ونمتحن مقدماتها — كما يريد — وجدنا الأول يسلم بالدور تسليما،فلا محادعمه ول حتى يقع فى غلط هو أشبه بالمغالطة حين يدعى أن الضد يخرج من الضد ، وكلامه يدل فقط على أن الضد لا ينقلب إلى ضده حتى يتلاشى أولا كالحار والبارد،أو يكسب أو يخسر شيئا كالصغير يصير كبيراً وبالعكس . أما التذكر فليس التفسير الوحيد لتعقل المثل ، فقد نجردها من الجزئيات على مذهب أرسطو . وأما إن النفس حياة وحركة ، فلا يدل قطعاً على بقاء النفوس الانسانية إلا إذا صح أنها كل النفوس،وأن الحركة والحياة لها بذاتها ، وأن مشاركتها فى الحياة بالذات لا يجوز أن تكون مؤقتة كسائر المشاركات . يبقى تعقل المثل ، وهو الدليل الأقوى فيما نرى، فانه ينظر للنفس فى ذاتها لا بالاضافة للبدن والطبيعة ، ويراها روحية تدرك الروحانيات وتتوق إليها ، وتعلم ما بينها وبين المادة من تغاير ، وأن حياتها الخاصة لا تتحقق الا بخلوصها من المادة فى عالم يماثلها ؛ وهذه الفكرة منبثة فى محاورة « فيدون » من أولها إلى آخرها .

فهما يتشكك أفلاطون فى قيمة أدلته ، فان الشك لا يتناول العقيدة نفسها ، وكانت ثابتة عنده من مذهبه بأكمله ، ومما كان يملأ قلبه من إرادة الخير ، إذ يمتنع على من اقتنع بالروح والعقل والفضيلة أن يصدق بفناء النفس وغلبة المادة وبطلان الحياة الانسانية ، ولو لم يهتد إلى البرهان ، بل إن هذا الرجاء وهذا الشوق إلى السماء ، وهذا الأسف الرائع - لأن وحياً إلهياً لم يتنزل (85d) فيحيل الرجاء الجميل يقيناً وطيداً - كل أولئك لا يحمل فى طيه البرهان المبين : هل كان الانسان يطلب الخلود لو لم يكن خالدا ؟

أما مصير النفس بعد الموت فله فيه قصص طويلة ترجع كلها إلى أن الأخيار يلحقون بالآلهة وينعمون بسعادة مقيمة ، والأشرار يلقون قصاصهم فى الجحيم فى بعض المواضع ، ويتقمصون أجساداً حيوانية فى مواضع أخرى ، إلى أن يتطهروا من آثامهم ويعودوا أخياراً. وهو فى جميع تصوراته يصدر عن وجوب التكافؤ بين العمل والجزاء وإيمانه بالعدالة الالهية.

الله

(ا) إن كتب أفلاطون ملأى بذكر الله والألوهية والآلهة ، وإن لفظ الله مشترك عنده بلا جدال ، وقد مر بنا ما يكفى للدلالة على ذلك ؛ ولكنا نصرف النظر مؤقتاً عن هذا الشرك الظاهر ، ونقول إننا نجد عنده جميع عناصر التوحيد واضحة قوية ، فقد رأيناه يضع المبدأ العام : « كل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة » ، ويبرهن على وجود الصانع بالحركة والنظام ؛ فمن الناحية الأولى يقسم العلل إلى ذاتية وقسرية ، ويضيف الذاتية للنفس ، ويرتب النفوس حتى يبلغ إلى نفس عليا يسميها الله ؛ ومن الناحية الثانية يقرر أن النظام من العقل ، وأن العالم منظم فينتهى إلى أن الصانع نفس عاقلة مفعمة بالخير ؛ وهو فى الواقع لا يفهم العلة الحقة إلا على أنها عاقلة ، من حيث إن شيئاً لا يفعل إلا إذا قصد (أو قصد به) إلى غاية ، وإن الغاية لا تتمثل إلا فى العقل ، وعند هذه الصخرة يتحطم كل مذهب آلى .

ورأيناه يضع المثل ، لأنه وجد المحسوسات تتفاوت فى صفاتها ، فدله هذا التفاوت على أن الصفات ليست لها بالذات ، بل هى حاصلة فى كل منها بالمشاركة فيما هو بالذات . وخص بالذكر مثال الجمال فى « المأدبة » ، ومثال الخير فى المقالة السادسة من « الجمهورية » ، فقال عن الأول : إنه علة الجمال المتفرق فى الأشياء ، والمقصد الأسمى للارادة فى نزوعها إلى المطلق ، والغاية القصوى للعقل فى « استدلاله » لا يوصف ، أى لا يضاف له ، أى محمول ، لأنه غير مشارك فى شىء ، ولكن هو هو الاتحاد به تمام الخلود ونهاية الارب ؛ وقال عن الثانى : « فى آخر حدود العالم المعقول يوجد مثال الخير ، هذا المثال الذى لا يدرك إلا بصعوبة ، ولكنا لا ندركه إلا ونوقن أنه علة كل ما هو جميل وخير . هو الذى ينشر ضوء الحق على موضوعات العلوم ، ويعطى النفس قوة الادراك ، فهو مبدأ العلم والحق يفوقهما جمالا مهما

يكن لهما من جمال . هو أسمى موضوع لنظر الفيلسوف ، والغاية من « الاستدلال » تعقله ، وإن جماله ليعجز كل بيان لا يوصف إلا سلباً ، ولا يعين إيجاباً إلا بنوع من التمثيل الناقص . وكما أن الشمس تجعل المرئيات مرئية وتعطيها الكون والنمو والغذاء دون أن تكون هى شيئاً من ذلك ، فان المعقولات تستمد معقوليتها من الخير ، بل وجودها وماهيتها ، ولو أن الخير نفسه ليس ماهية ، وإنما هو شيء أسمى من الماهية بما لا يقاس كرامة وقدرة . اعلم أن الخير والشمس ملكان : الواحد على العالم المعقول ،والاخر على العالم المحسوس». ومقصد أفلاطون واضح هو أن التفسير النهائى للشيء ، هو أن هذا الشيء خير أو مشارك فى الخير ، أى أن العلة الغائية هى العلة الحقة المطلقة .

(ب) وفى المقالة العاشرة من « القوانين » يذهب إلى أنه يمكن تقرير بضعة حقائق عن الله و(الآلهة) ، هى وجوده وعنايته وعدالته ، وأن إنكارها جملة أو فرادى جريمة ضد الدولة يجب أن يعاقب عليها القضاء ، لأن هذا الانكار يؤدى مباشرة إلى فساد السيرة ، فهو إخلال بالنظام الاجتماعى ، وقد ينكر الانسان الله بتاتاً ، وقد يؤمن به ثم ينكر عنايته ، وقد يؤمن به وبعنايته ، ثم يتوهم أنه يستطيع شراء رضائه بالتقدمات والقرابين دون التوبة والنية الصالحة . والبدعة الثالثة أشنع من الثانية ، لأن الاهانة فيها أعظم ، والثانية أشنع من الأولى لنفس السبب ، فان إنكار الله أهون من إنكار عنايته مع الايمان به ، وإنكار العناية أهون من تصوير الله مرتشياً . والأولى والثانية جديرتان بالمراجعة ، أما الأخيرة فأحق بالسخط منها بالتفنيد .

هنا يبين أفلاطون أن للالحاد مصدرين كبيرين : الواحد دعوى الطبيعيين أن العالم وجزئياته بما فيها النفوس نتاج حركة العناصر المادية غير العاقلة ،والاخر دعوى السوفسطائيين أن المبادىء الخلقية وضعية نسبية ، وأن ليس هناك خير وشر بالذات ؛ ثم يمضى فى البرهنة على وجود الله بما سبق بيانه ، وينتقل إلى إنكار العناية الالهية فيقول : إن دليله عند أصحابه نجاح الأشرار ، ولكنهم واهمون ، فان الآلهة إن كانوا لا يعنون بسيرتنا ، فذلك إما لأنهم عاجزون عن ضبط الأشياء ، وهذا محال ، وإما لأن السيرة الانسانية أتفه عندهم من أن تستحق عنايتهم ، وهذا محال كذلك ، لأن كل صانع يعلم أن للجزئيات شأنها فى المجموع فيعنى بها . فهل يكون الله أقل علماً من الانسان ؟ إن ساعة الأشرار آتية لا محالة . أما الشر الطبيعى فما هو فى ذاته إلا نقص فى الوجود ، أو خير أقل ، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصدق بالكذب لم يرده الله ، بل سمح به فداءاً للخير الفائض على العالم ، ويستحيل أن يكون العالم المصنوع خيراً محضاً فيشابه نموذجه الدائم ، هو إذن ناقص ولكنه أحسن عالم ممكن . وعناية الله تشمل الكليات والجزئيات أيضاً بالقدر الذى يتفق مع الكليات ، ونحن نرى الطبيب

يراعى الكل قبل الجزء ، والفنان يدبر أفعاله على مقتضى الغاية ، ويرمى إلى أعظم كمال ممكن للكل ،فيصنع الجزء لأجل الكل لا الكل لأجل الجزء ؛ كذلك حال الصانع الأكبر ،فان كان الانسان يتذمر ، فلأنه يجهل أن خيره الخاص يتعلق به وبالكل معاً على مقتضى قوانين الكل.

(ج) والآن ماذا عسى أن تكون قيمة ما يبديه النقاد من استدراك واعتراض على مذهب أفلاطون فى الله ؟ فقد قيل إن كل شيء عنده إله أو إلهى : المثل،ومثال الخير ، ومثال الجمال ، والعقل،والنفس،والصانع،والعالم،والكواكب ،وآلهة الأولمب، والجن (وهم وسط وواسطة بين الآلهة والبشر،متصفون بالحكمة والخير) ، فأين الله بين هؤلاء الآلهة وما النموذج «الحى بالذات» الحاوى جميع المثل ؟ وما العلاقة بينه وبين الصانع ، ومثال الجمال ومثال الخير ؟ ولم يقرب أفلاطون بينهم ، بل تركهم متفرقين ، وأرسل الكلام على الصانع قصة رمزية تجيز لقائل أن يقول : إن الصانع يمثل ما للمثل من قدرة وعلية فى المادة وليس شخصاً قائماً بذاته — نجيب أننا إذا أهملنا بعض النصوص الضعيفة العارضة واعتبرنا روح المذهب ومبادئه الاساسية لوجدنا أن توحيد الصانع والنموذج ، والخير والجمال ، وسائر المثل فى الله لا يكلف كبير عناء ، فهو الصانع من حيث هو علة فاعلية ، وهو النموذج الحى من حيث هو علة نموذجية يصنع على مثال معقولاته ، وهو : الجمال والخير ، من حيث هو علة غائية تحب وتطلب ، فان الصانع موصوف بالخير ، والخير موصوف بأنه مصدر المثل ، أما باقى الآلهة (وأفلاطون لا يذكر آلهة الميثولوجيا إلا تسامحاً وبشيء من التهكم ظاهر) ، فتبعيتهم لله لا يتطرق إليها الشك : إنهم مصنوعون ، وإن خلودهم منحة من الله ، فهم آلهة باشتراك الاسم فقط ؛ ولقد أتى هذا الاشتراك من اعتقاد أفلاطون أن « مبدأ التدبير إلهى »، فحيثما وجد التدبير والنظام وجد العقل،والألوهية متفاوتة بتفاوت الوجود ، وعلى ذلك فالآلهة الصور أو القوى التى يبدو فيها العقل الأول والاله الحق .

يوسف كرم

الاسكندرية فى أوج عظمتها

للأستاذ أحمد الشنتناوى

ليسانسيه فى التاريخ والآداب وليسانسيه فى الفلسفة والاجتماع

مدينة الاسكندرية إحدى الآثار الخالدة التى خلفها الاسكندر المقدونى أثناء تلك الفتوحات الهائلة التى قام بها فى القارتين : الافريقية ، والأسيوية بقصد توحيد العالم المعروف لذلك الوقت تحت لواء امبراطورية واحدة كبرى تضم أجزاءه وأطرافه ؛ ولكن ذلك الحلم الذهبى لم يلبث أن تلاشى بموت الاسكندر عام ٣٢٣ قبل الميلاد، وتفرقت تلك الامبراطورية الحديثة العهد أشلاءاً وأجزاءاً ، وكانت مصر نصيب بطليموس بن لاجوس أحد قواد الاسكندر المقربين لديه ، وغدا هذا الرجل صاحب الصولة والسيطرة فى مصر . وكانت شهرة مصر الوحيدة فى ذلك الوقت أنها كانت الموردة الاولى والوحيدة لورق البردى لجميع جهات العالم القديم . فكان هذا الاحتكار مصدر أموال جمة تمكن بواسطتها بطليموس من تحقيق ما كان يحلم به ، أى من تأسيس ملك قوى يقوم على دعائم ثابتة من العلوم والآداب .

وقد كان مركز مصر وتوسطها بين العالم القديم فى الحقيقة سبباً من أسباب نهوضها لأنها كانت تستقى من جيرانها كل جديد من الفن والحضارة ، ثم كانت هى من جهة أخرى تفيض على العالم نوعاً طريفاً من الحضارة المصرية ، هو خلاصة تلك الحضارات العدة المجاورة ، ولكنها خلاصة طلية جديدة بكل معانى الجدة ، عليها الطابع المصرى الخاص دون أن يكون هناك أى شذوذ أو عدم تناسق بين أجزائها وفصولها ؛ ثم كان دخول الاسكندر مصر وتأسيسه لمدينة الاسكندرية ، فغدت بعد فترة قصيرة إحدى الفرض العظيمة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، فأخذت تنافس بموقعها قرطاجنة الهائلة ، وامتدت صلاتها التجارية إلى أطراف العالم القديم كنواحى الهند ، وبلاد العرب ؛ وقدر للأسكندرية أن تنتعش بعد موت مؤسسها حتى بلغت أوج مجدها وعزها فى عهد الامبراطورية الرومانية ، وبالأخص إبان حكم أمبراطرتها الأول الأماجد .

شعرت مصر باستتباب الأمر فيها تحت البطالسة والحكام الاغريق ، ووجدت فى مصر حكومة ديدنها التسامح ، والعمل لما فيه مصلحة الأهلين ، فشعرت أنها كسبت حقاً بانضمامها تحت اللواء الاغريقى ، فكان ذلك سلواها بعد أن فقدت استقلالها ، وفى الحقيقة كانت مصر تعتبر أنها هى التى غزت البطالسة وضمتهم إليها ، ولم تكن هى التى انضمت تحت اللواء المقدونى . وقد

ظهرت هذه الحقيقة واضحة جلية في كل مظاهر العمران التي تفتحت عقب هذا الانضمام ، إذ نرى ـ مثلا ـ أن بطليموس رأس الحكومة قد تميز عن غيره من الحكام الاغريق الذين يحكمون باقي أنحاء امبراطورية الاسكندر ؛ فهو في مصر قد غدا فرعوناً لا يختلف عن الفراعنة المصريين الذين تبوأوا عرش مصر من قبله في شيء، وقد استلزم ذلك ـ دون شك ـ اصطباغ جميع مرافق الحكومة بالصبغة الفرعونية، بعد أن كان المنتظر أن تسود النظم الهيلانية في مصر جميع النظم الأخرى المعروفة، وأصبح النظام السياسي والاداري في مصر هو تكملة لنظام الحكم الذي كان سائداً إبان الفراعنة: تحتمس أو رمسيس أو غيرهما .

بعد ذلك ننظر إلى مدينة الاسكندرية نفسها ، فنجد الأمر فيها يختلف عن باقي جهات مصر ، فانها ـ بالنسبة لصلاتها التجارية المتواصلة مع أنحاء العالم الاغريقي ، ثم لوجود البلاط البطليموسي بها ـ كانت مدينة إغريقية بكل معاني الكلمة ، إذ كانت اللغة الاغريقية والنظم الهيلانية هي التي تسود البلدة في جميع نواحيها، لأن بطليموس ـ بلا شك ـ كان يحن إلى ثقافته وتعاليمه الاغريقية ،ولو أنه يعمل جهده في عدم إشعار المصريين أن على رأس الحكومة المصرية ملكا غريباً عن البلاد وعن عاداتها وتقاليدها ، لذلك كانت اللغة الاغريقية هي لغة العلم والثقافة في مصر كلها، حتى أن الجالية اليهودية التي كانت تقطن الاسكندرية ـ وهي موفورة العدد والنفوذ ـ قد اضطرت إلى ترجمة كتبها المقدسة إلى اللغة الاغريقية ، بل إن الكثيرين منهم نسى لغته العبرية ولم يعد يفهم غير الاغريقية ، وبالجملة لم تكن سيطرة اللغة الاغريقية مقصورة على مصر وحدها ، بل كانت سائدة بوجه أعم في النصف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

وكان بطليموس الأول ذا كفايات علمية نادرة ، وقريحة حاضرة ، وذهناً متوقداً ، أخذ على عاتقه نشر تعاليم أرسطو حسبما سمعها وفهمها من بلاط مقدونيا، حيث كان أرسطو يهذب ويعلم الاسكندر الأكبر ابن ملكها فيليب المقدوني. وكان أول خطوة خطاها بطليموس في سبيل تحقيق ذلك الغرض هو تأسيسه لمتحف الاسكندرية . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن لكلمة متحف « Museum » هذه معنى آخر غير ذلك المعنى الذي نفهمه منها في العصر الحاضر ، فانها كانت تدل ـ عند العالم الاغريقي القديم ـ على المعبد الذي تبجل وتعظم فيه آلهة الفنون والاداب، وبالأخص آلهة الشعر، والموسيقى، والأدب فقد، كان يوجد مثلا في المعهد ـ الذي أسسه أرسطو للفلسفة في أثينا ـ قسم لهذا الغرض المذكور آنفاً، كما أن بطليموس قد استعان في تشييده لهذا المتحف ، والمكتبة الملحقة به ، بأحد اليونان اللاجئين إلى بلاطه ، وكان ممن اشتهروا بالاداب والفلسفة ويدعى ديمتريوس، وهذا بدوره جعل من مدرسة أرسطو والمتحف في أثينا أنموذجاً يأخذ عنه في تشييده لمتحف الاسكندرية ومكتبتها .

ابتدأ العمل فى بناء المتحف فى عهد بطليموس الأول ، ولكنه لم يتم إلا فى عهد ابنه بطليموس فيلادلف ٢٨٥ — ٢٤٧ ق . م ، الذى اشتهر بحبه للآداب وعلم الحيوان ؛ وكان عبارة عن بناء هائل ملحق بالقصر الفرعونى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط بالاسكندرية، وقد ذكر استرابو عند زيارته للمتحف عام ٢٤ ق.م ، أنه كان يتألف من صالة كبرى تحوطها أروقة تشابه أروقة معهد أثينا ، وكان رئيس المتحف ينتخبه ملك مصر بنفسه،وكان لقبه الرسمى « كاهن آلهة الاداب »،ولقد حبب بطليوس ـ للعلماء اليونان والفلاسفة ـ الرحيل إلى الاسكندرية ونشر أبحاثهم ،وتعاليمهم تحت اسم المتحف الاسكندرى،وكان ينفق عن سعة على هؤلاء العلماء ، ويجرى عليهم أرزاقهم موفورة محترمة،لذلك كان المتحف أشبه شىء بمجمع للعلماء الذين انقطعوا للعلم والدرس ، وغدا الحال على هذا المنوال حتى عام ٣٠ ق . م ، إذ أصبح المتحف تابعاً للحكومة الرومانية ، وهى التى تتولى صرف أرزاق العلماء والفلاسفة الذين يعملون فيه .

وكان بجانب هذا المتحف مكتبة هائلة ضمت بين جوانبها أغلبية المؤلفات التى كانت معروفة لذلك العهد،إذ يذكرون أنه كان بها ـ فى عهد بطليموس فيلادلف أى الثانى ـ خمسمائة ألف مؤلف ، وقد وصل هذا العدد إلى سبعمائة ألف مؤلف عام ٥٠ ق.م،وكان لهذه المكتبة شهرة عالمية فائقة ،إذ كانت أ كبر مكتبة فى ذلك الوقت،بل كانت عبارة عن دائرة المعارف الوحيدة التى يلجأ إليها كل من التوت عليه مسألة من المسائل،أو بحث فى أى فن من الفنون،فيجد بها ما يشفى غليله من المؤلفات التى جمعت من جميع نواحى المعمور.ولا نزال نقرأ فى كتب التاريخ عن الوسائل العدة المختلفة التى لجأ إليها ملوك مصر فى ذلك العهد،لأجل جمع المخطوطات النادرة، فانهم كانوا يتصيدون المخطوطات تصيداً ، ويبثون العيون لأجل البحث عن الكتب التى لا توجد منها نسخ فى مكتبة الاسكندرية ، وكانت العادة الجارية أن يحتفظ البطالسة بالنسخة الأصلية ، ويعطوا صاحبها نسخة أخرى تنقل عن النسخة الأصلية ، لذلك وجد فى المكتبة عدد وافر من النساخ انقطعوا لهذا العمل وتخصصوا فيه . وقد اهتم مدير المكتبة ، وكان يدعى (Callimachus) بوضع فهرس شامل لجميع ما تشتمل عليه الدار من مخطوطات ومؤلفات .

ولم تكن المؤلفات فى ذلك العهد البعيد على مثال ما نعهده اليوم من حيث الشكل والحجم، بل كان الكتاب عبارة عن مجموعة هائلة من رقاع البردى ملفوفة معا ، لذلك كانت مهمة القارىء عسيرة شاقة،وبالأخص إذا أراد الرجوع إلى نص،أو عبارة سابقة مرت عليه بين أوراق المخطوط، وقد حدا هذا بمدير المكتبة إلى أن يقسم الكتب المطولة كتاريخ هيرودوت مثلا إلى كتب منفصلة لسهولة حفظها ، وتوفير لعناء القارىء ، ولقد جذبت المكتبة إليها عدداً كبيراً من طلاب العلم يفوق بكثير العدد الذى أتى للاستفادة من علماء المتحف ، وأساتذته ، وازدحمت

الاسكندرية بهذا العدد الوافر من الطلاب ، وغدا وجودهم فيها سببا من أسباب انتعاش حركة الرزق والتجارة بها .

وبالجملة فقد كانت المكتبة والمتحف منار العلماء والمتأدبين فى ذلك الوقت ؛ غير أن ذلك النور لم يرسل شعاعه إلا إلى حد محدود، وذلك لعدم استطاعة كل شخص ـ يريد العلم ـ الرحيل إلى الاسكندرية ليرتشف من مناهلها العلمية ؛ ولم تكن هناك وسيلة أخرى يتمكن بواسطتها القاصى والدانى من تلقى العلم كطريقة المراسلة المعروفة اليوم مثلا ، ولا يمنع هذا أنه كان بالاسكندرية بجانب المكتبة الكبرى عدة مكتبات أخرى صغيرة أهمها مكتبة السرابيوم التى كانت تحتوى على نحو ٤٠ ألف مخطوط ، وكان فى مكنة طالب العلم أن يشترى بعض المؤلفات والرسائل من بعض المكتبات الصغيرة بأثمان معتدلة ، وعلى الجملة فقد كان العلم محجوباً عن الطبقة الدنيا من الناس الذين شغلوا ـ بمتاعب الحياة ، والبحث عن الرزق ـ عن كل شىء آخر .

وبالرغم من الحاجة الماسة إلى طلب العلم ؛ فإن القوم فى ذلك الوقت لم يحاولوا قط الاستفادة من أسس فن الطباعة التى كانت معروفة منذ أجيال سابقة ؛ فإن إنسان العصر الحجرى مثلا كان يقوم بطبع الصور والرسوم على ملابسه الجلدية ، كذلك كانت الأختام قد عرفت، وهى تحمل فى طياتها أسس فن الطباعة ، وقد كانت الصين أول من بدأ فى تطبيق هذا العلم على العمل ، إذ أخذت فى طبع كتبها القيمة منذ القرن الثانى للميلاد ؛ وربما يرجع السبب فى عدم انتشار فن الطباعة فى ذلك الوقت إلى معارضة أصحاب العبيد الذين يقومون بعملية النسخ فى المكتبات خوفا من انقطاع أرزاقهم، وقد يرجع ذلك إلى عدم اتصال النظام الاجتماعى بين رجال الفكر الذين يقومون بتأليف الكتب، وبين رجال الأعمال الفنية الذين يمكنهم تنفيذ فكرة الطباعة عملياً ، ولعل السبب الأهم فى عدم انتشار فن الطباعة ، هو عدم وفرة المواد الصالحة للطباعة كورق البردى ، أو وجودها بشكل لا يلتئم مع المطلوب؛ ولكن لا يقوم كل هذا عذراً قويا أمام عدم انتباههم قطعيا لطبع بعض الصور التفسيرية أو الرسوم البيانية التى قد تعين القارىء على تفهم ما يقرأ .

وعلى الجملة فقد كانت الاسكندرية ـ إبان عهد البطالسة ٣٢٣ـ٣٠ ق.م ـ مركزاً للثقافة والعلم الاغريقى، ولقد اشتهرت بالابحاث الرياضية والجغرافية التى قام بها علماء المتحف، ويكفى أن نذكر اسم اقليدس، وكلنا يعرف هندسته ونظرياته (وإراتوستين Eratosthenes) وهو أول من حاول أن يقيس قطر الأرض ، وقد نجح فى ذلك نجاحاً باهراً بحيث إن تقديره لم يقل عن الحقيقة إلا بمقدار خمسين ميلا فقط، كذلك أدخل عدة إصلاحات على التقويم بقصد تحديد تواريخ بعض الحوادث الهامة الماضية، كما أنه كتب رسالة فلسفية فى طبيعة الخير والشر، كذلك

برع إراتوستين فى الأدب والشعر ، فقد كتب أشعاراً مطولة استمد موضوعها من الميثولوجية الاغريقية القديمة ،كما أنه يعد من بين مؤسسى علم الجغرافيا الحديث .

أما فى ميدان التاريخ فقد ظهر فى عهد بطليموس الأول مؤرخ مصرى يدعى مانيتو كان أحد رجال البلاط البطليموسى ، وهذا تمكن من وضع تاريخ لمصر القديمة ، مستعيناً على ذلك بالمستندات الرسمية الموجودة بالقصر الملكى ، والتى لم يتوصل إليها أحد قبله من المؤرخين ، وقد ظل تاريخه مصدراً هاماً للمؤرخين الذين كتبوا عن مصر بعده . كذلك كان للاكتشافات الجغرافية حظ موفور فى ذلك العهد ، وقد ساعد على ذلك وجود الأسطول المصرى العظيم الذى خفقت أعلامه فى جميع البحار المعلومة لذلك الوقت ،وقد وصل الأميرال المصرى فيلو إلى بلاد إيثوبيا ووضع مؤلفاً نفيساً عن تلك البقاع ، ولقد تبعه فى ذلك الأمر باقى أمراء البحر الذين أتوا بعده ، إذ وضع كل منهم مؤلفاً عن الجهات التى وصل إليها بسفنه ، ولا تنس أن اكتشاف الرياح الموسمية فى المحيط الهندى يرجع الفضل فيه إلى رجال البحر المصريين الذين ظهروا فى عهد دولة البطالسة ؛ وقد ظهر بجانب هؤلاء علماء آخرون كتبوا فى نواحى العلم المختلفة رسائل قيمة ، مثل أبولونيس الذى كتب عدة رسائل قيمة عن القطاعات المخروطية ، ثم هيباركوس وهو أول من حاول أن يرسم خريطة للسماء وما بها من كواكب ونجوم ، والتغيرات التى تطرأ على أماكنها من وقت لآخر ، ووضع هيرو (Hero) تصميم أول آلة بخارية . ولقد استرعت هذه الاكتشافات العلمية نظار العلماء من جميع بقاع الأرض ، لذلك نجد أرشميدس الطبيعى المشهور يرحل إلى الاسكندرية بغية الدرس والتحصيل ، وقد غدا مراسلا خارجياً للمتحف بعد مغادرته للاسكندرية كما يفعل الأعضاء الأجانب المنتمون لمجمع العلماء الفرنسى فى الوقت الحاضر . كذلك اشتهرت مدرسة الطب بالاسكندرية ، إذ كانت أول مدرسة من نوعها فى العالم ، ويذكرون أن هيروفيلوس أشهر علماء التشريح فى الاسكندرية كان يجرى تجاريبه وأبحاثه على جثث المجرمين ، مع أن الكثيرين غيره من العلماء أنكروا هذا العمل إذ كانوا يكتفون بعلم العقاقير والوصفات الطبية .

إلا أن هذه الحركة العلمية المباركة قد خبا لهيبها فى أقل من قرن من الزمان لأن ، نظام المتحف نفسه لم يكن بحيث يكفل له البقاء والخلود طويلا ، لأنه كان بمثابة معهد ملكى ، فأساتذته كان ينتخبهم فرعون مصر بنفسه ويدفع هو رواتبهم وأرزاقهم ، وهذا بخلاف الحال فى مدارس أثينا ومعاهدها إذ كانت تتمتع بالروح الديمقراطية وباستقلالها عن كل سلطة فردية تتحكم فيها ، لذلك كانت أكثر ثباتاً ودواماً من مدارس الاسكندرية ومعاهدها . ولقد استفادت مدارس الاسكندرية ومعاهدها حقاً من رعاية ملوك مصر لها ، ولكن تلك الاستفادة لم تكن منتظرة إلا من ملك قوى محب للعلم والآداب أمثال بطليموس الأول أو بطليموس فيلادلف ؛ ولكن

من يضمن لنا بقاء تلك الروح العالية فى نفوس الفراعنة أجمعين ؟ . ثم لم تلبث أن طغت سلطة الكهنة فى مصر على سلطة الفراعنة فاضمحل المتحف وخفتت أصوات أساتذته وعلمائه ؛ أما المكتبة فقد أصابها الحريق عدة مرات، وأهم وأكبر حريق أصابها كان عام ٤٧ ق . م عند ما أشعل يوليوس قيصر النار فى الأسطول المصرى الراسى بميناء الاسكندرية ، ثم بعد ذلك أهملت المكتبة بالتدريج وقلت عناية الفراعنة بها تدريجياً حتى تلاشت من عالم الوجود قبل منتهى القرن الثالث للميلاد ، فلم تكن هناك بالاسكندرية مكتبة عند دخول العرب مصر على يد عمرو بن العاص ، وقد أصبح الآن خبر إحراق تلك المكتبة، على يد عمرو بن العاص - بأمر عمر بن الخطاب - حديث خرافة لا يقوم على أى أساس من الصحة . أما المكتبة الأخرى التى كانت محفوظة بالسرابيوم فقد دمرها المسيحيون عام ٣٩١ من الميلاد . وكانت الاسكندرية كذلك خلاف ما ذكرنا مركزاً لتبادل الاراء الدينية، إذ كانت المخطوطات المحفوظة فى المكتبة والمتحف تضم بين دفتيها بذور مذهب أرسطو والروح الهيلانية، ثم عنصراً قويا من الحضارة المقدونية . ثم كان بجانب ذلك عدد عظيم من اليهود نزحوا إلى مصر من جهات فلسطين، ولا يمنع هذا أنه كان بمصر قبل نزوح هؤلاء عدد آخر من اليهود غير قليل، ظل بمصر ولم يرحل إلى بيت المقدس عند هجرة هـذا العنصر من مصر مع نبيهم موسى . وكان هؤلاء اليهود يقطنون قسما كبيراً من الاسكندرية، بل كانت الاسكندرية فى ذلك الوقت المدينة الأولى التى تضم أوفر عدد من اليهود بحيث فاق عدد اليهود فيها عددهم فى بيت المقـدس نفسها ، وقد رأينا كيف نقل هؤلاء اليهود كتبهم المقدسة من العبرية إلى الاغريقية . وكان بجانب هؤلاء عدد عظيم من المصريين أصحاب البلاد يتكلم أغلبهم اللغة الاغريقية ، ولـكنهم كانوا عنصراً محافظاً على تقاليده وعقائده وطقوسـه التى تغلغلت فى نفوسهم منذ أربعين قرناً خلت من الزمان .

ومن هذا يتبين أنه اجتمع فى مصر وبالأخص بمدينة الاسكندرية ثلاث عقليات متباينة الطباع والعادات، وهى على الجملة العناصر التى كانت تمثل الجنس الأبيض فى ذلك الوقت، ونقصد بها : العنصر الارى اليونانى الذى اشتهر بعقليته الجبارة الناقدة للأمور، ثم العنصر السامى اليهودى ، وهم أصحاب كتب منزلة وعقيدة خاصة لا يتزحزحون عنها، ونقصد بها عقيدة التوحيد (Monotheism)، أما العنصر الثالث فهم المصريون، ولهم طقوسهم وديانتهم المعروفة التى تجلت فى معابدهم الضخمة ومذابحهم العدة .

هذه هى العناصر الثلاثة الهامة التى كانت تتألف منها مدينة الاسكندرية . ولا يغيب عن أذهاننا كذلك أنه كان يوجد فى الأسواق وفى ميناء البلدة عدد آخر من الأجناس الأخرى المتباينة النظم والعادات، حتى أن طائفة من البوذيين تركوا الهند واستوطنوا الاسكندرية بقصد التبشير بديانتهم ومذهبهم. . . . !

وفى وسط هذا البحر العجاج من الاختلاط الجنسى والدينى أخذ الناس يشعرون أن تعدد الالهة ما هو إلا تعدداً اسميا فقط لكائن واحد هو مصدر ما فى الوجود من كمال وخير، فهو عند الرومان الاله جوبيتر، وعند اليونان الاله زيس (Zeus) وعند البابليين الاله مردوخ، وهو عند المصريين آمون إله السماء والأرض. وقد يشتق من كل إله من الآلهة السابقة الذكر عدة آلهة أخر، هى بمثابة النواحى المختلفة للاله الواحد، مثل الآلهة أزوريس وآبيس من آلهة المصريين، لهذا كان هم بطليموس الأول أن يوحد بين تلك الآلهة المتعددة، ولذلك بنى معبد السرابيوم وخصصه لعبادة الاله سيرابيس وهو مزيج موحد لآلهة المصريين واليونان.

ثم نلاحظ كذلك أن فكرة الخلود بدأت تظهر فى ذلك الوقت لأول مرة وتصبح مركزاً للمعتقدات الدينية المختلفة، ويرجع الفضل فى إظهار تلك الفكرة الدينية إلى المصريين حيث كانوا يعتقدون فى هذا الأمر اعتقاداً راسخاً، وقد أخذت هذه العقيدة مكاناً واضحاً فى عبادة الاله سيرابيس السابق الذكر، وهذا بدوره انتشرت عبادته فى جميع نواحى العالم المتمدين فى ذلك الوقت، أى حوالى القرنين الثانى والثالث للميلاد؛ ولقد كان لهذه العبادة أثر جلى فى الدين المسيحى عند ظهور المسيح عليه السلام.

ولقد ظلت الاسكندرية هكذا مزدهرة بالعلوم والاداب ردحاً طويلا من الزمن إلى أن دالت دولة البطالسة وابتدأ نجم الأمبراطورية الرومانية فى الظهور، فاكتفى الأمبراطرة الرومان بأن جعلوا مصر بأجمعها عبارة عن مخزن للحبوب يمد روما — عاصمة الامبراطورية — بالغلال، فخمدت تلك الروح العلمية فى البلاد، وانتقلت تلك الحركة الهائلة من الاسكندرية إلى روما. فسبحان الذى يغير الأمور من حال إلى حال وهو باق لا يتغير؟

أحمد الشنتناوى

فلسفة الحقوق الجزائية

بقلم ايزاك موسى شموس (حلب)

— تتمة —

***

أجملنا في العدد السابق من « المعرفة » الغراء، النظريات المدرسية الاربعة، التي عرفتها فلسفة الحقوق الجزائية إلى عهد غير بعيد، وبودنا اليوم أن نطلعك على النظريات الحديثة التي تتنازع البقاء في الوقت الحاضر وتثير الجدل من حولها في المجلات والصحف والاندية الحقوقية.

— ١٥ —

نشأ في واخر القرن التاسع عشر، على ضفاف « التاميز » و « السين » و « البو » علم حديث لم يلبث أن انتشر في جميع أقطار العالم باسم « علم الهيئة الاجتماعية » (Sociologie) وقد بدا عليه — ولما يتجاوز سن الطفولة — طموح غير متناه لبحث كل ما له مساس بحياة الهيئة الاجتماعية، ولهذا لم يقصر بحثه على ناحية من نواحي الحياة بل مد يده إلى كل علم، وأدخل تحت سيطرته، حتى الحقوق، والحقوق الجزائية بصورة خاصة.

وطلع علينا علماء «السوسيولوجيا» بنظرية في فلسفة الحقوق الجزائية، دعوها «النظرية التطورية» (Théorie évolutiouniste) أرادوا بها أن يتمثلوا الحقوق كمرآة صقيلة، تتراءى على صفحتها الملساء جميع التطورات التي تطرأ على حياة الهيئة الاجتماعية.

ولاحظوا أن لكل جماعة من الجماعات البشرية طرازاً خاصا في تفهم الحياة ومعالجتها وأن طرق التفكير تختلف كلما اختلفت الحدود والقوميات والاجناس وأن هذه الطرق نفسها، على جانب كبير من الشبه في شعب واحد، أو قوم واحد، فاستنتجوا من ذلك أن الجماعات البشرية أجسام حية، وأن حياتها مستقلة من جهة عن حياة أفرادها، ومرتبطة بها من جهة ثانية.

ولم يقف بهم البحث عند هذا الحد، بل استنتجوا من النتيجة السابقة حقيقة ثانية،

على جانب عظيم من الاهمية : مادامت الجماعات البشرية أجساما حية ، وما دامت هذه الحياة مستقلة عن حياة أفرادها ، فقد وجب أن يكون لهذه الجماعات ما لأفرادها من حقوق ، وأول هذه الحقوق وأهمها، حق الحياة !!!

ولكن ، قد يعتدى على هذا الحق فرد من أفرادها ، أو فرد من جماعة غيرها ، فهل يتحتم عليها ، أن تقف من هذا الاعتداء ، موقفاً سلبيا ؟؟؟

كلا ! العقل يوحى إليها ، والمنطق يؤيده ، أن حق الدفاع مقدس كحق الحياة ، بل هو أقدس منه بكثير ؛ إذن : يحق للجماعات البشرية أن تقتص من المعتدين ، وأن تعاقبهم كلما عاثوا فيها فساداً !

ولكن ، إلى أى حد يجب أن تبلغ هذه العقوبة ؟

ينكر علماء السوسيولوجيا على الجماعات البشرية حق الثأر ، وينكرون عليها قدسية عاطفة الانتقام ، كما كان يفهمها الاولون، ويقررون ـ فى غير إبهام ولا غموض ـ أن للجماعات حق الدفاع ، وأن هذا الحق يجب أن لا يتجاوز حد منع الشر ، أى أنه لا يحق لأحد أن يعاقب معتدياً إذا كان واثقاً أن هذا المعتدى لن يتكرر عمله مرة ثانية !!!

وهذه النظرية تشبه من نواح متعددة النظرية المدرسية التى دعوناها « نظرية المصلحة العامة » ، ولكنها تفوقها من حيث دقتها فى الملاحظة ، والطريقة العلمية التى اتخذتها للبحث عن المستند العقلى ، الذى يخول الجماعات البشرية حق الاقتصاص من المعتدين .

— ١٦ —

وبينا الطريقة العلمية التجريبية تتناول المعارف البشرية بالبحث والتمحيص ، لتظهر مافيها من فاسد وصحيح ، إذا بالدكتور « لومبروزو » (Dr. Lombrozo) العالم السوسيولوجى الايطالى الشهير ، يقبع فى مكتبه ، ويستسلم للتفكير !

أخذ يسائل نفسه : لماذا لا تعتنق هذه الطريقة فلسفة الحقوق الجزائية ؟ هل هنالك ما يحول دون تطبيقها ؟؟؟

قلب البحث على جميع وجوهه ، فلم ير ما يمنع بحث العلوم القانونية ـ ولا سيما الجزائية منها ـ بالطريقة العلمية التجريبية ، التى ينبغى أن لا نثق بغيرها ، إذا أردنا أن يكون بحثنا مجدياً خصباً .

وهكذا لم يمض زمن يسير حتى تقدم فى عام ١٨٧٦ ميلادية بمؤلفه القيم عن « الانسان المجرم » (L'homme criminel) ، وفيه نظريته المعروفة باسمه ، والتى شاء أن يدعوها « النظرية الانتروبولوجية » (Théorie anthropologique) ، وخلاصتها : أن الجريمة تنشأ عن خلل « فسيولوجى » ـ تشريحى ـ فى الجسم !

ويؤكد الدكتور « لومبروزو » أننا إذا استطعنا أن نستأصل هذا الخلل فاننا نستأصل فى الوقت ذاته الجريمة من أساسها !!!

ولاحظ أن أكثر السارقين لهم أيدطويلة وأنوف قصيرة ، وذلك بعكس المجرمين القاتلين، فان أيديهم قصيرة وأنوفهم شبيهة بمنقار الطيور الجارحة ...

وهذه النظرية تنفى عن المجرم كل مسؤولية ، لأنها تنفى عنه الحرية فى العمل ، ومن مبادىء الحقوق الاساسية ، أنه حيث لا حرية لا مسؤولية ، فالمجرم ـ فى نظره ـ مريض تجب مداواته ، ولا يحق للجماعات البشرية أن تعاقبه ، لأنه مجبر فى أعماله غير مخير ، وكل ما يمكن أن تعمله لتقى نفسها من خطره ، هو أن تتخذ أسباب الوقاية ، أى أن تتيقظ منه ، وأن تسعى لتطبيبه ومداواته متى ظهرت عليه دلائل الخلل الذى يدفع المصابين به إلى الأجرام والقتل .

— ١٧ —

وصادفت نظرية « لومبروزو » رواجاً عظيما فى أوروبا ، ولكن المتشرعين أبوا ـ مع اعترافهم بصحة قسم كبير منها ـ الالتجاء اليها فى وضع قوانين الجزاء . وكأنما هذه النظرية حسرت النقاب عن سر الاجرام ، فقام « فيرى » (Ferri) يدرسها ويبحثها ، وإذا به يعتقد أن سر الاجرام يجب أن لا يلتمس فى علم « الفسيولوجيا » ، بل فى تأثير البيئة الاجتماعية التى يحيا فيها المجرمون .

ولم يلبث أن انضم اليه ثلاثة من كبار علماء التشريع الجنائى فى إيطاليا ، هم: « غاروفالو » (Garofalo) و « تارد » (Tarde) و « أنريكو » (Enrico) ، وإذا بهم ينقدون نظرية الدكتور « لومبروزو » وينسبون الاجرام إلى سبب رئيسى هو المحيط الذى ينشأ فيه المجرمون.

ولفت أنظارهم أن أكثر المجرمين من المدمنين على السكر والقمار ، وأن أغلبيتهم الساحقة من الفقراء المعوزين ، فطلبوا إلى المتشرعين أن يحاربوا الميسر ، وأن يزيلوا بعض أسباب الفقر المدقع ، بانشاء النقابات وجمعيات البر ، إذا أرادوا أن يستأصلوا الاجرام من جذوره .

ولاقت هذه النظرية من الرواج ما لم تلاقه نظرية قبلها ، فقامت الحكومات تنشىء ملاجىء للعجزة ، ومستشفيات للمرضى ، وصناديق لتخفيف وطأة البطالة ، وأصدرت العقوبات الصارمة للمدمنين على السكر والقمار .... وإذا الاجرام تقل نسبته ، وإذا « النظرية الاجتماعية Théorie sociologique » تكتسح سائر النظريات ، وتدخل جميع القوانين !!!

— ١٨ —

وعلى أثر ذلك تألفت فى إيطاليا مدرسة حديثة ، دعت نفسها « Terza Scnola » أخذت

من النظريتين السابقتين قسما هاما ، ورمت بالقسم الباقى عرض الحائط : وإذا بها تطلع علينا بنظرية جديدة قد يكون لها من الصحة سهم وافر .

وتتلخص هذه النظرية فى البحث عن حرية الانسان فى العمل ، وعن مقدار هذه الحرية فى افتراض وجودها ؛ وينتهى البحث بنتيجة لعلها أميل ما تكون إلى إنكار هذه الحرية ، والاعتقاد ـ بطرف خفى ـ بالنظرية الجبرية التى تريد الانسان آلة يفعل ما يراد ، لا ما يريد .

وقد يتوهم الانسان ، فيحسب نفسه حراً فيما يفعل ، وحراً فيما لا يفعل ، وقد يحتج على ذلك بأنه عند ما أقدم على العمل الفلانى كان مسيراً بمصلحته الخاصة ، وإلا لما أقدم عليه ، كما أنه لم يأت العمل الفلانى لأنه يعارض مصلحته . وهذا وهم لا تريد المدرسة الايطالية الحديثة أن تقع فيه ، وإن كان يقع فيه كثير من المفكرين والفلاسفة .

ولعلها على حق فى نظرتها هذه إلى حرية الانسان ، ومن يبحث نظريتها لا يتردد لحظة واحدة عن تأييدها ، فالانسان قد يرى نفسه حراً فى بعض الأحيان ، وقد يرى نفسه مقسوراً فى أحيان أخرى ، فكيف نشرح ذلك ؟

وكيف تعلله المدرسة الايطالية الحديثة ؟

بكل سهولة ! . . . يظن الانسان نفسه حراً فى حالة واحدة ، عند ما يكون العمل الذى يفعله يوافق مصلحته الشخصية ، ومشيئة « القوة » التى تسيره ... وهذه الموافقة تجعله يتوهم أنه حر فى أعماله .

أما إذا تعارضت المشيئات ، فهنالك الشعور المر بالجبرية وبالقسر وباللاحرية !!!

وتنكر هذه المدرسة النظرية القائلة بأن بعض الناس يولدون « مجرمين » ، وتعتقد كعلماء السوسيولوجيا أن الجريمة ثمرة البيئة ، وأن المحيط الفاسد ، هو الذى يخلق للعالم المجرمين .

وههنا تلتقى مع كثير من النظريات السابقة ، ولكنها لا تلبث أن تفترق عنها بالنتيجة التى تقررها ، وتتخذها برنامجا لها .

تريد المدرسة الايطالية الحديثة أن يكون للعقوبة غايتان : الأولى إصلاح نفسية المجرم عن طريق إصلاح البيئة والمحيط بنشر العلم والأخلاق ، وتخفيف وطأة الفقر والبطالة . والثانية معاقبة المجرم ، لا لأنه مسئول عن عمله ، ما دامت لا حرية له فى العمل ، بل ليكون عبرة لغيره .

وأنت ترى أن غاية العقوبة الأولى وجيهة كل الوجاهة ، بعكس الغاية الثانية ، فانها ضعيفة لا تكاد تحتمل أقل جدل أو مناقشة .

وما دمنا نبحث عن القانون العقلى الذى يخول للبشر حق الاقتصاص من بعضهم عند ما يعتدى بعضهم على بعض، حرى بنا أن ننصف العقل، فنقرر فى غير غموض ولا إبهام أن غاية العقوبة الثانية لا يجيزها العقل ، ولا يمكن أن يقبلها منطق ، إذ ما دمنا لا نستطيع أن نعاقب المعتدى لما أتاه من الاعتداء ، لأنه غير مسئول عن عمله ما دام مسيراً غير مخير ، فهل يجوز أن نعاقبه من أجل غيره ؟

وهل يجوز أن نعاقبه ليكون عبرة لغيره ، وجريمة هذا الغير قد تنشأ عن أسباب لا يمكن التكهن بها ؟ وقد يجوز أن لا يعتبر هذا الغير بالعقوبة التى ننزلها بالمعتدى الأول ، فعلى حساب من يجب أن نقيدها ؟؟؟

وقد طلبت هذه المدرسة إلى المتشرعين « تشخيص » العقوبة « Individualisation de la peine » ، أى أن لا تكون العقوبة واحدة إزاء عمل واحد ، يأتيه عدة أشخاص ، فلا بد من النظر إلى حالة المعتدى ، والبحث عما إذا كان اعتداؤه ناجماً عن ظروف استثنائية قاهرة لا يمكن إلا الرضوخ لها ، أم إذا كان معتاد الاجرام، وفى الحالة الأولى تطلب تخفيف العقوبة بتطبيق الأسباب والظروف المخففة ، وتطلب التشديد فى تطبيق العقوبة فى الحالة الثانية بتطبيق الظروف المشددة .

— ١٩ —

وفى هذا الخضم الزاخر بالنظريات المتضاربة غرق المتشرعون ، وأخذت الأمواج المتلاطمة تتجاذب القوانين، فتنتصر هذه مرة، وتخفق تلك مرات، وإذا بثلاثة من كبار المتشرعين فى العالم يبحثون فى وجوب إنشاء جمعية تجمع شمل علماء القانون ، وإذا هذه الجمعية يؤلفها الأساتذة : « برنس Prins » (أستاذ القانون الجزائى فى جامعة بروكسل) ، « وفون ليتز Von Litz » (أستاذ القانون الجزائى فى جامعة الحقوق ببرلين) و« فان هامل Van Hamel » (أستاذ القانون الجزائى فى جامعة الحقوق بأمستردام) .

تم ذلك عام ١٨٨٩ ، واتخذت هذه الجمعية لها اسماً : «الاتحاد الدولى للحقوق الجزائية» ، ووضعت لنفسها برنامجاً واسعاً يرمى للتوفيق بين النظريات المدرسية الأربعة والنظريات الحديثة.

واعتنقت هذه الجمعية الطريقة العلميــة التجريبية ، وطلبت إلى الحكام أن لا ينظروا إلى الجريمة من حيث هى جريمة فقط ، بل من حيث هى ثمرة البيئة والمحيط والظروف ...!!!

وأرادتهم (أى الحكام) على التمييز بين المجرم العادى والمجرم الذى اقترف جريمته لأول مرة فى حياته، وتحت تأثير دوافع قاهرة ، ولكنها على كل تبرر العقوبة بقدر ما تقتضيه المصلحة العامة ، وتطلب إزالة الجريمة بتوفير أسباب الارتزاق للمعوزين ، وإنشاء جمعيات المساعدة ، ومنع السكر والقمار وما إليهما .

وقد شاءت الأقدار أن تفاجأ هـذه الجمعية عند نموها وترعرعها بالحرب العظمى ، وشاء نكد حظ الحقوق الجزائية أن لا تضع الحرب أوزارها إلا بعـد أن يوارى الثرى الأساتذة الثلاثة الذين أسسوا « الاتحاد الدولى للحقوق الجزائية » .... وجمعيتهم معهم !!!

— ٢٠ —

إلا أن الحاجة إلى مثل هذه الجمعية لم تلبث أن ازدادت ، ولا سيما بعد أن بلغ سيل الاجرام تلك القوة المروعة ، فقام بعض الصحفيين يطلب إنشاء جمعية ثانية تحل محلها ، وإذا حرب قلمية عنيفة بين محبذى تأليف الجمعية وبين مناوئيهم تخترق الحدود الطبيعية فى أوروبا ، وتشغل حقول أمهات الصحف فيها .

وانجلت المعركة عن فوز الفريق الأول ، فتألفت فى جامعـة الحقوق بباريس عام ١٨٨٩ جمعية « Association internationale de Droit pénal » للغاية نفسها .

ولتسهيل تبادل الآراء بين علماء الحقوق أنشأت لها مجلة دعتها « المجلة الدولية للحقوق الجزائية « Revue internationale de Droit pénal »» ، وهى اليوم من أكبر مجلات الحقوق فى العالم .

وتسعى هذه الجمعية لعقد مؤتمرات حقوقية من حين لآخر ، ولـكنها لم تنجح فى هـذا الميدان النجاح الذى كنا نرقبه لها ، والحقيقة أن ثمار هذه الجمعية لم تنضج بعد ....

— ٢١ —

والآن ، وقد فرغنا من سرد النظريات المعروفة فى فلسفة الحقوق الجزائيـة ، ومناقشتها بقدر ما تسمح لنا به المجلة ، ماذا نستخلص ؟

نتيجة واحدة ، هى مع الأسف فى غير مصلحة الحقوق الجزائية ، لأنها تظهر لنا المستند « العقلى ـ المنطقى » لهذه الحقوق ، متضعضعاً لدرجة قد لا يكون العدم بعيداً عن أن يكون وصفاً لها .

وبالرغم من الجهود التى بذلها ويبذلها علماء القانون الجزائى لاكتشاف هـذا المستند « العقلى ـ المنطقى Principe rationnel » فانه ما يبرح طى الخفاء ، ومع ذلك فان بعض القوانين تذهب فى تطبيق العقوبات مذهباً لا رحمة فيه ولا شفقة !!!

وليس شك أن العقوبة ضرورية فى بعض الأحيان ، ولـكننا نريد أن يكون لهذه العقوبة مبرر ، وأن يكون هذا المبرر عقلياً منطقياً ، ولا نحسب ذلك ممكناً إلا يوم يجمع الفلاسفة على رأى واحد فى النظر إلى حرية الانسان من حيث الأعمال التى يأتيها .

وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يمكن للحقوق الجزائية أن تخطو الخطوة المنشودة... وعند ذلك فقط ، تستطيع فلسفة الحقوق الجزائية أن تستأنف طريقها فى مأمن من العثار والفشل !

(حلب) ايزاك موسى شموش

كيف نعد الفتاة للزواج ؟

بقلم الاستاذ مصطفى جاد أبو العلا
دبلوم دار العلوم العليا

إن أول شيء يجب تلقينه للفتاة التي ستمسى ولها أولاد يلقى بيدها زمام تربيتهم والعناية بأمرهم هو :

(ا) تدبير الصحة : فقد يتفق كثيراً أن زوجها أو أحد أبنائها أو من له بها صلة قرابة يمرض فلا تدرى ما ذا يجب عليها فعله للمريض حتى يحضر الطبيب، وقد يكون جهلها هذا داعياً إلى إيصال الأذى إلى المريض ، وإذا أشار عليها بعض النسوة اللائى لهن عشرة معها وخلطة بها وارتأين فعل شيء وقتى يسكن ألم المريض حتى يأتى الطبيب ، فقد يكون هذا الشيء جالباً إليه الأذى، خصوصاً وأنه صادر من جاهلات مثلها . . ، ومن هنا يتجلى للعاقل فائدة تعليم الفتاة ودرايتها بمبادىء قوانين الصحة وما يترتب على معرفتها ذلك من الفوائد الجمة .

(ب) تدبير المنزل ، حتى تحفظ حياة الأسرة وهناءتها ويصبح بيتها جنة تأوى إليها الأمهات يقتطفن من أثمارها أزواجاً ، وخير لأهلها أن يعلموها ذلك بالمنزل حتى تطبق العلم على العمل .

(ج) كيفية تربية الأولاد تربية تبعدهم عن الأسقام وتنئيهم عن العلل .

(د) العلم التام بكل شيء له علاقة بنظام المنزل : كترتيبه ، وكالطهى ، وغيره . . . حتى إذا لم تجد يوماً من الأيام عندها طاهيا مثلا قامت بأداء وظيفته دون أن تسبب لزوجها الكدر وتوقعه فى بحر من اليأس .

(ه) الحياكة والأشغال اليدوية : مما يجب تلقينه للفتاة ويكمل به النظام العائلى، فدرايتها بهذه الأعمال ضرورى جداً .

بقى علينا أن نذكر أهم العلوم الأخرى التى تتعلمها البنت فى المدرسة وسنذكر المفيد منها:

١ ـ القراءة والكتابة ، حتى يتسنى لها أن تطالع الكتب الأدبية وتوسع مداركها وأفكارها ، وحتى لا تجد ربات الخرافات والأوهام (كشيخات الزار) ـ مثلا ـ سبيلا إلى إدخال ترهاتهم فى عقلها .

٢ ـ الدين : فهو ضرورى ولا خلاف فى ذلك ، لأنها بقدر تدينها تكون محترمة فى عين زوجها ، وتميل إلى عمل الخير وعدم اقتراف الذنوب وفعل المعاصى.

٣ ـ اللغة الوطنية : وفائدتها واضحة إذ أنها تبث فى نفسها روح الغيرة على الوطن والذود

عنه فتجعلها تلقن ذلك لأولادها فيما بعد ، فينشأون ونفوسهم منصرفة إلى الدفاع عن الوطن وتعزيز جانبه دائما ، والعمل جهدهم فى سبيل رفعة بلادهم .

٤ ـ الحساب : لأنه يعينها فى المعامـلات ، ولا أرى فى التاريخ فائدة كبرى ، إلا أن معرفتها بتاريخ الشهيرات من النساء لا بأس به ، فقد يسبب لها الميل إلى التشبه بهن والسعى فى جلب الفخر لها بعمل الأعمال العظيمة ... أما الباقى من العلوم كاللغات الأجنبية والتاريخ العام وغيره فلا أرى فيه فائدة كبيرة لها ، وقد قيل :

« ما أشبه بعض التعاليم ببلور النوافذ ، نستطيع أن نرى الحقيقة من خلالها ، ولكنها تفصلنا عن الحقيقة » .

الوقت الملائم لتعليم الفتاة :

رب قائل يقول : لقد سلمنا بضرورة تربية البنت وتعليمها ، أفلا ترى أنه يقف دون ذلك من الموانع الأدبية ما يجعلنا نفضل بقاءها جاهلة مع ما ذكرته من نتائج الجهل الوخيمة على أن تتعلم ؟

الجواب على هذا بدهى للغاية وهو :

إن تعليم البنت يجب أن يكون فى سن الحداثة ونهايته عند سن البلوغ ـ وإن كانت التربية النفسية عاصمة بطبيعتها من الزلل ـ ما دام خـلاف ذلك يدعو إلى التطير من عاقبة التعليم والاحجام عنه ، وبذلك لا يوجد لأحد حجة يحتج بها على أن لجهل المرأة فائدة ، وكل امرىء عنده مسكة من الشعور لا بد أن يقول « سعادة البشر فى تعليم المرأة وتهذيبها »

وليس شرطاً على الرجل أن يذهب بها إلى المدرسة ، إنما يراد منه أن يعلمها سواء أكان ذلك فى المدرسة أم فى البيت ، ولا نطالبه بأن يساويها به ، وإنما نطالبه برفعها عن مستوى الجهل ، وعدم اعتباره إياها كالأنعام أو البهائم .

المهر والجهاز :

الآن قد وفقنا إلى الفتاة التى يجب اختيارها زوجة تخرج للمستقبل أولاداً نافعين مجدين يخدمون وطنهم ويحافظون على مكانتهم ويرفعون من شأنهم ، بقى علينا أن نتكلم عن الوسيلة إلى حيازتها ، وهى مسألة المهر والجهاز ، وهى من الأهمية بمكان :

فمن العادات السيئة : الاسراف فى الجهاز للعروس ، فان تلك العادة قد انتشرت فى بلادنا فكانت عاقبتها من أشنع العواقب : ضرر بين ، وفقر حاضر ، وخراب عاجل . يقولون لا بد للعروس من أن تصطحب جهازاً فيه ما تلذ الأعين ، سواء أكان ذلك يستعمل فى بيت زوجها أم لا ، ويلزم أن يكون فى ذلك الجهاز من الحلى ما غلا ثمنه وخف حمله ، ومن الثياب ما غلت قيمته ، ولان ملمسه ، وتعددت أشكاله ، وتنوعت ألوانه وأزياؤه ما يكفى الواحدة السنين الطوال ، كأنهم يريدون أن يفتحوا لها مخزناً فى بيت زوجها أو معرضا من معارض الحلى والملابس !!!

مسكين والد العروس يأخذ مهرها ويضيف إليه ما عنده من المال ويشرع فى جمع ذلك من كل مخزن وحانوت ، حتى إذا فرغ ما فى يده استدان وتناول أموال الناس خوفا من كلام النساء وصونا لكرامته من أقوال إخوانه . تذهب العروس إلى زوجها وتترك والدها يقاسى مضض الدين وآلامه ، وكم من رجال ذهب شرفهم وانحط قدرهم بسبب الجهاز . وقد شوهد أن بعض متوسطى الثروة أصبح بسبب تجهيز ابنته فقيراً ، وبات وعلى عاتقه من الديون أثقال يئن تحت عبئها ، على أن معظم الجهاز يكون قد فنى وتبدد وما بقى منه فقلما يستعمل . مالوالد العروس وهذه التكاليف الباهظة مع أن البيت باسم الزوج لا باسم الزوجة فان أعجبه ألا يفرشه أصلا فليكن ، وإن راقه أن يزخرف سقوفه وجدرانه بالذهب فليفعل ، وليس للزوج وأهله أن ينتظروا شيئا من العروس ، فهى وشأنها فى مالها ومهرها كما قضت به الشريعة السمحة . وحوادث الطلاق فيها عظات كبرى لو التفت إليها . تطلق المرأة وتذهب بجهازها إلى بيت أبيها فيظل مكدسا يرتع فيه العث والجرذان ، فاذا ما تزوجت ثانية وجدت أكثره تالفا لا يصلح للاستعمال ؛ والذى يدعو الرجل لهذا الاسراف هى زوجته « والدة العروس » ، لأنها تريد مناظرة غيرها من أهلها والعارفين بها ، ولماذا تقلد كل سيدة من هى أغنى منها ؟ وهل يعد التوسط فى الغنى والفقر عيبا ؟

وإن يعجبنى لا يعجبنى إلا المرأة الأوربية ، لا ترمى مالها كما تفعل المصرية فى أوان لا تستعملها ، وفى خرق تبلى بعد زمن قليل ، بل تستثمر ذلك المال فتنميه وتحفظه للعوز أو تدخره لأولادها من بعدها ، فهل للنساء الشرقيات أن يقلدن الغربيات فى طرق الاقتصاد وفعل الخيرات ؟ .

ومن أضرار الجهاز أنه كما يكلف والد العروس تلك التكاليف الجسيمة ، يلزم الزوج أيضا المهر الفادح ، فان والد الزوجة يجعل دائما نصب عينيه الجهاز الفخم ، وهذا يستدعى المغالاة فى طلب المهر ليستعين به على ذلك ، وكثيراً ما يكون الزوج عاجزاً عن قيمة المهر المطلوب ، ولكن إلحاح والد العروس وعزمه الأكيد يلجآنه إلى إنفاق جميع ما تملكه يده فيصبح فقيراً معدما أو مدينا ذليلا ، ويبتدىء حياته الجديدة بالهم الدائم والشقاء المستمر .

فالواجب يقضى على أهل البنات أن يردعوا صهرهم عن الاسراف إن حاول هو ذلك ، لا أن يحملوه عليه تلذذاً بالتحدث عنه أمام باقى العائلات .

من واجبات أهل العروس مساعدة الصهر قدر الامكان بشرط ألا يكلفوا أنفسهم ما لا طاقة لهم به لأن براحته ترتاح ابنتهم ، وإذا كان بناء بيته أو هيكل زواجه متيناً مدعوماً تكون سعادته وزوجه مضمونة ، والفضل فى مثل تلك الظروف لمن سبب السعادة وساعد عليها . وفى الحديث الشريف « أقلهن صداقاً أكثرهن بركة » .

(البقية على الصفحة رقم ٤٨٠)

عباس محمود العقاد*

١ ملخص ترجمته -- ٢ آراؤه فى الادب والحياة -- ٣ آراء كبار الادباء فيه

للأديب المبارك ابراهيم (ملا كال – سودان)

— ١ —

ملخص ترجمتـه

أرجو ألا تتوهموا أيها الأخوة، أنى سأعرض عليكم – فى هذه الليلة – صورة فنية ، واضحة الملامح ، كاملة الأجزاء ، لترجمة حياة أحد رسل النهضة الفكرية فى مصر ، الأديب الخالد عباس العقاد . فتدوين تراجم حياة المشاهير من قادة الفكر ، وما شا كلهم بالاجمال من ذوى الشخصيات التاريخية البارزة ، قد أصبح اليوم فناً قائماً بذاته ، لا يحذقه إلا أفراد قلائل من حملة الأقلام فى العالم ! قد تعمقوا فى دراسة علم النفس ، ووقفوا على ما استدق من أسراره ، واستتر من خفاياه ؛ وأتقنوا بجانب ذلك أساليب البحث العلمى ، ومناهج الاستقراء الفلسفى ، كما لا يخرج عن دائرة معارف حضراتكم أيها المتأدبون .

وأملى ألا يدور بخلدكم أيضاً ، أننى سأتقدم إليكم بدرس تحليلى واف لناحية من نواحى الأدب العقادى المختلفة ، لأن أويقات فراغى القصيرة ، لا تمكننى من الخوض فى عباب البحوث المستفيضة الممحصة ، التى يضطر محضرها إلى المراجعة والمقابلة والمقارنة بكل عناية وتفكير .

وغاية صفوة ما أصبو إليه ، هو أن أوفق فى إعطائكم تاريخاً مجملا لحياة هذا الأديب العصامى ، مع نماذج منتقاة من آرائه الفلسفية فى الأدب والحياة ، أسردها عليكم دون شرح أو تعليق ، تاركا لكم الحرية لكى تحكموا لها أو عليها ، بما تقتضيه عدالتكم .

ومن رأيى أن العقاد كغيره من فحول الشعراء ، وعباقرة الكتاب ، وجهابذة النقاد ، له هفواته وكبواته ، ونجده يعترف بأكثر من هذا ويقرره بكل صراحة ووضوح فى الأرجوزة التى قدم بها ديوانه إلينا ، إذ قال :

هذا كتابى فى يد القراء

. . . .

فيه من الحكمة والغباء !

---

* محاضرة بعث بها الينا الاديب الفاضل المبارك ابراهيم ، ألقاها بأم درمان على جمهور من محبي الادب العصرى من أبناء السودان ولفيف من طلبة كلية غوردون النجباء . ونحن ننشرها عملا بحرية الرأي ، حتى لا نتهم بالتحامل والغرض.

ولكن صديقه الأستاذ المازنى يفسر لنا هذا الغباء ، بأنه غباء من يتعب نفسه فى هذه الدنيا بالأدب والخلود ! وما إلى ذلك ، لا غباء من لا يفهم ، ولا يرى حين ينظر .

وقال أديب آخر : فى ديوان العقاد غباء حقاً ، ولكنه نادر جداً ، لا تكاد تقف عليه ولو تقصيته ، وهو الذى عده عليه أحد الأدباء ، ومزجه بأضعاف أضعافه من السفاهة ! ثم زعمها نقداً . وإن غباء العقاد خير ألف مرة من ذكاء المدعين ، وسفاهة الموتورين.

هذا وخلاصة كلامى الليلة عن العقاد ، إذا خلا من فائدة ، فأنا زعيم بأنه لا يخلو من لذة :

الأستاذ العقاد الآن ، رجل قد تخطى عتبة الصبا ، وتجاوز حد الأربعين ، ودخل فى عهد الكهولة الذى يكتمل فيه النمو العقلى ، ويقوى توقد القريحة ، وتنضج الاراء . وعلى الرغم من أنه قد بدأ يطوى حلقة العقد الخامس من عمره ، فأنت تراه فى مورق العود ، بادى الشباب ، مشرق الطلعة ، معتدل القامة طويلها عملاقا .

أتى الأستاذ العقاد إلى الوجود منذ ٤٣ سنة ، فى صيف ١٨٨٩ م ، وترعرع ودرج فى حجرات بيت متواضع ، لا تطالعك من مظاهر ساكنيه دلائل الثروة والعظمة والجاه ، وليس فى هذا ما يعاب به عليه ، فجل مفكرى العالم وفلاسفته من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، إذا تصفحنا تواريخهم ، وجدناهم قد تربوا فى أحضان العائلات الفقيرة ، وخرجوا لنا من بين جدران البيوتات الصغيرة .

وقد انتظم فى سلك المدرسة الابتدائية الأميرية بأسوان مسقط رأسه ، وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ وعمره أربعة عشر ربيعاً ، ويقول الأستاذ : « لم أتلق بعد انفصالى من المدرسة الابتدائية غير أبواب محدودة فى الكهرباء والطبيعة ، حضرتهما بمدرسة الصنائع والفنون بأسوان ، وقد عاقتنى عوائق شتى عن متابعة التعليم المدرسى كما كنت أود يومئذ ، ولست على ذلك الآن بنادم » .

والفضل فى تعلق الأستاذ العقاد بالأدب وانكبابه على دراسة كتبه ، ينسب إلى فضيلة العلامة الأديب المرحوم الشيخ أحمد الجداوى ، أحد نبغاء الأزهر الشريف الذين تتلمذوا للسيد جمال الدين الأفغانى . فقد كان مجلس الشيخ الجداوى بأسوان محط رحال محبى العلوم ، وقبلة أنظار عشاق الآداب ، وكان من المواظبين على الاختلاف إليه الشيخ محمود العقاد ، مصطحباً ـ لسعد الطالع ـ ابنه عباساً الطالب بالمدارس الأولية ، وهو لا يتوقع ـ بالطبع ـ أنه بعمله هذا قد مهد طريق الظهور لابنه الذى أصبح اليوم أحد الشخصيات البارزة المؤثرة فى الحياة الأدبية والسياسية فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة .

ويقول العقاد : « كنت أسمع من الشيخ الجداوى مطارحاته الشعرية ، وقراءته لمقامات

الحريرى وبعض القصائد المختارة ، وأستظرف فكاهاته ونوادره التى كان يرويها عن المتقدمين والمتأخرين ، فشوقنى ذلك إلى مطالعة الكتب الأدبية ، فكان أول ما وقع فى يدى منها : كتاب المستظرف فى كل فن مستظرف ، وديوان بهاء الدين زهير ، وقصص ألف ليلة وليلة ، ومجلد من دائرة المعارف للبستانى ، وأعداد مختلفة من صحيفة « الأستاذ » لصاحبها السيد عبد الله النديم ، وكنت أسمع اسمه كثيراً فى مجلس الأستاذ الجداوى ، ومن ثم أقبلت على المطالعة العربية والافرنجية ونظم الشعر » .

ومما لا يترك مجالا للشك فى أن العقاد أديب موهوب ، وشاعر بالسليقة والفطرة،قصيدته الصبيانية التى نظمها فى فضل العلوم المدرسية ، وهو ما زال فى دور الطفولة ، وعمره عشر سنوات ، ومنها :

علم الحساب له مزايا جمة ... وبه يزيد المرء فى العرفان
وكذلك الجغرافيا تهدى الفتى ... لمسالك البلدان والوديان
وتعلم القرآن واذكر ربه ... فالنفع كل النفع فى القرآن !!

ثم انظروا أيها السادة إلى هذه الشاعرية الطفلة التى ولدت مع شاعرنا ، كيف نمت بنموه، وحملت أزاهير الحكمة والفلسفة العبقة ، فى المقطوعة الآتية التى قالها وهو فى الثامنة عشرة ، يخاطب بها السعادة التى أعياه طلابها دون جدوى ، لأنه نشأ بائساً كما أسلفت ، قال :

مه يا سعادة عنى ... فما أنا من رجالك
لا تطمعى اليوم منى ... بالسعى خلف خيالك
فقد سألتك حتى ... مللت طول سؤالك
وقد جهلتك لما ... سحرتنى بجمالك
إن الحبيب بغيض ... إذا استعز بخالك
فلا تمرى ببالى ... ولا أمر ببالك
أشقى الأنام أسير ... معلق بحبالك

وقد زاول العقاد مهنة التعليم بعدة مدارس أهلية ، والتحق ببعض الوظائف الحكومية، ويقول : كنت أستقيل منها واحدة بعد أخرى نفوراً من قيودها الثقيلة ، وتكاليفها الغثة .

هذا ، وبعد نشوب الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ ، كان العقاد يقيم ببلدته (أسوان) فاتهمه مديرها بالاشتغال بالأمور السياسية والاهتمام بأخبارها ، فوكل أحد جنوده بمراقبته ، فصار يلازمه كظله أينما سار أطراف النهار ، ويبيت أمام داره آناء الليل ، وكان المدير يوافى وزارة الداخلية بأخباره تلغرافياً فى كل يوم ، ويلفق ضده التهم الباطلة ، الشىء الذى جعل فرع الأمن العام بالقاهرة يهتم بأنبائه ، ويطلب إلى المدير أن يشدد المراقبة عليه ، لكيلا

يستفحل خطره . وأخيراً ضاق أستاذنا ذرعاً من هذه الحالة المضنية ، فخرج من داره تحت أستار الظلام قبيل طلوع الفجر ، متنكراً فى زى امرأة « أسوانية » حتى لا يتعرفه الجندى الواقف له بالمرصاد أمام الباب ، وبعد أن توارى عن أنظار الرقيب ، ارتدى ملابسه الرجالية التى كان يخفيها تحت ملابسه النسوية ، وقصد إلى المحطة التى تقع بحرى أسوان ، واستقل منها القطار إلى القاهرة .

وهنالك رفع أمره إلى وزير الداخلية، فعظمة المرحوم السلطان حسين كامل ، ولما تبين لولاة الأمور أن الأخبار التى كانت تصلهم من مدير أسوان عنه لا ظل لها من الحقيقة ، عاقبوا المدير على افتراءاته المبالغ فيها باحالته على المعاش ، وهكذا ينتصر الحق على الباطل .

وهنا السر – على ما أظن – فى رثاء العقاد للسلطان حسين ، لأنه لم يعودنا أن يتملق فى مدحه أى « امرىء نخره عرش وإيوان » ، أو يتكلف فى رثائه لمن لا يستحق ، ومن ذلك الرثاء الجيد قوله :

وادى الكنانة غاب عنه همامه وخبا سناه ونكست أعلامه
أحسين ! لا يبرح خيالك حاضراً للملك كيف صلاحه ونظامه !

ومن أراد الوقوف على هذه المرثية العصماء ، وجدها مدرجة فى ديوانه بحذافيرها على الصفحة ٢١٨ .

وقد أخذ بدر شهرة العقاد فى الظهور والتجلى بعد مقامه بالقاهرة على أثر هذه الحادثة واشتغاله بالصحافة ، وأول جريدة عمل فيها كمحرر هى جريدة الدستور التى كان يصدرها الأستاذ فريد وجدى مؤلف دائرة معارف القرن العشرين ، وقد حرر بعدها فى أمهات الجرائد المصرية كالأهرام والأهالى والبلاغ ومصر ، وهو اليوم المحرر الأول لجريدة كوكب الشرق .

وقد أصبح الأوحد بين قادة الفكر وملوك الكلام فى الشرق العربى ، حيث يتمتع بمحبة جيوش جرارة من القراء والمؤيدين والأنصار .

والعقاد يكتب بأسلوب فلسفى قوى فى غير خشونة ، وعباراته منطقية عقلية مصقولة فى غير تنميق لفظى أو زخرفة بديعية ، وقد يتعمق أحياناً فى بحوثه وفصوله الأدبية حتى يبتعد عن متناول فهم القارىء السطحى البسيط .

وله طريقة فى النقد هدامة ، قل أن يضارعه فيها ناقد ، وهو قوى الحجة فى ميدان المناقشة والجدل ، وقد قال : « وخطتى فى المناقشة أن أعمد إلى أقوى الحجج بداءة ، فأجتهد فى تقويضها ، ثم أقفوها بأضعف الحجج ، وقد أعود إلى ما فيه مسالك من القوة ، وربما كانت فى هذه الخطة مفاجأة للقارىء ، ولكنها مفاجأة لا تخلو – كما شاهدت بالتجربة – من تأثيرها المحمود » .

وقد كان الزعيم الراحل يلقبه بالكاتب الجبار المفكر ، كما أشار العقاد إلى ذلك فى رثائه لسعد ، قال :

يا هدى الأمة يا نعم الهدى   يا خدين الصحب يا نعم الخدين
أنا جبارك لا تعهدنى   ذلك الجبار فى الدمع السخين !

والعقاد يعانى منذ زمن ليس بالقصير آلام داء دوى كامن بين جنبيه ، ولهذا يكتب مقالاته ولا سيما السياسية منها فى منزله وهو طريح الفراش ، أما الشعر فينظمه وهو يرتاض فى الأماكن الخلوية أو بين الرياض ، ولقد قال :

« وأفضل الكتابة منفرداً لا يحيط بى أحد ، ولم أكتب قط فى الأدب خاصة ومعى آخر فى الحجرة إلا أن أملى عليه ما أقول ، وهو جد نادر » .

« ولم أتعود أن أستعين بشىء من المنبهات التى يألفها بعض الكتاب أثناء العمل : كالتدخين وشرب القهوة وما إليهما ، حتى أيام كنت أدخن ، بل لقد كنت يومئذ أترك التدخين حين أشرع فى الكتابة » .

ولم تخرج المطابع فى العهد الراهن من الأشعار التى ترمى إلى الأغراض السامية النبيلة أروع من شعر العقاد والزهاوى ـ على ما أعتقد ـ ، وشعر العقاد فى مجموعه يمثل العقل أكثر من تمثيله للعاطفة .

وللعقاد طريقة خاصة به فى الالقاء ، تترك كلماته تنطبع فى فؤادك انطباعا ، وهو قليل الحركات والاشارات فى مواقفه الخطابية ، وقد حظيت بسماعه خطيباً مرتين : الأولى ينشد قصيدته الميمية فى احتفال القاهرة الثالث باحياء ذكرى الرئيس الراحل بجوار بيت الأمة ، والثانية حينما كان يناظر الأستاذ سلامه موسى فى صالة المحاضرات بالجامعة المصرية ، فى موضوع « الشرق شرق ، والغرب غرب ، والاثنان لا يلتقيان » تناول هو الناحية السلبية ومناظره الناحية الايجابية ، وبعد أن أدلى كل منهما بآرائه وأفرغ جعبة براهينه ، أسفر أخذ أصوات المستمعين عن انتصار العقاد وانهزام سلامه موسى

ألمعت أيها السادة فيما تقدم إلى طول قامة العقاد ، ذلك الطول الظاهر ، ولهذه المناسبة أريد أن أسوق هذه النادرة لتكون خاتمة لهذا الفصل .

قيل : إنه فى يوم خروج العقاد من السجن فى ٨ يوليو من السنة الماضية ، كان فى طليعة الذاهبين لتهنئته بداره فى مصر الجديدة بشارع السلطان سليم رقم ١٣ صديقه الأستاذ المازنى ، وهو على عكس صديقه قصير القامة ، وعند ما التقيا أحب المازنى أن يعانق حميمه القديم ، ويطبع على جبينه قبلات الفرح والاشتياق ، ولكن دلونى كيف السبيل إلى ذلك ؟ والفرق ظاهر بين طول العقاد وقصر المازنى ؟ !

لم يكن هناك غير أن شرع المازنى ـ والحالة هذه ـ فى تسلق قامة العقاد وهو يساعده على الصعود حتى نال أمنيته ! ! فكان منظرهما مؤثراً استثار عاطفة الضحك فى نفوس المشاهدين.

— ٢ —

آراؤه فى الأدب والحياة

العقاد أديب وعالم ومفكر معاً ، كرس حياته منذ حداثته على المطالعة ، وتوفر على درس أنضج ما أثمرته العقول وأنتجته القرائح فى الشرق والغرب، قديماً وحديثاً ، وما فتىء إلى اليوم يصرف ساعاته بين الكتب فى المطالعات والمراجعات وتحرير الفصول ، وهو يعيش فى جو العزوبة الهادىء ، زاهداً فى الزواج ومزعجاته وتكاليفه ، ليقضى لياليه منفرداً يقرأ ويفكر ويكتب، لا سيما وأن المرأة فى بلادنا الشرقية بوجه عام لم تأخذ حظها بعد من الثقافة والرقى ، ولهذا ليس أبغض إليها من جلساء فتاها (بعلها) مثل الكتاب .

وفى أثناء مطالعاته قد توحى إليه كتبه بما توحى، فينبرى يفضى إلينا بقيمة هذا الوحى ، ويشرح لنا أثره الصالح والردىء فى الحياة والأدب ، بتلك الطريقة العقادية الممتعة الممتازة .

وأديبنا يرى أن كتبه هى التى أشعرته بهذا الشقاء الذى هو فيه ، ولكنى فى الوقت عينه أراها قد سطرت اسمه بحروف من نور على صحيفة الزمان الباقى .

وأنا أتصوره فى منظومته الآتية جالسا بين أكداسها ، والبؤس يعض وينهش فى أحشائه وهو يتأفف ويتضجر ، وينحى عليها باللائمة بلغة حزينة باكية قائلا :

يا كتبى ألبست جلدى الضنى ... لم يغن عنى جلدك المذهب
كم ليلة سوداء قضيتها ... سهران حتى أدبر الكوكب
والناس : إما غارق فى الكرى ... أو غارق فى كأسه يشرب !
أو عاشق وافاه معشوقه ... فنال من دنياه ما يرغب
ينتفع المرء بما يقتنى ... وأنت لا جدوى ولا مأرب !
إلا الأحاديث وإلا المنى ... وخبرة صاحبها متعب !
أنفقت منى ما يضن الورى ... به على الله ولم يذنبوا
من ضوء عينى ومن صحتى ... سدى ومن وقتى وما أكسب
ومن شباب فيك ضيعته ... فما أنا إلا الفتى الأشيب !
لو كنت كالجبار فى نقمتى ... لكان فى النار لها معطب
فى ذمة الطرس وفى حفظه ... عمر تقضى شطره الأطيب !
لا رحم الرحمن فى من مضى ... من علم العالم أن يكتبوا !

ومن هنا أنتقل إلى سرد آرائه فى الأدب والحياة ، ورجائى أيها السادة أن تستمعوها

بعناية وانتباه ، وهى من الاراء الناضجة التى يعتد بها ، لصدورها عن فقيه من فقهاء الأدب القليلين فى شرقنا العزيز .

رأيه فى الشعر

«الشعر يعمق الحياة ، فيجعل الساعة من العمر ساعات،فاذا قلنا لك أحبب الشعر،فكأنما نقول لك عش!وإذا قلنا إن أمة أخذت تطرب للشعر ، فكأنما نقول أنها أخذت تطرب للحياة» .

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن !
تفضى له ألسن الدنيا بما علمت كأنما هو فى الدنيا سليمان
والحب والشعر دينى والحياة معا دين لعمرك لا تنفيه أديان !
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها إلى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى ففى صحائفه للشعر ديوان

رأيه فى الموسيقى

معلمة الانسان ما ليس يعلم وقائلة ما لا يبوح به الفم
ومسمعة الانسان أشجان نفسه فيطربه ترجيعها وهى تؤلم
أعيدى على الصوت أنظر لعلنى أرى فى ثنايا اللحن ما يتوسم
ألا حدثينا عن إله نحبه ونعبده حباً ولا نتألم
فما كان للوحى الالهى مسلك إلى القلب أشجى من صداك وأكرم
حديثك من كل اللغات منظم ومعناك فى كل النفوس مقسم !

رأيه فى الأدب والحيـاة

« ما الحياة وما الأدب ؟ شيئان كلا نسيجيهما من مادة واحدة . فالحياة هى شعور تتملاه فى نفسك ، وتتأمل آثاره فى الكون وفى نفوس غيرك . والأدب هو ذلك الشعور ممثلا فى القالب الذى يلائمه من الكلام ، وما احتاج الناس من قبل إلى من يثبت لهم أن الأدب لا يكون بغير حياة ، ولكنهم يحسبون أنهم فى حاجة إلى من يثبت لهم أن الحياة لا تكون بغير أدب ، مع أن الأمرين بمنزلة واحدة ، فان لكل حياة أدبا ، ولكل أدب حياة ، والمقياس الذى يقاس به كلاهما واحد لا يختلف فى دلائله ، وإن يختلف فى وسائله» .

رأيه فى الأدب العربى

«إن الأدب العربى أشبه بالمواد الغذائية التى ما زالت فى حاجة إلى الطهى ، فاذا كان القارىء طاهيا ماهراً ، استطاع أن يخرج منه مائدة كأشهى الموائد ، وإذا كان القارىء آكلا ليس إلا ، ففى استفادته من هذا الأدب صعوبة لا يتعذر تذليلها باعادة النظر فى

المصنفات القديمة على يد لجنة أو أفراد من الأدباء قادرين على استخلاص النافع منه ، وتمثيله للقراء على الوجه المقبول .

رأيه فى الأدب والسياسة

«لا أحسبنى اشتغلت بالسياسة عن الأدب كل الاشتغال،ولا نسيت عهدى فى هذا الغمار. الأدب عندى شجرة طعمت بغصن من السياسة ، فتغير طعم الثمرة بعض الشيء ولم تتغير التربة ولا الجذور !»

رأيه فى المرأة الشرقية

« إننى أحب أن تحتفظ المرأة الشرقية بأنوثتها ، ولا تقتبس من المدنية الغربية إلا ما كان سلاحا لهذه الأنوثة ، فى أداء وظيفتها وصون حقوقها » .

رأيه فى السعادة

« أنا أتصور أن السعادة هى الاكتفاء واليقين ، وتكون النفس إذا اكتفت وأيقنت قريرة باسمة ، ووديعة حالمة ، وراضية فى سكون وغبطة ، ومسترسلة فى هناءة مضمرة ! »

رأيه فى إجماع الآراء

ما بكثرة المثبتين الأمر تثبته ولا بقلتهم للحق إيهان
ورب قولة زور قالها رجل منهم فطاف بها فى الأرض ركبان !
تداولوها فصارت فى مذاهبهم شريعة نقضها كفر وعصيان !
أحرى مزاعمهم بالشك أسيرها فالحق متئد والأفك عجلان !

رأيه فى أن الانسان قرد !

وقال يشير إلى نظرية داروين فى شيء من التهكم الضاحك :

قالوا ابن آدم من قرد فقلت لهم كلا ولكنه فى الأصل ثعبان!
إن أصبح القرد فى خلق يماثله ففى خلائقه لا شك برهان
فى كل يوم له ثوب يجدده من الرياء وفى فكيه زيفان

لا تعبدن !

وقد اتهم بعضهم الرجل فى عقيدته ، زاعما أن من قوله الاتى تشتم رائحة الهرطقة والكفر القبيح !

الدين باق ما جهلنا سره ولنبقين بسره جهالا
لا تعبدن إذا أردت سيادة ربا يعين الصيد والأنذالا !
واعبد إلهاً يصطفيك بعونه ويذيق خصمك ذلة ونكالا

في وصف الله !

وأنا أقول إن روح التوحيد والايمان الحار الصحيح ترفرف فوق أبياته الآتية ، قال :

يا قارئاً فى طرسه وكتابه ... ما العلم حظ القارىء الثرثار
العلم ما كشف الحقائق نوره ... وأراك كيف يكون صنع البارى
والعلم ما نفض الكرى عن أهله ... فأقام بعد الليل ضوء نهار
والعلم علم الكون فى صفحاته ... لا فى قراطيس ولا طومار !
والعلم وصف الله فاعلم تستطع ... تصريف ما فى الكون من أسرار !
فاذا درستم فى الكتاب فحققوا ... مصداقه فى حكمة القهار !

— ٣ —

آراء كبار الأدباء فيه

وفيما يلى أيها السادة طائفة من آراء مشاهير الأدباء والعلماء فى العقاد :

رأى الدكاترة أصحاب المقطم

« العقاد كاتب بحاثة ، وشاعر نظمه جامع بين متانة الشعر القديم وسلاسة الجديد ! ويظهر لنا كأن اطلاعه على منظومات الأوربيين فى لغتهم ـ بعد ما تخرج فى مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية ـ سهل على قريحته الاتيان بمعان جديدة ، ولا يحسب الناظم شاعراً ، إلا إذا جمع بين أمرين : دقة المعنى ، ورقة اللفظ ؛ وهذه الأخرة هى ما يسمى بالديباجة ، وهما قد اجتمعتا للأستاذ العقاد » .

رأى المازنى

« وإنى لأحس بعد الفراغ من مراجعة ديوان العقاد ، كأن تعبير الحياة لى كان حقيقاً أن يكون ناقصاً من بعض وجوهه لو لم يقل العقاد شعره هذا ! . ولا أرانى مبالغاً ولا أقول ذلك على سبيل المجاملة ، أو مدح صديق لصديقه » .

رأى روفائيل بطى

« العقاد شاعر مجيد مبتكر ، وقد اشتهر على الأكثر بنزوعه الى التجديد، وعرف بوقوفه التام على روح الأدب » .

رأى زكريا على

« يسرنا أن نشكر العقاد الذى برهن على تفوق المذهب الجديد على المذهب القديم » .

رأى دريني خشبه

« العقاد فخر لمصر ، لأنه خلق لها فلسفة مصرية ساذجة تستروح إليها النفس، رغم ما يبدو فيها لأول مرة من تعقيد ! ! . »

رأى محمود الشرقاوى

«العقاد له شخصية قوية فى كتاباته تجعل له سلطانا على قارئه، لا يستطيع أحد ما مقاومته، وأنا حين أقرأ مقالا سياسياً للعقاد، أحكم بأن العقاد السياسى هو خير من العقاد الشاعر والعقاد الناثر، وعند ما أقرأ له فصلا أدبيا، أحكم بان العقاد الأديب أفضل من العقاد السياسى والشاعر، وعند ما أستمتع بقصيدة حية من روائعه، أحكم بأن العقاد الشاعر خير من العقادين، بل خير من جميع الشعراء، ذلك لأن للعقاد قوة تشغل النفس بالحاضر، حتى يطغى على الغائب».

رأى بعضهم

«نحيي العقاد بشير النهضة العقلية، وهو القنبرة انطلقت سحرا من الأرض الراقدة، وحلقت فى علياء السماوات، تنشد الشمس حتى توقظها من خدرها لتخرج على عالمنا تفيض عليه النور وتعيد إليه الحياة».

الخاتمة

إلى هنا انتهى بى المطاف - أيها السادة - بعد أن مررت بحضراتكم مروراً جد سريع على تاريخ العقاد وآرائه وآراء كبار الأدباء فيه، وأنا لا أدرى متى ستسمح لى الظروف لأتشرف بالتحدث إليكم مرة أخرى عن هذا الفيلسوف القمين بالدرس والتحليل، والذى لا يساورنى شك فى أنه من أقوى الدعائم فى بناء مدرسة الآداب الحديثة !!.

ملا كال (سودان) المبارك ابراهيم

كيف نعد الفتاة للزواج؟

(بقية المنشور على الصفحة ٤٧٠)

وإذا سئل والد العروس عن السبب الذى دعاه لطلب زيادة المهر يقول: إن هذا القدر من المهر زهيد جداً، لأنى سأعد جهازاً كاملا وسأنفق عليه من مالى أضعاف المهر. بهذا العذر الضعيف قد خالف الشرع الشريف، ورضى بشؤم ابنته وبضرر زوجها بل بضرر نفسه. وياليت هذا الاتفاق كان فى شىء نافع للعروسين، بل إن الجهاز فى الوقت الحاضر صار من الأمور الصورية التى تتمتع بها الأنظار، ولا تستعمل فى مرافق الحياة التى هى الغرض من الزواج ومن الاستعداد لبناء أسرة فى المجتمع.

وإنى لأرجو أن يكون لنا قدوة حسنة بالمرحوم عثمان باشا ماهر، فقد قيل إنه عند زواج ابنته وبعد عقد العقد سلمها لزوجها، وسلم إليها قبل مغادرة منزله حجة الأطيان التى اشتراها باسمها وقدرها مائة فدان، وقال لزوجها: هذا هو الجهاز تتصرفا فيه بالعقل والحكمة وعيشا معاً فى هناءة ورخاء.

ومن ثم أدرك بعض العقلاء منه هذه الحكمة، فخففوا من المهر واقتصروا على الضرورى من الجهاز، فعسى أن يكونوا قدوة لنا، فتحسن الحال وتحفظ الثروة ويعيش الأزواج مع زوجاتهم فى هناءة وعيش رغيد.

مصطفى جاد أبو العلا

المستشرقون بين الأدبين :

القديم والحديث

بقلم الأستاذ محمد أمين حسونة

تلوح اليوم فى أفق الأدب العربى ظاهرة جديدة حساسة ، جديرة باهتمام أبناء الناطقين بالضاد والمتشبعين بروح التجديد ؛ هى أن مجرى بحوث المستشرقين والمستعربين ، قد بدأ يتحول رويداً رويداً من الأدب العربى القديم إلى الأدب الحديث ... وهم من حيث دراستهم لهذا النوع من الأدب ، إنما نراهم يقومون بنفس الخدمة التى كانوا يقومون بها من قبل ، فهم أبطال عالميون ، يحققون فكرة سامية طالما جاشت بصدورنا ؛ هى الوصول بالأدب المصرى الحديث إلى العالمية ؛ وهذه بلا شك أحسن دعاية طيبة لنا ، من حيث تعريف الغرب بشىء عن آدابنا العصرية وجهودنا ، وتصويرنا كأمة حية تريد أن تأخذ نصيبها ومكانتها فى الحياة .

إن أعجب ظاهرة بارزة فى هؤلاء المستشرقين خدمتهم للغة العربيـة ، وهم ليسوا من أبنائها ولا يمتون إليها بصلة ، وقد يكون للبعض منهم مآرب استعمارية ، ولكن لم يكن هذا هو الغرض الأساسى ؛ فمنذ نيف وثلاثة قرون وهم يخدمون هذه اللغة عن صدق وإخلاص ، وقد أحيوا معالم حضارات ونهضات كادت تطمس لو لم يتصدوا لها ويتولوها بعنايتهم واهتمامهم ، فهناك آلاف الكتب — سواء التى نشرت بالعربية أم بلغاتهم — بعثوها من قبورها ، وأفنى البعض منهم زهرة حياته فى درسها ، وأفردوا لبعضها الفهارس التى تسهل على الباحث والقارىء طرق الدراسة ؛ ولا يستطيع إنسان أن ينكر أنهم أمناء فى النقل وتحرى الحقائق ، حتى إن كثيراً من الأئمة والأعلام ، إنما يعتمدون على كتبهم وبحوثهم ويثقون بها ثقة مطلقة ، وإنى أستشهد على صحة ذلك بقول رجل علامة فاضل ، هو الأستاذ محمد كرد على ، رئيس المجمع العلمى بدمشق ، حينما وقف وألقى محاضرته القيمة بدار مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ، والتى كان عنوانها « أمهات الكتب العربية القديمة ، وعلماء المشرقيات فى الغرب » ، فقد جاء بها :

« وبعد ، فما برح العارفون منا يقدرون عمل المستعربين حق قدره ، بل ويعجبون به ويمجدونه ؛ قال لى أستاذى علامة الشام ، الشيخ طاهر الجزائرى : أليس من الغريب أن يكون تفسير القاضى البيضاوى المطبوع فى ألمانيا أصح من الطبعة التى طبعت فى الآستانة ؟

(م — ٧)

وسمعت أستاذى العلامة الشيخ محمداً المبارك يقول: لاحظت - مع الجماعة الذين نجتمع وإياهم على قراءة سيرة ابن هشام - أن الطابع الأفرنجى عنى بطبعها وخدمتها أكثر من عناية المصححين لها فى المطبعة الأميرية فى مصر، وهذا من عجيب تدقيق علماء المشرقيات وسلامة نظرهم، يحسنون طبع تفسير قرآننا وسيرة رسولنا أكثر مما نحسنه، على حين نحن لم نحرص فى كل عصر على شىء حرصنا على علوم الدين ومقوماته، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلا؛ ولولا عناية المستعربين باحياء آثارنا ما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التى أخذناها من: طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم البلدان، ومعجم الأدباء، وابن جبير، وابن بطوطة، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان، وفهرست ابن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الاطباء، وأخبار الحكماء، والمقدسى، والاصطخرى، وابن حوقل، والهمذانى، وشيخ الربوة، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التى أفسحت أمامنا معرفة بلادنا فى الماضى، ووقفنا على درجة حضارتها - لولا إحياؤهم ابن جرير، وابن الأثير، وأبى الفداء، واليعقوبى، والدينورى، والمسعودى، وأبى شامة، وابن الطقطقى، وحمزة الاصفهانى، وأمثالهم، لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا فى عماية من أمرنا. ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر وكتب الأدب والعلم التى أحيوها لطال بنا المطال، ففى الذى أوردناه من أسمائها - فيما سلف - غنية؛ والمقصود بيان تلك المزايا والاشادة بالأيادى البيضاء التى أسداها القوم لآدابنا » اهـ.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الأستاذ كرد على كان صادقا وأمينا فيما ذكره عن جهود هؤلاء الأبطال العالميين، وسواء أكان للبعض منهم مآرب استعمارية أو غير استعمارية، فلا يحق لنا أن نخلط بين هذا، وبين الجهود التى بذلوها وانتفعت بها اللغة والآداب العربيــة. وأذكر على سبيل المثال بعض أقطابهم وأعلامهم، أمثال: مرجليوث، وهارسخون، وصمويل لاى، وكارلايل فى انجلترا؛ وليتمان، وبروخ فى ألمانيا؛ وجويدى الكبير، ونالينو، ولانزونى، وكايتانى، وجريفيين، وبرترلوميو فى إيطاليا؛ ولافونت، وجسبار، وكلارزا، والشاعر الفونسو يارو - الذى نقل أخيراً رباعيات الخيام - فى إسبانيا؛ وكلسون، وخانيكوف، وكراتشفوسكى فى روسيا؛ ومهرن، وموبرج، وسترستين فى السويد؛ ومارسيل، وماسينيون فى فرنسا ... الخ.

وتتمثل جهود المستشرقين اليوم مجتمعة متضامنة فى « دائرة المعارف الاسلامية »، وهى مجهود عنيف جبار، لم يتح لسواهم الاقدام على مثله - أعنى وضع هذه المعلمة الكبيرة، والتى سوف تظهر قريباً، بثلاث لغات حية: الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، وينشر فيها كل ما له صلة وما يتعلق بالاسلام من أدب وعلم وفقه وتشريع، وقد بدأوها بالحروف الأبجدية العربية، واختص كل مستشرق بكتابة الفرع الذى يحسن دراسته أكثر من غيره.

ونعود الآن إلى موضوعنا الأصلى فنقول: إن من بين المستشرقين الذين أظهروا اهتماماً

وغيرة على الأدب المصرى الحديث، الدكتور سنوك هيجرونيه « Snouk Hurgronje » الهولندى، وأذكر أنه استقبل مرة فى السربون فلقبه المسيو ماسينيون المستشرق الفرنسى المعروف بـ « شيخ المستشرقين » .

والحقيقة أن الدكتور سنوك يعتبر اليوم أكبر مستشرق ، وأثمن ما نملكه فى الأدب العربى من ذخيرة ؛ ويرجع اهتمامه بالأدب العصرى وبالمباحث الاسلامية إلى طبيعة وظيفته ، فهو مربى ولية العهد فى هولندا ؛ ومن القواعد المرعية هناك دراسة اللغة العربية لأولياء العهود والحكام نظراً إلى المستعمرات الاسلامية التى تبسط هولندا نفوذها عليها ، وهو إلى غير هذا يشغل وظيفة مراقب للشؤون الدينية والاجتماعية فى المستعمرات الهولندية بالشرق، ويراه كثير من الشرقيين رجلا دقيقاً منصفاً، وقد وصفه بذلك عطوفة الأمير شكيب أرسلان فى إحدى رسائله .

وكانت هولندا منذ أعوام قلائل قد أخذت بعض عادات أهل جاوة، ووضعتها فى قانون خاص حاولت بواسطته إجبار الأهالى على الخضوع لمراسيمه ، غير أنهم ثاروا على هذا القانون ، فانتدبت الحكومة الهولندية الدكتور سنوك ، الذى سافر إلى هناك ووضع تقريراً مسهباً ، كان من نتائجه أن عدلت الحكومة عن رأيها ، وسحبت هذا القانون لما كان فيه من المخالفة الصريحة لقواعد الشريعة المحمدية السمحاء ، وقد استفتته فرنسا بالأمس فى القوانين الجديدة التى تحاول تطبيقها على البربر فى شمال أفريقيا ـ وهم مسلمون لا شك فى إسلامهم ـ وقد وضع بالفعل تقاريره التى لا تزال موضع بحث وتمحيص .

وناحية اهتمام الدكتور سنوك بالأدب العربى الحديث ، هى أنه يبحث فى فرع خاص منه، هو كل ما يكتب فى الفلسفة الاسلامية ، وهو يعتبر حجة فى هذا الباب ، ولعل القراء يلاحظون أن الدكتور زكى مبارك أهدى « الرسالة العذراء » إلى الدكتور سنوك ، نظراً إلى أن الأخير وضع رسالة عنه بالهولندية بمناسبة كتابه « الأخلاق عند الغزالى » الذى نال به إجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية .

ويلى الدكتور سنوك فى الاهتمام بالأدب العربى الحديث، الأستاذ ماسينيون (Massijnon)، بالكوليج دى فرانس ومعهد الدراسات الاسلامية فى السربون ، ووجهة اهتمامه بهذا النوع من الأدب : الصحافة المصرية ؛ وأذكر على سبيل المثال ، أنه وضع أخيراً دليلا مفصلا جداً عن جميع النشرات الدورية باللغة العربية فى العالم ، وله شغف واهتمام بوضع الاحصائيات عن القبائل المجهولة التى لها أدب خاص ،هذا فى حين أنك تجده مغرماً بصفة خاصة بتعقب التطورات الاجتماعية فى الشرق ، فهو يعرف مثلا عن الشيعة فى مدينة القاهرة ما لا يعرفه القاهريون أنفسهم ، ويصدر مجلة تحت اسم « الدراسات الاسلامية » ، وفى هذه المجلة تنشر سجلات دورية عن حركة النشر فى العالم الاسلامى، وحركات التطور والاصلاح، حتى عن دقائق الأزهر

التى قد تخفى علينا،وله إلمام تام بمعرفة الأدباء المصريين، الذين يهتمون بالفلسفة الاسلامية خاصة، وهو من هذه الناحية تلميذ موفق للدكتور سنوك .

والأستاذ « جب » الانجليزى له بحوث قيمة ، كان للدكتور هيكل بك فضل السبق فى إذاعة ترجمتها على صفحات « السياسة الأسبوعية » ، وهى مجموعة آراء نفيسة عن الأدب العربى فى القرن التاسع عشر ، وتحليل مسهب لأعلام المدرسة الحديثة .

وفى روسيا اليوم نهضة وثابة واهتمام كبير بالأدب العربى الحديث ، ويقود هذه النهضة الأستاذ كراتشفوسكى المستشرق الكبير ، وأول من درس فى الغرب البلاغة العربية العصرية درساً مطرداً ، وقد زار سوريا ومصر حوالى عام ١٩٠٨، وهو صديق حميم للأدباء المصريين ، وقد انتخب عضواً بالمجمع العلمى العربى فى دمشق فى عام ١٩٢٣، والقراء يذكرون ـ دون شك ـ أنه احتفل أخيراً فى « لينجراد » باليوبيل الفضى لدراسته اللغة العربية . وقد نشرت السيدة «فاسيلفا » أخيراً ـ تحت إشراف الأستاذ كراتشفوسكى ـ مختارات من الأدب المصرى الحديث، صدر بمقدمة نفيسة عن تطور البلاغة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر . والأستاذ بندلى جوزى ينشر الآن سلسلة أبحاث قيمة فى فترات متفاوتة على صفحات « المقتطف »، والذين يطالعون الأستاذ جوزى ، يحكمون بما للرجل من السعة والتبحر فى الآداب العربية والحديثة منها خاصة

وفى المانيا اليوم ، طائفة من المستشرقين ممتازة ، على رأسها الاستاذ كرامفاير رئيس الجمعية الألمانية للدراسات الاسلامية ، وأستاذ الأدب العربى بكلية اللغات الشرقية ببرلين ، وهو ينشر الآن كراسات دورية باللغتين العربية والألمانية عن الأدب المصرى ، وقد وضع أخيراً ـ بمساعدة الأستاذ طاهر ضميرى ـ كتاباً تحت عنوان «قادة الأدب العصرى»، وقد حوى الكتاب تراجم وتحليل لأسلوب كتابنا المعاصرين أمثال: الدكتور هيكل، والدكتور طه حسين، والأساتذة : مصطفى ، وعلى عبد الرازق ، وسلامه موسى، وعنان، والمازنى ، والعقاد ... الخ .

وفى الجامعة المصرية طائفة مختارة من المستشرقين المتشبعين بروح الآداب العصرية ، وعلى رأسها الأستاذ « ا . شادة » مدير دار الكتب المصرية السابق ، وأستاذ الأدب العربى بجامعة هامبرج ، كذلك الأستاذ شتراز برجر الألمانى ، والأستاذ باكستون المستشرق الانجليزى المعروف، ومترجم كتاب الأيام للدكتور طه حسين ، وهو مهتم الآن بوضع كتاب عن القصة المصرية وتطورها ومنتخبات قصصية لمشاهير الكتاب المصريين.

أما فى سويسرا ، فهناك الأستاذ ويدمار ، وهو يبدى غيرة ونشاطاً أكثر من غيره ، ويتولى اليوم نشر سلسلة كتب باللغة الألمانية عن الأدب المصرى الحديث ، حازت إعجاب المهتمين بالأدب العربى جميعاً ، وقد بدأ بدراسة اللغة العربية منذ ثمانية عشر عاماً تقريباً.

[البقية على الصفحة رقم ٤٨٧]

بناء العـــــش
فى مملكة الحيوان

بقلم الاستاذ محمد محمد السيد
مدرس العلوم بالمدارس الأميرية

العش هو المكان الذى تبيض فيه الأنثى وتربى فيه صغارها، وتختار موقعه دائماً فى أبعد الجهات عن الأخطار، حتى تضمن الأم لصغارها السلامة على قدر الامكان.

فى الحيوانات الرخوة (المحار والقواقع) تلقى الأنثى بيضها فى الماء بدون تفكير فى مصيره، وبدون أن تهيىء مكاناً ملائماً لاستقبال هذا البيض؛ ولذلك فاحتمال إنتاج هذا البيض قليل جداً، وكله يذهب تقريباً طعاما للحيوانات البحرية. ومن هنا كان عدد البيض كثيراً لصالح النوع.

أما الأسماك فتضع بيضها عادة فى قاع الأنهار والبحار بين الصخور وبعضها؛ فالسمك المعروف بـ(حوت سليمان) يحفر فى قاع المجرى حفرة ليضع البيض فيها، حتى يصير بمأمن من التيارات المائية ومن الأعداء. وبعض الأسماك كالزمير يصنع الذكر منه عشا جميلا من النباتات البحرية الملتصقة المنسوجة ببعضها؛ ويقود الأنثى إليه، فاذا ترددت دفعها تارة بفمه وتارة يجذبها من الذيل حتى تدخل العش وتبيض، فيلقح الذكر البيض بصب السائل المنوى عليه، وهو يكرر فى الأيام التالية نفس العملية مع أناث أخر يقودهن للعش أيضا حتى يحصل على عدد كبير من البيض من إناث متعددات، ثم يحرس البيض بيقظة وحماسة شديدتين، ويقاتل لأجله إن لزم الأمر.

والضفادع عامة تبيض على الحشائش البحرية، والماء ضرورى أثناء وضع البيض، ويوجد نوع من الضفادع (ضفدعة جزائر الملك سليمان) يجمع الذكر والأنثى بعض أوراق النباتات البحرية وتطبق على شكل كأس أو وعاء لاستقبال البيض الذى يوضع فيه ثم يترك فى مكان هادىء فى الماء حتى يفقس.

فى الطيور نجد غريزة بناء العش بلغت شأواً كبيراً من الرقى، والعش هنا يختلف باختلاف الظروف والوسط. فاذا كان الطير آمناً على صغاره وبيضه شر الأعداء صار العش بسيطا كما فى الطاووس، إذ يضع بيضه على الأرض، وكما تفعل بعض الطيور البحرية، فهى ـ لشدة اطمئنانها على بيضها ـ قلما تبيض أكثر من بيضة واحدة تضعها على حشائش فوق الماء آمنة عليها شر أى عدو أرضى.

أما الطيور التى تتعرض صغارها لأخطار كثيرة فتتفنن فى إخفاء عشها وإبعاده عن متناول الحيوانات المفترسة ، فبعض الأنواع الصغيرة تبنى عشها شبيها بالفرع يتدلى من فرع رفيع جداً فى أعلى شجرة ،حتى إن أجرأ القطط لا يمكنها المجازفة والسير على هذا الفرع ، وهو من جهة أخرى بعيد عن الأرض ، فلا يمكن لأى حيوان مهما كان بارعا فى القفز أن يصل إليه ، وقد شوهد أن فم العش يبنى أضيق من المعتاد فى الجهات التى تكثر فيها الطيور الكاسرة .

ومهمة بناء العش يقوم بها الزوجان ـ الذكر والأنثى ـ ولكن قد ينفرد بها الذكر أحيانا كما فى التنوط (طير)، فالذكر يبنى العش قبل الفوز بالأنثى، ثم يتنافس مع غيره من الذكور ، فاذا انهزم أمام غريمه ضاع تعبه سدى، وصار العش الذى بناه مأوى لغيره من الغرماء المنافسين .

وفى الحشرات كما فى الطيور نجد أنواعا متباينة من المساكن ، والقاعدة العامة أن تتخير الأنثى دائما الأماكن التى تأنس فيها الأمن لصغارها عند الفقس والغذاء الوافر لهم، فنرى مثلا أنواعا مختلفة من أبى دقيق تبيض على جذور النباتات ، أو على السطوح السفلى للأوراق ، وبعض الحشرات ـ لزيادة الحيطة والحذر ـ تبنى عشوشا خاصة لاستقبال البيض وحمايته وضمان حماية الصغار كما تفعل الزنابير المختلفة والنحل والنمل وغيرها .

وتختلف عشوش أنواع الزنابير المختلفة ، فبعضها تبنى عشها على شكل خلية، ولكن من الورق الذى تصنعه من ألياف الأشجار الممضوغة ، وتضع بيضها فيه ، وبعضها تعيش فى تجاويف الأشجار أو تحفر فى جدران المنازل لتبيض، وهناك أنواع كثيرة تبنى عشها من الطين.

كذلك تختلف عشوش النحل ، فبعض الأنواع تبنى عشها من الرمل الممضوغ ، مكونة خلايا كاملة بين الصخور وفى الشقوق، والبعض تنقب الأشجار ثقوبا على شكل الخلايا لتضع فى كل منها بيضها .

والنحل العادى يبنى عشه من الشمع الذى تفرزه أفراده الشغالة، وهو يكون منه أشكالا هندسية منتظمة سداسية الجوانب ، تضع الملكة فى كل خلية منها بيضة واحدة.

أما النمل فيحفر عشه فى الرمل أو التراب، ويمكن مراقبة هذه العملية فى الجهات الخلوية حيث نجد أفراده الشغالين منهمكين فى إزالة الأتربة من العش بكل نشاط ونظام .

والنمل الأبيض أو الأرضة (وهى حشرة اجتماعية تعيش فى أواسط أفريقيا) تعطينا فكرة عن مبلغ رقى بعض الحشرات فى فن المعمار والهندسة ، فاذا قطعنا مقطعا فى عش من مساكن هذه الحشرة (والعش عادة يبنى من الرمل الممضوغ ويفوق فى صلابته وتماسكه أجود أنواع الأسمنت) نجد أنه مكون من أربع طبقات : الطابق العلوى خال وجيد التهوية ، ويليه الطابق الثالث وهو مخصص للعناية بالبيض وفقسه على رفوف مهيأة لهذا الغرض ، ثم الطابق الثانى وهو عبارة عن بهو واسع محمل على أعمدة كثيرة، والطابق الأسفل يحتوى على الغرفة الملكية

التى تعيش فيها الملكة وزوجها سجينين ، وحول هذه الغرفة توجد عدة غرف للشغالة ، وعدة غرف أخرى مملوءة بالطعام المخزون .

وفى جدران العش توجد ممرات حلزونية للانتقال خلالها ، وفى أسفل العش توجد تجاويف منها أخذ الرمل اللازم لبناء العش ، ويبلغ ارتفاع العش كله نحو الأربعة أمتار .

لم نذكر شيئا عن المساكن التى تتخذها الحيوانات الأرقى لاقامتها ، ففى الحيوانات الثديية نجد الفيران البرية تنسج مسكنها من الحشائش وسنابل الحبوب ، والكلاب البرية تتخذ مساكنها فى حفر تحفرها فى الأرض ، وبعض أنواع القردة تبنى لها عشا من جذوع الأشجار .

ويمكن تقسيم العشوش التى تبنيها مختلف الحيوانات إلى أقسام ثلاثة :

١ — المحفورة فى الشجر أو الخشب أو الأرض ، وهى تقابل الكهوف التى كان يعيش فيها الانسان فى العصور الأولى .

٢ — المنسوجة من مواد خفيفة ، وهذه تقابل المساكن التى يقطنها بعض الهنود ، وهى منسوجة من القش ، وبيوت الشعر التى يسكنها العرب .

٣ — المبنية من الطين وما يشبهه من المواد ، وهى تقابل المبانى التى يتخذها الانسان المتمدين لسكنه .

محمد محمد السيد

المستشرقون بين الأدبين

[بقية المنشور على الصفحة رقم ٤٨٤]

وسر دراسته لها : أنه من رجال المذهب البروتستانتى ، والذين يفرض عليهم دراسة التوراة بلغتها العبرية ، وقد وجد أنه يلزم لدراسة اللغة العبرية ، دراسته للنحو والآداب العربية ، وهو فى ذلك تلميذ للأستاذين : مارتى وفيشر ، وعمله اليوم محصور فى تعريف الأمم الاوربية عامة — والألمانية خاصة — بالأدب العربى الحديث . وهو يريد التوسع فى مشروعه هذا فيجعله دراسة عامة للنهضة الحديثة وأبطالها ، واختار أعلام المدرسة الحديثة ليضع لكل منهم دراسة وافية خاصة ، ومن أجل هذا نشر أول كتاب له تحت عنوان « سلسلة دراسات عربية عصرية — محمود تيمور » ، والثانى عن الأمير شكيب أرسلان وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة .

وقد بدأ بالأستاذ تيمور ، نظراً لما له من الفضل الجم على القصة المصرية ، وما أحدثه أسلوبه فيها من إعجاب القراء ، وقد حوى الكتاب — الذى نحن بصدده — ترجمة مقدمة الشيخ سيد العبيط ، وهى المقدمة البليغة التى وضعها الأستاذ تيمور عن نشوء الأقصوصة وتطورها فى عالم الأدب عامة ، وعن البلاغة القصصية فى الأدب العربى خاصة ، ثم اختار بضع قصص : أمثال « صابحة ، وأبو عرب ، وأم زيان ، ومهزلة الموت ، والشحاذ ، واليتيمة » ، وترجمها إلى الألمانية ليوقف القراء على صورة صحيحة للقصة المصرية فى دورها الحالى ، وفى هذا — بلا شك — دعاية طيبة لنا يحق ان نقابلها بالانتاج المثمر والجهود الموفقة . فالعمل الذى يقوم به المستشرقون اليوم ، كان لزاماً علينا أن نقوم به ونتولاه بالعناية والاهتمام .

محمد أمين حسونة

أول مؤتمر فى الاسلام

وماذا أثمر ؟

درست – كما درس غيرى – شيئاً من التاريخ الاسلامى ، ومررت – كما مر الكثيرون – مر الكرام على نقط هامة من هذا التاريخ ؛ غير أنى أذكر أن نقطة أو نقطتين منه لم تنالا قسطا من الاهتمام كأخواتهما ، وإحدى هاتين النقطتين هى التى سأتكلم عنها فى بحثى هذا :

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهل المسلمون وأكبروا موته ، وتباينت أقوالهم فى الوفاة ، وكان لذلك الذهول الأثر الأكبر فى هذا التباين ، وكان لا بد للعاصفة من الخمود ، فما أن سكن روعهم وهدأ ثائرهم ، حتى انصرفوا إلى الجدى من الأعمال ، فأخذ بعضهم فى إعداد معدات الدفن ، واجتمع آخرون للتفكير فى مصير المسلمين ، وبين هؤلاء وأولئك نجد نفراً من كبار المهاجرين يفد على سقيفة بنى ساعدة – بعد أن اجتمع فيها الأنصار – لانتخاب الخليفة ، ولا نعلم من أمر هذا الاجتماع الشىء الكثير ، ولكننا نعلم أنه تكون من أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ، وأن تفردهم فى الاجتماع لم يكن عبثا ، فلا هم كانوا مع على وصحبه يقومون بواجبهم نحو الرسول الفقيد ، ولا هم حضروا اجتماع الأنصار منذ بدئه ، وما كانوا – وفيهم خيار الصحابة – بالذين يتوانون بلا سبب أو بسبب واه عن أحد أمرين مهمين كهذين .

إذن لقد اجتمعوا ، فماذا كان مدار البحث وعلام اتفق هذا الثالوث ؟ لنتقدم قليلا ، خطوة أو خطوتين ، إلى مؤتمر السقيفة نفسه فلعل فيه الجواب ولعلنا مهتدون إليه .

يقول المؤرخون إن عمر حاول أن يتكلم فى ذلك الاجتماع فمنعه أبو بكر وتكلم هو ، وها أنا ذا أدلى بكلمة عمر فى هذا الصدد كما ذكرها المؤرخون حرفياً :

« وقد كنت زورت مقالة قد أعجبتنى وأردت أن أقولها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الجد ، وهو كان أحلم منى وأوقر ، فقال أبو بكر : على رسلك ، فكرهت أن أعصيه وكان أعلم منى وأوقر ، والله ما ترك كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بديهة وأفضل حتى سكت » .

فهل كان أبو بكر يعلم الغيب أو كشف له عن القلوب حتى علم ما فى نفس عمر فقاله ؟ ! أو لا يجوز أن يكون اطلع على ما فى نفس عمر من ذى قبل ؟ قد يقول البعض إن المقام كان يستدعى ذلك الكلام الذى أضمره عمر وقاله أبو بكر ؛ ولكن أليس من الصعب أن لا تغيب عن أبى بكر نقطة مهمة كهذه كانت هى أول ما عن لعمر إذا لم يكن هناك سابق تفاهم ؟! ثم

لماذا تخلى عمر عن حقه فى الكلام بهذه السرعة ، مع أن موقفه كان للمصلحة العامة ؟ وبماذ إذن نستطيع أن نفسر كلمة «على رسلك» سوى أنها تعنى : أن تمهل ، فنحن متفقون وسأتولى الكلام عنك ؟. قد يجيبون بأن عمر فعل ذلك احتراماً لأبى بكر ، ولكن عمر ــ الذى ثبت أنه كان أحياناً يعمل بخلاف رأى الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يرى أن ذلك الخلاف أضمن للمصلحة العامة ــ ما كان ليأبه لأبى بكر فى سبيل تلك المصلحة ، إذ من يضمن له أن صاحبه سيتكلم عما يضمر هو ، لولا أنه كان على يقين من ذلك ؟ ثم بماذا أنهى أبو بكر خطابه ؟ لقد قال: «عليكم بأحد الرجلين: عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة عامر بن الجراح » أى إنه طلب منهم مبايعة رجل من رجلين ، أحدهما منعه عن الكلام قبل هنيهة ، وما هذه بالسياسة لو كان يدعو بالبيعة لعمر ، فمنذ برهة ينزله عن المنبر ، فلا يجد فيه مقدرة تامة ليسوس جمعاً من المسلمين ويقنعهم ، وبعيدها يجد فيه الكفاءة الكبرى لأن يقود المسلمين جميعاً ويحكمهم ، ولكن بماذا أجابه عمر ؟ كان جوابه أن ضرب على كفه بالبيعة وقال: «أيكون هذا وأنت حى ؟» ، وهكذا نفذ أول بند فى الاتفاقية ....

أما وقد وصلنا إلى هذا الحد ، فلنعد إلى الوراء قليلا ، لنرجع البصر كرة أو كرتين ، إلى بعيد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فكأنى بهؤلاء الأقانيم الثلاثة فى اجتماعهم يتحدثون .

ماذا جمعهم ؟ جمعهم الخطب الجلل والمصاب الجسيم بموت الرسول عليه السلام ، رأوا أن هذا الاسلام الرضيع بحاجة إلى من ينقذه من موت محتم يودى به فى المهد ، كما كاد يحدث ، فاستعرضوا أمامهم الشخصيات التى تصلح لذلك المنصب الخطير ، منصب خلافة النبى الأعظم :

العباس: نعم هو دوحة من الدوحات الهاشمية ، وعم النبى صلى الله عليه وسلم ، وشيخ من شيوخ قريش ، ولكنه حديث العهد بالاسلام يبعد أن يدين له من أسلم منذ عشرات السنين ، إذن فعلى : نعم هو ابن عم الرسول ، وزوج لبنته ، ولكنه فتى حدث يصعب أن يخضع له الشيوخ من القبائل ، وقد اعتادوا ألا يذعنوا إلا لطاعن فى السن وسديد فى الرأى . لم يبق إلا هم وخصوصاً أبا بكر ، فهو أول من أسلم ، وهو الصديق ، وحمو الرسول ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، ووكيله فى الحج والصلاة ، فأجمعوا على أبى بكر ، ولكنهم ــ وهم أصحاب عقول نيرة ــ لم يكتفوا بهذا الحد الذى وصلوا إليه ، فالاسلام تكتنفه الأخطار من أربع جهاته ، وحياة خليفة واحد قد لا تكون من الكفاية بحيث تنتشله من هذه الأخطار ، إذن فليبحث عن ولى عهد ، فكان أن عهد بها لعمر ، ثم بحث عن خلف لولى العهد فكان أبا عبيدة . وانفرط عقد الاجتماع وكان ما كان من أمر مؤتمر السقيفة وانتخاب أبى بكر . . . . .

والمنصف لا يستطيع أن يرى فى انتخابهم هذا أى مظهر من مظاهر إيثار النفع الخاص على النفع العام ، فانهم ــ والحق يقال ــ انتقوا فأحسنوا الانتقاء ، ولا أدل على ذلك من الوئام التام الذى ساد المسلمين فى زمنهم ، والأمن الذى استولى على داخلية البلاد إبان حكمهم ، ولقد استطاعوا فى الخلافتين المتتاليتين أن يصلوا إلى الغاية التى رموا إليها ، وهى إنقاذ الاسلام وانتشاله من الهوة التى كاد يقع فيها .

ولكن علياً الداهية فطن إلى ذلك الاجتماع ، واستطاع أن يدرك ما دار فيه فامتنع عن مبايعة أبي بكر مدى ستة أشهر، رأى بعدها أن لا بد له من البيعة، خصوصاً بعد موت فاطمة وتنكر الناس له ، فأرسل إلى أبي بكر يستدعيه للبيعة بمفرده « كراهية محضر عمر بن الخطاب» كما يقول المؤرخون ؛ولعله رضي بالأمر الواقع من ولاية إبى بكر، ولكنه حاول انتزاع عمر من ولاية العهد ليليها هو ، إلا أن علياً وجد لنفسه قرناً بعمر الذي أقسم على أبي بكر أن لا يذهب وحده، ولكن هذا ذهب قائلا لعمر : « وما عساهم أن يفعلوا بي والله لآتينهم » ؛ ولم يستطع علي – على رقة أبي بكر وسهولة انقياده– أن يقنعه بالتخلي عن رجل عاهده واعتقد فيه أنه أجدر من يلي الخلافة بعده ، فتوفي أبو بكر وقد عهد بالخلافة لعمر ، وهكذا نفذ البند الثاني . . . .

رأينا الظروف واتت هذا الحلف في القسم الأكبر من خطته ؛ فهل ياترى يقدر لها أن ينفذ القسم الباقي منها ؟

أصبح عمر خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، وعادت المياه إلى مجاريها بينه وبين علي،حرصاً منهما على السلام العام وجمع الكلمة ، وعادت « الكراهية » محبة ووئاماً، وغدا علي مستشار الحكومة القضائي ومرجعها في الهام من أمورها بمعونة كبار الصحابة،وكان قد بقي من الثلاثة واحد هو أبو عبيدة ، ثالث الزمرة ... نظر عمر حوله فرأى أنه يصعب عليه تحقيق برنامجهم القديم إذا لبث أبو عبيدة في منصبه مجرد دقائق ، بينما كانت لخالد بن الوليد المخزومي قيادة الجيوش ،فكان هذا أحد الأسباب التي دعت لتنحية خالد وتنصيب أبي عبيدة في منصب هو الثاني بعد الخلافة، يستطيع صاحبه أن يطمح إليها، وهكذا مهد له السبيل .

ولكن علياً من جهته كان يسعى دائباً –سواء لدى عمر أو عند سواه– ليكون خليفة عمر ممن يرجع إلى هاشم بنسب ، ويمت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالقربى.

وأبى القدر أن يذعن لأماني الثلاثة حتى النهاية فعاندهم، وتوفي أبو عبيدة قبل عمر، وبذلك حلت آخر حلقة من حلقات الاتفاق واعتبر في حكم الانتهاء .

وكان لسعي علي ووفاة أبي عبيدة أثر جعل علياً من ضمن الذين رشحهم عمر المنصب السامي ، ولكن عمر أبى عند وفاته — وقد رأى أنه لا يستطيع أن يترك المسلمين مطمئنين إلى خليفة واحد كما تركهم أبو بكر فيستطيع أن يقضي ناعم البال من هذه الجهة — أقول أبى إلا أن يذكر صديقه القديم الذي لو كان حياً لكفاه مؤونة كل ذلك، فقال «رحم الله أبا عبيدة لو كان حياً لاستخلفته عليكم » .

إلى هنا ينتهي بي البحث؛ وكل رجائي ممن رأى فيه مغمزاً لغامز أو مظنة لخطأ أن ينوه به وله مني شكري الوافر . ؟

عبد الرحمن أبو لبن
بكلية الحقوق بالجامعة السورية بدمشق

فلسفة العلوم الرياضية

بقلم الاستاذ أحمد فؤاد الاهوانى

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

قلنا فى عدد سابق من «المعرفة»(١) إن الرياضة كانت أولى العلوم التى وصل الانسان إلى تسجيلها، والنظر إليها نظرة علمية وضعية بعيدة عن السحر والخرافة، وقد وصلنا إلى هذه النتيجة من استقصاء التاريخ من ناحية، ومن الموازنة بين هذا العلم وبين العلوم الأخرى من ناحية أخرى؛ ثم رجعنا إلى أقدم الأمم التى عنى أهلوها بتسجيل العلوم والمعارف، وهم قدماء المصريين والأشوريون، ثم وازنا بين الرياضة وبين الفلك، وبين الطب وعلم الحياة، فوجدنا أن الفلك ظل يسمى علم التنجيم إلى عهد متأخر، نستطيع أن نقول حتى عهد كوبرنيق الذى أثبت أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وليس العكس. كذلك الكيمياء، فقد كانت عناية القدماء فى القرون الوسطى هى البحث عن تحويل المعادن الدنيئة: كالرصاص، والحديد، والزئبق، إلى المعدن الثمين وهو الذهب، كذلك الطب لم يصبح علماً بالمعنى الصحيح إلا فى أوائل القرن الثامن عشر بعد أن اكتشف «هارفى» الدورة الدموية.

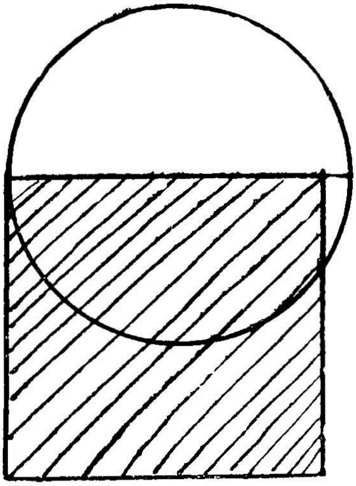
واعترض علينا الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى قائلا: إن الرياضة عندقدماء المصريين كانت مليئة بالسحر والخرافة، وهذا ينفى ما نذهب إليه (٢)، ونحن لا ننكر عليه هذا الاعتراض، لا ننكر أن شيئاً كثيراً من العلوم الرياضية لم يصل إلى درجة العلم الوضعى الصحيح كما يقول؛ ولكن هذا لا ينفى مطلقا أنهم عنوا بالرياضة أو بجزء من الرياضة، ونظروا إليها النظرة العلمية الصحيحة؛ فنحن نجد للآن قوماً بل علماء وكتباً حديثة يهتمون بالتنجيم، فهل معنى هذا أن علم الفلك كعلم غير موجود الآن؟ ونحن نجد الآن قوماً يعالجون أنفسهم بالاحجبة والتمائم والرقى — وهذا موجود فى أوربا كما هو موجود فى مصر — فهل معنى هذا أن علم الطب غير موجود؟

الواقع أن العلم والخرافة يسيران جنباً إلى جنب من القدم حتى الآن، ولكن الانسان أول ما بدأ، بدأ بالخرافة والسحر، حتى كانت أول نظرة علمية وجه الانسان إليها نظره، هى النظرة إلى الرياضة، وهذا ما يدلنا عليه التاريخ، وهذا ما نريد أن نعلله الآن.

ولكن هذه النظرة العلمية كانت عملية — كما قلنا — أكثرمنها نظرية، فقد اكتشف قدماء

---

(١) مجلة «المعرفة» السنة الثانية الجزء الثانى يونيو سنة ١٩٣٢ (٢) راجع العدد الثالث: يوليو سنة ١٩٣٣ من السنة الثانية.


شكل (١)

المصريين مساحة الدائرة على أنها مربع ثمانية أتساع قطر الدائرة ، وهذه المساحة على وجه التقريب صحيحة إلى حد كبير، ولكنهم وصلوا إليها بالتحسيس لا بالنظر (شكل ١).

كيف كانت الرياضة إذن هى أولى العلوم التى وصلت إلى درجة الوضعية ؟ هذا ما سنحاول أن نجيب عليه :

العلم الوضعى هو العلم الذى ننظر إليه من ناحية الكم (١) أو الكمية ، وبمعنى آخر ناحية الكم التى ينظر إليها الناس جميعاً نظرة واحدة لا اختلاف فيها ؛ فالعلم الوضعى إذن هو محاولة تقييد الكيف (٢) فى صورة الكم ، فهو محاولة التخلص من النظرة الكيفية الشخصية، والاحتفاظ بالنظرة الكمية الموضوعية .

وهذا هو العلم الحديث . العلم الحديث يريد أن يكون موضوعياً، ويريد أن يتوجه إلى كل العقول بشكل واحد ، ذلك أن عقل كل إنسان يدرك الأشياء ويحكم عليها أحكاماً تقديرية ، ولن تجد شخصين يدركان الشىء الواحد بطريقة واحدة ، وقد يشك قارىء فى هذا القول ، ولكن الواقع أنك لا يمكن أن تعثر على شيئين فى الطبيعة متماثلين تمام التماثل ، لأنهما لو تشابها تماماً فى كل ذرة من ذراتهما لأصبحا شيئاً واحداً ، وهذا ما يعبر عنه « ليبنتز » ، الفيلسوف الألمانى الكبير فى جملته المشهورة « لا يوجد ورقتان فى شجرة واحدة فى غابة واحدة متشابهتان تمام التشابه » (٣) ، فاذا كان العثور على شيئين متشابهين فى المادة مستحيلا، فالمسألة أكثر استحالة فى عالم الصور ، وإذن فلن تجد صورة فى ذهن شخص عن شىء ما ، هى بنفسها صورة ذلك الشىء عند شخص آخر .

فالعلم يحاول التخلص من هذه النظرة الشخصية المختلفة ، والرياضة هى علم الكمية نفسها . وأنت إذ تحاول أن تجعل علماً من العلوم ـ كالطبيعة أو الكيمياء أو الفلك أو الميكانيكا ـ علماً وضعياً بالمعنى الصحيح ، فانك تصرف النظر عن الناحية الكيفية الشخصية فيه ، وتحتفظ بالناحية الكمية ؛ وقد قلنا إن الرياضة هى علم الكم الخالص ، إذن أنت تختزل هذه العلوم لتعبر عنها فى صورة رياضية ، فالألوان فى الطبيعة تعرف بطول موجاتها وعدد ذبذباتها ، كذلك الأصوات ، والتفاعل فى الكيمياء يعرف بمعادلات جبرية . . . الخ . فالألوان ، والأصوات وغيرها أصبحت تعرف بالأرقام الرياضية .

ولم تصبح الرياضة علماً فى يوم وليلة ؛ فقبل أن تكون الرياضة علماً يبحث عن الكمية ،

[1]Quantité. [2]Qualité. [3]Monadologie.

كان قبل ذلك فناً عملياً شخصياً ؛ فالانسان المتوحش لا يعرف العدد أكثر من خمس ، وهى عدد أصابع يديه ، وفيما عدا ذلك فانه لا يعرف الحساب ، ولكنه يدرك صوراً ذاتية ، مثله فى ذلك مثل الحيوانات؛وإليك قصة الفرخة التى تعد صغارها ـ وكانوا سبعة عشر واحداً ـ فانها تعرف أن قد نقص منها واحد ، فكيف عرفت ذلك وهى لا تعرف ما الوحدة ، لأن إدراك الوحدة يتطلب عمليات عقلية راقية،وهى لا تدرى فى الحساب شيئاً ؟ ذلك أنها تحسب نتيجة لمدركات ذاتية (١) ، فالسبعة عشر كتكوتاً صورة بنفسها ، والستة عشر كتكوتاً صورة أخرى ، كذلك كلاب الصيد التى ترعى قطيع الغنم ، إنها تدرك لأول وهلة أن قد نقص من القطيع واحد من الخراف،فهل معنى هذا أن الكلب يعرف الحساب والعدد ؟ كلا ، ولكن المسألة تنحصر فى أن فى ذهنه صورة عن القطيع بأكمله ،



(شكل ٢)

فاذا نقص منها شيء أدرك أن هذه الصورة ناقصة،مثله فى ذلك مثل من يبصر دائرة كاملة المحيط، وغير ناقصة كما فى شكل (٢) .

قيمة الرياضة بالنسبة لنظرية المعرفة

إن الأسس التى يقوم عليها علم الرياضة ثلاثة :

١ ـــ التعاريف(٢) .

٢ ـــ البديهيات (٣) والقضايا المسلم بصحتها (٤) .

٣ ـــ البراهين الرياضية (٥) .

والقسمان الأولان يعتبران تمهيداً بالنسبة للبرهان الرياضى ، والتعريف معروف ، ومثاله تعريف النقطة الهندسية فهى : كل ما له وضع مجرد عن الطول والعرض والارتفاع .

والبديهية هى : التى يدركها العقل لأول وهلة ، ولا يحتاج التسليم بصحتها إلى برهان أو دليل ، مثل الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية .

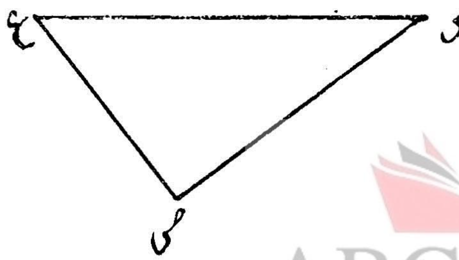
أما القضايا المسلم بصحتها ، فهى أقل وضوحاً من البديهيات ، ولا يمكن إدراكها بنفسها. وإليك الثلاث قضايا الاقليدية المشهورة (نسبة إلى إقليدس) :

---

[1]Perception qualitative. [2] Definitions. [3]Axiomes. [4]Postulats. [5]Démonstrations.

١ — لا يمكن أن نرسم إلا مستقيما واحداً بين نقطتين .
٢ — الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين .
٣ — من نقطة واحدة لا يمكن أن نرسم إلا موازياً واحداً لمستقيم معلوم.

هذه هى البديهيات والقضايا المسلم بصحتها التى تقوم عليها هندسة إقليدس ، والتى ظللنا نتبعها إلى اليوم ، وهى التى تدرس فى مدارسنا إلى الآن ؛ ولا بد فى البراهين الرياضية ، أو فى أى برهان ، أن يعتمد الانسان على بديهيات يسلم الانسان بصحتها دون حاجة الى دليل ، وهذه مسألة منطقية ليس مجال شرحها هذا الموقف ؛ ولكن ما الذى يدعونا إلى التسليم بهذه البديهيات،والقضايا المسلم بصحتها ؟ إنها لا تصلح إلا فى عالم خاص،وهو عالم المسطحات ؛ أما الكرويات فلا تصلح لها ؛ وأنت تعلم أنك تعيش على سطح كرة ، فالنتيجة أن الهندسة الاقليدية أصبحت لا قيمة لها ، ولبيان ذلك نقول : إذا فرضنا أنك فى مكان ـ وليكن طرف غرفة مستطيلة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة ـ فاذا كنت فى س، والمسافة من س غرباً إلى ص أربعة أمتار ، ومن ص شمالا إلى ع ثلاثة أمتار ، فما هى المسافة بين س ، ع



(شكل ٣)

تبعاً لنظرية فيثاغورس ؟ هذه المسافة تساوى جذر مجموع مربع الضلعين س ص ، ص ع، أى $٤^٢ + ٣^٢ = ٥^٢$ ، فالمسافة تساوى خمسة . ثم هنا مسألة أخرى ، وهى : أن مجموع زوايا هذا المثلث يساوى قائمتين ، ولكننا إذا اتخذنا نقطة على سطح الأرض ولتكن القاهرة مركزاً ، واتجهنا شمالا إلى برلين ، ومن برلين غرباً إلى باريس ، ونحن نعرف المسافة من القاهرة إلى برلين ، والمسافة من برلين إلى باريس ، فهل نستطيع معرفة المسافة من القاهرة إلى باريس ، وهى التى تكون وتر المثلث ؟ كلا ، لأن هذا المثلث لن يكون مجموع زواياه قائمتين بل أكثر ، ذلك أن الخط من القاهرة إلى برلين ليس خطاً مستقيما ، ولكنه خط منحن ، هو قوس دائرة مركزها مركز الكرة الأرضية ، لأن الأرض كرة ، وجميع الخطوط المرسومة على سطح الكرة تكون أقواساً كبيرة ، وكلما اتسع المثلث كلما زاد مجموع زواياه عن قائمتين ، وعلى ذلك لن تفيد نظرية فيثاغورس فى حل هذه المسألة شيئاً .

سقطت إذن هندسة إقليدس !!

وهذه الهندسة كانت قائمة على بديهيات وقضايا مسلم بصحتها من هذه القضايا، وهى القضية الثانية كما مر عليك : إن الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين ، ولكن هذه القضية لا تصلح فى كل الظروف،وفى كل زمان ومكان ، إذ أنه فى الهندسة الجديدة ، القضية المسلم

بصحتها هى: أن الخط المنحنى أقصر طريق بين نقطتين ، فأقصر طريق بين القاهرة وبرلين هو قوس دائرة ، لأنه لو كان خطاً مستقيما لاحتجت أن تشق الأرض ، وهذا مستحيل .

هذه هى الرياضة ـ أدق العلوم وأضبطها وأبعدها عن الشك فيها ـ أصبحت موضع التعديل والتجريح كما رأيت من هذا المثل البسيط ، فما هى قيمة الرياضة ؟

عندنا ثلاثة آراء هى :

١ ـــ الرياضة ـ وهذا هو رأى بوانكاريه العالم الرياضى الفرنسى ـ هى من ابتكار عقولنا Construction de l'esptit .

٢ ـــ الرياضة علم الحقيقة والواقع .

٣ ـــ ليس للرياضة ظل من الحقيقة .

تلك هى الآراء الثلاثة عرضناها سريعاً على أن نناقشها فيما بعد ؟

أحمد فؤاد الأهوانى

خواطر ونقدات

ضحايا الجمود

خواطرى حزينة ، ذلك لأنها تتناول تلك الطائفة من أبناء آدم ، الذين فرض عليهم الفقر ، وضربت عليهم المسكنة . فهم فى هذه الحياة من أتعس خلق الله ، ذلك لأنهم يرون حقهم صريعاً أمام باطل الرجعية الغشوم ، والجمود الممقوت، فلا يملكون إلا دمعة يذرفونها ، وإلا حسرة تحز منهم الصدور .

هم بؤساء بكل ما فى الكلمة من معان ، وليس لمثلى ـ والعين بصيرة واليد قصيرة ـ إلا أن يذكرهم بكلمة ، وإلا أن يسأل الله لهم فى محنتهم جميل العزاء .

هذه الطائفة التى أعنيها ، وتلك الفئة التى أحاول أن أواسيها ، ليس منا إلا ـ من هو بحالها وما هى فيه من شقاء ـ عليم ، ولكنه الضعف ـ أجارك الله ـ ما لحق بجانب إلا وكانت عليه الغلبة ، وكان عليه التسليم . ومع ذلك فلا نزال نتحدث عن الحق وما إلى الحق ، ونتمشدق بالحرية ، وما إلى الحرية ؛ وما الباطل فى حدته ، والظلم فى شدته إلا من عمل الانسان « قتل الانسان ما أكفره » .

عمار إلى خراب ، وخصب إلى بوار ، وهكذا يطوح بقوم ـ لا ذنب لهم ـ إلى هاوية الهوان والاعسار .

وكم هو غريب أن يجد هذا البلاء منا من يدافع عنه باسم الدين ! حاشا يا هؤلاء أن يكون الدين أداة بؤس وعذاب ، وحاشا يا هؤلاء أن يكون الدين عامل خراب .

هذه الطائفة التى أحدثك عنها هى طائفة المستحقين فى الأوقاف الأهليـة ، وما أكثر من ينتمى منهم الى أقدم البيوتات ، وهم فى حياتهم الخاصة يعانون الكثير من المتاعب والالام .

أفتريد دليلا ، هاك الدليل :

هناك فى المنصورة ، وعلى شارع البحر ، حيث المحكمة الجزئية ، هناك وفى أصقع مكان ، تجد مكانا فسيحا يتمثل فيه الخراب ، فهو مأوى البوم ، وموطن الهوام ، هو فى القوانين السماوية ملك للناس ، وهو فى القوانين الوضعية ملك للحكومة ، ومن عجب أن يعلو قانون الأرض قانون السماء ، حجة الوقف صحيحة فى موضوعها ، صريحة فى حدودها ، ولكن المكان برغم هذا ملك للحكومة ، بماذا ! بمضى المدة ! ! وبهذا يقول القانون الذى هو من صنع الانسان ، وهكذا بين حمق الواقف وتصرف الناظر تضيع الأعيان ويشقى الأحفاد .

وهناك ـ وفى نفس هذا البلد ـ شارع يكاد يكون من جانبيه تابعاً لهذه الأوقاف ، ولكنها أشباه أبنية ، فهى ليست بذات إيراد ، وليس هذا فقط ، بل لهؤلاء المستحقين ضيعة (موقوفة) تبلغ المائتين والستين فدانا ، ولكنها أصبحت ـ لأنها أوقاف ـ تكاد لا تنتج أكثر من أموال الحكومة ، وما من شك فى أن هذه الأملاك الواسعة لو تركت لأصحابها لكانوا فى بسطة وهناء .

أرأيت إلى أى حالة خطيرة تنتهى مضار الأوقاف ؟ أيعقل أن يقف الدين فى سبيل العمران ؟ أيفرض الدين البؤس فرضا على الناس ؟

يحكى ـ وهنا يبرز المثل العامى ـ (يفتى على الابرة ويبلع المدنة) ، أنه ذهب رجل إلى جاره وكان من العلماء (إياهم) وسأله : ما قولك فى حائط بال عليه كلب ؟ فقال العالم : لابد من هدمه ، فأطرق الرجل وقال : إنه الحائط الذى بين دارينا ، فما كان أسرع العالم أن قال : أو يصب عليه الماء ! !.

وألف رحمة . . . . يا شجاعة العلماء .

أحمد منصور
مدير إدارة « المعرفة »

الرجل الشاعر الفنان :

حافظ ابراهـــــــيم

... إذا كانت الدنيا لم تحبس عنه لوناً من ألوانها المشرقة ، فانها فى صدر حياته قد ألزمته مواطنها القاتمة السوداء ؛ كما على أنه فى سرائه وفى ضرائه كان الرجل الممراح، لا عن تبذل، ولا عن إسفاف ؛ وكان الرجل الضحوك ، لا عن عى فى وزن نفسه ، ولا عن ضيق فى فهم مشاعره ، ولا عن خفة تساير خفة الطفولة ، ونزق المعتوهين . . . وكان الرجل الأنوف الذى لم يلبس فى حياته مسوح الضعة ، ولا أثواب الهوان ؛ وكان الرجل الذى خلق ليتصدر الأنداد فى غير اعتساف ، وفى كثير قصد عن نشدان الصدر والقمة ؛ وكان الرجل الذى يرى كل شىء فى العالم على ضوء نفسه ، لا على ذلك الضوء الذى يشع من آفاق قريبة أو بعيدة ، آفاق الذين يملكون زمام الجاه . . وأعنة الأمور . . . وكان الرجل الوفى الذى لم يتبرم بود ، ولم يسع إلى هدم إخاء ، ولم يدع إلى تقويض أصرة تصله بصاحب ؛ وكان الرجل الشريف الذى لم يدنس لسانه بالطعن فى عورات الآخرين ؛ وكان الرجل الأبى الذى لم يسع إلى ذى سلطان ليضع خصائصه فى كنفه ، أو تحت ظل جناحه الوارف . . . !

ثم :

ثم كان الشاعر الذى لم يكن « شيطانه » إلا ملكا ، ولم يكن أفق خياله إلا فلكا ، يسبح فى الخضم فلا يتيه ، ويجرى على صفحة الغدير فلا يتعثر . . . ويطوى هوج الموج ، بهذا اليسر الذى يطوى به الجدول الرقراق . . . ، وكان الشاعر الذى اكتنزت العصور الآتية له نتاجاً قل أن يذوى ما فيه من سحر ، وقل أن يثوى ما فيه من أثر ، وقل أن يمضى إلى الفناء ما فيه من جلال ، وقل أن ينتهى ما فيه من إمتاع وطرب . . . .

كان شعر حافظ مزقة من عاطفة حافظ ، وهى العاطفة التى طلعت على الدنيا من بين أنياب الذوبعة . . ذوبعة الضيق ونضوب اليد ، فكانت حافلة بألوان الخير ، وكانت جياشة بكل ما فى الحياة من حقائق ، وكانت لها سلامة فى الذوق ، ودقة فى التوجيه ، ورقة فى كشف كل خبىء . . . وهذه العاطفة هى التى أوحت إلى حافظ ، أن يرسل إلى الناس دفين ما اكتوت به نفسه من تنكر الأيام وجحود الزمن ، دون أن يضن بهذا الدفين ، ودون أن يقف فى ذمة بذله مكتوف اليدين . . .

ألا فانظر إليه يكشف عن حقائق نفسه فى قوله



حافظ ابراهيم
فقيد الشرق والعربية

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما   وعدت وما أعقبت إلا التندما
سـلام على الدنيا سـلام مودع   رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما

ألا إنه قد ساير عواطفه ، فتناول براعته القادرة ، واصطحب «شيطانه» النفاح،ليشرك معه فى شهود حياته كل من تحمل الأرض . . . وهل ذلك إلا الصدق فى التوجيه ، وإلا الايمان بملابسة الحقيقة مهما تكن ثقيلة مضنية ؟

كان شعر حافظ زمرة من جماعات مواهبه التى أدركها كل من قرأ له أو جلس إليه فأمتع نفسه بساعة من ساعات أحاديثه الباقية على الزمن ، وهكذا عرف شعره بالسلاسـة والجزالة والرقة والسهولة والأمتاع والروعة ، كما عرف حديثه بالظرف ، والأناقة ، والرشاقة ، والنفاذ إلى قرار الصميم . . .

ثم . . .

ثم كان الفنان الذى ازدحمت حياته بألوان الفن كلها . . . كان كاتباً يقتنص اللفظة الأنيقة ليودعها المعنى المنطقى الحاسم ، وكان « اجتماعياً » لا تفوته لوثة من لوثات المجتمع إلا مضى وراءها بقلمه ، وكان « محدثاً » لا يتبرم به لون من ألوان الحديث،فله حين يجد الجد جولات فى القول قلما يستطيعها أحد من أشياعه ، وكان حين يتألق فى الأفق ضوء التندر رجل الفكاهة وواحدها . . . وكان خطيباً لم تعرف المنابر صوتاً أرسل الشعر فى مثل سياقه ، ولا فى مثل نهجه ، حتى ليقولون إن « سعداً » يرحمه الله ـ على فرط تفوقه بين الجماهير كخطيب مصقع ـ رغب إلى «حافظ» ـ فى كلمة من كلماته الفكهة ـ ألا يخطب الجماهير نثراً .. حتى لا « يعطل» عليه « الصيت البعيد . . ! ! » ؛ وكان « موسيقياً » بينه وبين نفسه،حتى ليعرف عنه خاصته أنه حين يريد القريض لا يجمعه إلا من أذنه . . . تلك الأذن التى كانت تزن ما يردده لسانه من قول . . ! وكانت حياته آخر الأمر صورة من حياة الفنانين ، ففيها حرص على المتعة فى غير تبذل ، وفيها استخفاف بالدنيا ، أى استخفاف ، وفيها نزوع إلى عيشة « الحرية » التى يحرص عليها كل فنان ، وفيها إلى ذلك تجويد لـكل شىء ، ونفاذ إلى كل شىء . . .

* * *

وما نحسب أننا نرضى فقيدنا العظيم بهذه الألمامة السريعة ، وتلك النظرة العجلى ، فان فى حياته دراسات مستفيضة ، وظواهر تدعو القلم إلى أن يجول ، ويجول ، دون أن يبلغ فى تمحيصها الشأو . .

ولـكنها إلمامة سريعة لا نستطيع إلا أن نرسلها فى غمار تلك الدموع التى سكبها عليه الناطقون بالضاد . . .

رحم الله حافظاً ، وأوسع له فى رضوانه . . . .

مملكة المرأة والبيت

ما يهم المرأة

بقلم الاديب عبد الحميد العمروسى

١ — الفتاة فى بيت أبيها

الأمنية الأولى للفتاة أن ترى نفسها زوجة ، كما أن الأمنية الأولى للفتى أن يكون رب أسرة ...

فهل نشطت الفتاة ، وسعت السعى الحثيث فى التمرن على كل ما تقتضيه الحياة الزوجية ؟.. وهل نشط الفتى ، وبذل الجهد فى سبيل إعداد العدة للحياة التى سيخوضها يوماً ما ؟

أما الفتاة، فمن يوم أن تدرك إلى يوم أن تزف ، نراها قد أتقنت أموراً ، وأهملت أموراً؛ أتقنت أموراً كمالية ، وأهملت أموراً على جانب كبير من الأهمية . وعلى العكس من ذلك الفتى، فنراه يقضى حياته الأولى جاداً ساهراً ، مستعذباً الآلام فى سبيل تهيئة كل ما من شأنه إدخال السرور واللذة على المرأة التى ستشاركه ، فمن أجل إرضائها ، ومن أجل كسب عطفها ، يزاحم بمنكبيه فى معترك الحياة غير هياب ولا وجل ، فى حين نراها لا تفكر فى إنعاش هذا الذى سيشاركها ، ولا تفكر فى أنه سيحتاج إلى عونها ومساعدتها ، ولا تفكر إلا فى أنه سيكون أداة لاشباع نهمها ، ووسيلة لتنفيذ مآربها ، وجلب ما يبهجها هى فقط .

نعم . نراها فى بيت أبيها لا تعنى إلا بالكماليات ، فتجيد العزف على البيانو ، تجيد سرد الروايات التمثيلية الهزلية ، تجيد ترتيب الأدوار الغنائيـة ، تجيد الثرثرة الكلامية ، تجيد الوقفة أمام المرآة : وتحمير الخد والشفاه ، وصبغ الأصداغ والجباه ، تجيد اللف والتزاور باذن أو بغير تشاور .

بينا نراها تجيد هذه الأمور ، إذ بها تجهل جهلا تاماً القواعد الأساسـية التى هى من مكونات الحياة الزوجية ، فتزف إلى زوجها وهى قليـلة الخبرة ، بل عديمة التبصرة بالعمل المنزلى ، وذلك نقص لا نغتفره للفتاة أولا ، ولا لأمها ثانيا ؛ وذلك أن الأم لم تعود ابنتها من صغرها على مزاولة شئون البيت ، ولم تجبرها على مشاركة الخادمات والاشراف عليهن . وأحب أن أعرف الأسباب التى تجعل الأم تتهاون وتتراخى فى تمرين ابنتها عملياً فى مدرسة

البيت . هل هذا عار؟ هل فيه إرهاق للفتاة ؟ لا . لا. أيتها الأم ، إن فتاتك ستتزوج،ستمسى وتصبح وترى نفسها فى منزل جديد ، وأمامها مهام تتطلب اليد الماهرة ، والعين الباصرة ، والخبرة التامة ...

فهل يرضيك أن تقف ابنتك مكتوفة اليدين والأعمال فى حاجة إلى التنجيز ؟ أيرضيك أن تقدم فتتلف ما أقدمت عليه ؟ أيرضيك أن يلمس الزوج هذا النقص فى ابنتك فتسقط من عينه ، وتنجرح مكانتها فى نظره،ويفتر ميله إليها ، ومتى أحست منه ذلك ابتدأ عدم اكتراث كل بالثانى ، ثم الاحتكاك لأوهى الأسباب ، ثم اشتعال النار وإحراقها الصلة الشرعية والرباط المقدس ؟...

أيتها الأم ! إن الحياة الآن حياة عمل لا حياة زخرفة ، حياة مادية لا حياة روحية ، فليكن لابنتك نصيب من عنايتك .

٢ — الفتيات العاطلات

يذهب الصبى إلى المدرسة أو المصنع ليمهر ويتعلم ، ثم يصبح ذا عمل منه يكتسب ، ومنه يقتات ، ومنه يعول أسرته . فاذا مرن وتعلم ثم لم يجد له عملا سمى عاطلا . فالعمال بلا عمل عاطلون ، والمتخرجون فى هذه الأيام عاطلون ، ومثلهم فى ذلك مثل الفتاة ، فلها مطمح هو الزواج ، ولا تصل إليه إلا بعد البلوغ ، ودون الوصول إليه قد تذوق الشدائد ، وتلاقى الصعاب ، وكلما مرت سنة اعتقدت أن مطمحها قرب منها مرحلة ،فيداخلها السرور،ويغمرها الابتهاج ، وتعلو فى سماء الخيال ، وهكذا إلى أن يتراءى لها أن ليس بينها وبين الزواج إلا قاب قوسين أو أدنى ، فتذهل سروراً وابتهاجاً ، ثم لا تلبث أن تفيق من نشوتها فترى الحقيقة المرة ، ترى بعداً شاسعاً بينها وبين مطمحها الذى عاشت تحبو إليه ، وتأمل فيه ، فتذبل نضارتها ، وينطفىء قنديلها ... وبذا يمكن أن يقال : إنها فتاة عاطلة .

وإذا كنا نرى ونسمع أن جيشاً عرمرما من الفتيات عاطل ، فمن السبب فى عطلتهن يا ترى؟ إن السيدة الفضلى والمربية الكبرى « نظلة الحكيم » ، تعزو السبب إلى الأمهات،وإنا نعزوه إلى الآباء ، وبرهاننا على ذلك ما يأتى :

إن العوائق منها ما يرجع الى الحكومة وقوانينها ـ وهذه لا نتعرض لها فى بحثنا ـ ، ومنها ما يرجع الى الأبوين ـ وهى موضوع كلامنا ـ...وهذه العوائق التى ترجع الى الأبوين يمكن حصرها على جهة التقريب فى : بهرجة الفتاة،والافراط فى المصادقة ، والنظر الى الخطيب كمنبع للمادة فحسب ، والضرب صفحاً عن الأخلاق والسن والميل ، والمغالاة فى المهور والشبكة ، وعدم اكتراثها بالزوج ومطالبه ، والتباهى عليه ، وجهلها بشئون البيت ، وضعفها النفسانى المؤدى بها إلى السقوط والزلل ... وإن كانت هذه هى أهم العيوب فأحر بالرجل

وحده أن يستطيع تلافيها . . . المعروف أن المرأة خادم مطواع للرجل، أن المرأة قليلة البصر بالعواقب ، أن المرأة أحوج ما تكون إلى إرشادات رب الأسرة وتلقى نصائحه للسير على مقتضاها ، أن المرأة لا تستطيع الاستقلال بالشئون دون الاسترشاد ببعلها ، فاذا كانت المرأة بهذه الصفات ، فلماذا نحملها تبعة بطالة الفتيات ؟ إنها لم تبلغ بعد درجة تستأهل فيها أن تتحمل تبعة أمر ما ، فما بالك بالأمور الجسام ؟ . إن الرجل هو الذى تهاون فى سيطرته، تهاون فى ترك الحبل على غارب امرأته ، هو الذى لان أمام خداعها ، فألقت السلطة فى يدها فتنمرت عليه ، وأخذت تسبح فى كل ما تشتهيه عن حمق وقلة بصر ، فيؤدى بها الاشفاق على ابنتها إلى أن تسرف فى عدم المراقبة ، إلى أن تمنعها من مباشرة أى عمل منزلى ، فتشب البنت جاهلة أعمال الرجل ،وأخلاق الرجل ، وأمانى الرجل ، فاذا ما تزوجته كان البون بينهما شاسعاً ووراء هذا البون ما وراءه من شقاء فنفور . . . .

أجل : يخاف الأعزب من الوقوع فى هذه الكارثة التى وقع فيها زميله فيمتنع ، وحق له أن يتمنع .

فالرجل كان فى استطاعته أن يشعر المرأة من يوم أن دخل بها بأنه المسيطر المطلق ، وبأنه لا يتهاون فى تقصير امرأته ، وبأنه يجب أن يطاع ، وبأنه لا يبغى من وراء ذلك إذلالها ، ولكن ليضمن وحدة الأسرة ، وجمع شملها . ويقينى أن المرأة التى تحس من زوجها هذا الشمم تقدسه ، وتعظمه ، وتجله ، ولا تقف فى سبيل رأيه ، وهو الأحكم رأياً ، والأصوب مقصداً ، فتشب البنت وقد اقتبست من أمها الطاعة ، والتفانى فى إرضاء الرجل ، وتوقيره ، وتوفير أسباب الراحة له .

وإذا كانت الأم بهذه الدرجة فى توقير بعلها والانصياع له أمكنه أن يرشدها الى كيفية تقويم البنت ، فتدفعها ثقتها فيه الى تنفيذ كل ما يشير به ، وبذا نضمن بنتاً كملت أخلاقاً ، ومهرت يداً ، وهل يريد الشاب الا زوجة كهذه ؟ . . . .

على أن هناك أمراً آخر كان سبباً فى التفريق بين الزوجين ، وبالتالى كان سبباً فى إخافة من يتزوج . . . ذلك الأمر هو أن الأم – لجهلها وقلة بصرها بالعواقب – تدفعها الشفقة الحمقاء الى دفع ابنتها فى تيار المعاكسة لزوجها ، وكيفية ذلك :

المعروف أن فتاتها لم تختلط بهذا الشريك قبل الزواج إلا لماماً ، أى أنها لم تتفهم خلقه ، ولم تتبين بعد مراميه ، وهو كذلك لم يختبر نفسيتها ولم يقف على منازعها ، ولا على مهارتها أو جهلها ، فمن الطبيعى إذاً أن يقع بعض الخلاف فى الرأى . . . هو بما يشعر فى نفسه من السلطة والارادة يحاول أن تسمع رأيه ، وهى بما يغلب على طبيعتها من العاطفة تعاند وتكابر ، فتقع الاساءة من أحد الطرفين ، فتذهب غضبى ، وتهرول شاكية لأمها ؛ وهنا يكون الخطر الناجم من حمق الأم ، إذ يدفعها حنوها الى التهور فتثور وتغضب وتقول: كيف يقول لك كيت وكيت؟

كيف يفعل معك كيت وكيت ؟ . . . . تسمع البنت ذلك فتغلظ أذنها ، ويهيج فيها الحرص على المدد ، وينمو عدم اكتراثها بزوجها ، فتستعصى عليه ، ويسوء الحال حتى ينتهى بالدمار.

فهل السبب فى ذلك الأم ؟ . لا . بل الأب ، والأب وحده ، فهو رب البيت ، وقد يستطيع أن لا يمكن ابنته من العودة إلى بيته غضبى مرة ثانية ، فينهرها ويردها لزوجها ، ولا يبالى بأمها ما دامت ترى فيه قوة السيطرة ، وفقط يتقابل وزوجها ، ويكلمه بالحسنى ، ويبين له ـ ولو ظاهراً ـ أنه ليس زوجاً لها فحسب ، بل زوج ، وأب ، وأم ، وأخ فى آن واحد . فبمثل هذه الطريقة تمتنع البنت عن إثارة خاطر زوجها ، وعن إغضابه ، ومشاكسته مرة ثانية ، وهو يمتنع من تلقاء نفسه عن كل ما يسوؤها ، أو يجرح إحساسها ، وبذا يهنآن وينعمان ، ويرفرف كلاهما بجناحى الرحمة على صاحبه . . . فإذا كان الأب قد تنازل عن هذه السلطة وترك الأمور لامرأته وهذه تسير ابنتها فى هوج وحمق ، كان هو الملوم دونها مهما فعلت ، ومهما ترتب على فعلها من عواقب وخيمة .

وكل رجل يتسبب فى ضياع هيبته ونفوذه من البيت ، كان جديراً بأن يضع الخمار على وجهه ، ويدع امرأته تطأ ظهره ، وتصفعه على قفاه ، كان جديراً بأن يتخنث ويدع امرأته تترجل.

هذا هو الرأى ، فلسنا نعد المرأة مسئولة ، وهى لم تبلغ بعد درجة المسئولية ، فهل لكبيرة المربيات المصلحات إبداء رأيها على صفحات « المعرفة » ، الذى كانت قد أزمعت إبداءه فى مناظرة المعلمين العليا ؟

عبد الحميد العمروسى
دار العلوم العليا

هدية السنة الأولى

الرسالة العذراء

« الرسالة العذراء » اسم لرسالة نفيسة ، تعد إحدى ذخائر الأدب العربى النفيس ، لابراهيم بن المدبر ، حوت من جليل البحث ، وطريف الفكر ، ورقة الأسلوب ، وسلاسة اللفظ ، ما جعلها ـ بحق ـ كنزاً من كنوز أدبائنا العرب المغاوير .

وقد صححها وشرحها باللغة العربية ، ووضع لها مقدمة مفصلة بالفرنسية ، تناول الكلام فيها على فن الانشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث ، الأستاذ البحاثة والعالم الفاضل الدكتور زكى مبارك .

وقد بعثت إدارة « المعرفة » بهذه الهدية النفيسة إلى حضرات المشتركين (الذين سددوا قيمة اشتراك السنة الأولى).

ورجاؤنا أن يتفضل حضرات الذين لم يسددوا قيمة اشتراك تلك السنة بتسديدها ، لنبعث إليهم بتلك الهدية .

مكتبة المعرفة

الرسالة العذراء

كتاب من القطع الكبير ، مطبوع فى دار الكتب المصريه ،
به ٥٢ صفحة باللغة العربية ومقدمةفرنسية تقع فى
٣٢ صحيفة ، وثمنه ٨ قروش مصرية .

لقد عرفت « المعرفة » كيف تتخير لقرائها المشتركين فيها طرفة من طرائف الأدب الرفيع الخالد الممتع الرائع النافع ... فالرسالة العذراء هى ـ بحق ـ المثل الأعلى للرسائل الجامعة التى تصور لك حقائق الحياة تصويراً فيه دقة ، وفيه رقة ، وفيه إمتاع ، وفيه إلى ذلك ألوان أخاذة ، وتظليل رشيق ، يظهرك على كل جانب حى ، وكل ناحية حافلة بالرشاد والسداد .

وليس الكاتب اللوذعى « ابراهيم بن المدبر » بالرجل الذى تعتصم شخصيته بموقف الضياع أو حالة النسيان ، فهو الكاتب المفكر ، والأديب العالم ، والمحقق الذى استطاع فى مستهل العصر الاسلامى أن ينفذ إلى بواطن الصغائر التى تخلع على الناس دثارها القاتم ، لينتزع هذا الدثار ، ويباعد بين الناس وبين أوضاره وأضراره . .

وإذا كانت « الرسالة العذراء » قد حققت أطماع « ابن المدبر » فى الاصلاح إلى أمد بعيد ، لما فيها من آراء سديدة ، ونصائح جامعة ، وأفكار لها خطرها وروعتها ، إذا كانت هذه « الرسالة العذراء » قد حققت كل ذلك ، فان يد الزمن قد أمسكت بها وألزمتها مكانة بعيدة عن مواطن المصلحين ، حتى ضاعت معالمها بين الحقبة والحقبة ، وحتى صار ما بقى منها موزعاً بين ألوان من الأغاليط ، وألوان أخرى من الشطط ، وكانت « الرسالة العذراء » فى غمرات هذا الجحود الذى أصابته من أشتات المتأدبين تنشر لاحيائها يداً رحيمة ، وعقلا مدركا ، وصدراً لا يضيق بما لحقها من هوان ، وما فاء إليها من تعقيد . . . . إلى أن أدركها صديقنا الأستاذ الدكتور زكى مبارك ، فاذا يده أجزل رحمة ، وإذا عقله أوفر إدراكا ، وإذا صدره أضفى بشراً ورحابة وانطلاقاً . . !

***

لقد صحح الأستاذ الدكتور « الرسالة العذراء » ، وفى يقينى أن « التصحيح » لأشباه هذه الرسائل التى فرقت العصور من أوصالها ، هو أشق من معاناة التأليف ، ومزاولة الابتكار ، ولقد « شرح » ألفاظها الغريبة ، ومهد لهذا « الشرح » أسباب السهولة حتى يدرك كل قارىء ما فيها من إمتاع ، وما يفيض عليها من نفاع . . .

ثم عقب عليها بعدئذ بمقدمة مستفيضة كتبها باللغة الفرنسية ، وفيها كل ما انتهى إليه الأستاذ الدكتور من بحثه فى « النثر الفنى » الذى يميز به القرن الرابع الهجرى . . .

وليس فى مقدور أحد من قراء العربية أن ينسى للدكتور زكى مبارك دقته فى البحث ، ورقته فى التوجيه، وطلاوة أسلوبه حين يشاء الحديث، وليس فى مقدور أحد من قراء رسائله أن ينسى له دقته فى التحقيق ، التحقيق العلمى الخالص لوجه الله . . . فله فى هذا التحقيق ضروب من الصراحة الصارمة ، والأفصاح المبين ، لأنه يؤمن بأن المواربة والخداع فى العلم جريمة هائلة وإثم كبير . . .

وهكذا كان بحث الدكتور فى مقدمته الفرنسية مثار ضجة حافلة بالصخب، أتيح لعاصفتها أن تثور ، لا بين جنبات الأزهر، ولا بين جنبات كلية الآداب فى الجامعة المصرية، وإنما أتيح لها أن تثور بين جنبات مدرسة اللغات الشرقية فى باريس . . .

وفى ذلك ما يزيد فى خطر هذا البحث ، وما يزيد فى قيمة « الرسالة العذراء » .

على أحمد عامر

وكيل البريد وقصص أخرى — خالتى وقصص أخرى

مجموعتان من اقاصيص « طاغور » ترجمتا بقلم الاستاذ عبد اللطيف النشار

فى فلسفة « طاغور » جوانب غامضة ، وفيها إلى ذلك جوانب أخرى كلها صراحة وسهولة ويسر ، وفى « تاجور » ـ غير فلسفته ـ روح الشاعر والفنان العبقرى ، فهو إذا كتب عرف جملة ما يقول ، وأدرك اتجاه قلمه واتجاه نفسه معاً ، وله نظريات أراد أن يذيعها فى الناس إذاعة لا تثقل عليهم ، ولا يلحقهم فى استيعابها وعرفانها وتحقيقها ملال ؛ فلم يجد أنفع من القصة ، ولا أجدى منها فى توجيه الأذهان توجيهاً يسهل معه هضم هذه النظريات ؛ وهكذا أنشأ « تاجور » عديداً من القصص الذاخرة بعديد من الأحاسيس والعواطف.

وقد ترجم الأستاذ الشاعر الأديب عبد اللطيف النشار أربع عشرة قصة من تلك الأقاصيص الصغيرة ، وقدمها إلى القراء فى مجموعتين أهداها إلى جمعية الثقافة الأدبية فى الاسكندرية .

والأستاذ النشار ممن يملكون اليراعة القادرة على اقتناص القول الطلى ، والكلمات الطلية، فلا غرو أن تكون ترجمته ـ إلى دقتها ـ طلية موفقة .

وما من ريب فى أن الجهد الذى استنفده فى إخراج هاتين المجموعتين سيجد ـ من قراء العربية ، ومن أنصار تاجور ـ تشيعاً وإقبالا .

الغريزة الجنسية

كتاب فى ١٢٨ صحيفة من القطع الصغير ، وضعه الاديب ممدوح حقى ، ونشره السيد محمد صبحى اللبابيدى ، صاحب المكتبة الحلبية فى حلب

وهو مجموعة من الكلمات الطيبة ذات الأثر الفعال فى تثقيف الأذهان ، وتوجيه العقول

وجهة الصواب ، وقد اشتمل على جمهرة من البحوث النفسانية العميقة فى « سر الحياة » ، وخلاصة نظرية التطور و « النبوغ والجنون » وتقليد القردة ، والغريزة الجنسية و «الغريزة فى الحيوان والعصبية والكشفية » وحرارة البلوغ،والفن ، والعرى ، والحجاب ؛ وقد أودع الأستاذ حقى هذه البحوث طائفة من النظرات الدالة على صواب آرائه ، والنظريات التى أنتجتها طائفة من رجالات الفلسفة والبحث العلمى،أمثال الدكتور سيكموند فرويد والدكتور أرنست جون والصحفى « لويس شارل » والبحاثة المصرى « اسماعيل مظهر » ، والأستاذ إحسان حقى الأستاذ فى جامعة عليكرة وأضرابهم من العلماء المبرزين .

فنحمد إلى الكاتب الأديب كتابه النفيس ، وندعو له بالذيوع والرواج

القانون الاساسى

« لجمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين فى فرنسا »

تألفت فى باريس جمعيــة من الطلبة المسلمين الذين ينتمون إلى أقطار الشمال الأفريقى ، والذين يدرسون فى الجامعات الفرنسية ، لتوثيق روابط المودة والتضامن بينهم .

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بالفائدة العظيمة التى يجنيها الاسلام من وراء هذه الجمعية،ولا إلى الأشادة بالفوائد الجمة التى يجنيها الطلبة من رابطتهم فى بلاد الغربة ؛ ولكننا فى حاجة أى حاجة إلى استنهاض الهمم ، وحفز العزائم بين المسلمين جميعهم ليؤدوا إلى هـذه الجماعة الناشئة ما يكفل لها البقاء،وما يكفل لها تنفيذ أغراضها من:«إنشاء ناد ومكتبة،وإصدار مجلة باللسانين العربى والفرنسى،والقيام باجتماعات منظمة ، وتشجيع شبان البلاد على استكمال معلوماتهم بفرنسا ، وتسهيل إقامتهم هناك،بمنحهم إعانات وقروض شرف،وتأسيس دار لاقامتهم هناك».

ومما يزيد فى نبل هذه الأغراض ، التى تريد الجمعية أن تفوز بتحقيقها ، أنها — كما تقول فى قانونها الأساسى — « بعيدة عن السياسة وما يتصل بالسياسة » .

وفى ذلك ما يحقق لنا وجوه العمل الانسانى والعلمى ، الذى تشاء الجمعية أن تؤديه لخير المسلمين من أبناء الشمال الأفريقى ، حقق الله الآمال،وأتاح لمن ينشد الأصلاح أسباب النجاح.

نظرات الشورى

عدد صفحاته ، ٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط — مطبوع فى مطبعة الشورى بمصر

حين أخذت فى تلاوة « نظرات الشورى » وإلقاء نظرة عجلى عليه ، وحين تناولت هذه النظرات بالجولة السريعة ، والالمامة السريعة أيضاً ، تحققت لى حالة جديدة من الخسارة الفادحة التى منيت بها الأوساط الأدبية والسياسية لتوقف الشورى عن المضى فى حلبة الميدان ... فقد كانت « الشورى » جماع مائدة نخمة تزدحم عليها ألوان الأدب وأطايب النظرات السياسية السديدة ، وكان لها من روح صاحبها الأديب ، ومن وطنيته الخالصة ...

كان لها من هذه الروح ما يكون للعمل الموفق من أثر محمود ، ومن ذكر خالد، ومن حياة باقية الأحدوثة ، خالدة فى أفواه الناس ، وفى أسماعهم ، وفى ضمائرهم جميعاً .

على أن « الشورى » قد أصبحت ـ إلى حين نرجو أن يكون قريباً ـ حديثاً من أحاديث الأيام الدابرة ... ولكن الأستاذ الصديق « محمد على الطاهر » لا تستطيع خصائصه أن تجعله ـ ولو ليوم واحد ـ حديثاً من أحاديث الأيام الدابرة أيضاً ، لأن هذه الخصائص يحمل معها من ظواهر : الحركة ، والجد ، والنشاط، ما تضيق بأمثاله صدور ، وما لا تطيقه حشود كثيرة من بنى البشر .

وهكذا رأينا أن توقف الشورى ـ رد الله غيبتها ـ لم يدع صديقنا الطاهر إلى الصمت والسكون ، على فرط حاجته إلى الصمت والسكون بعد جهاد شاق مضى فيه بضع سنين شاقة ؛ وإنما أتاح لقرائه المنبثين فى كل جانب من الأرض أن يطلعوا على جانب جديد من جهوده الحافلة بالتوفيق حين قدم إليهم كتابه النافع « نظرات الشورى » .

و « نظرات الشورى » بعدئذ جماع جمهرة من الآراء التى تعلق بالسياسة الاستعمارية فى كل بلد إسلامى ، وفيها تعقيب فذ على جم من الحوادث التى يغنى مغزاها حجة المصلحين ، وفيها ـ إلى ذلك ـ نظرات دقيقة عن الحياة فى كل بلد وصل الأستاذ الطاهر قلمه به ، وفيها ـ آخر الأمر ـ تصوير دقيق لاختبارات الأستاذ التى احتوته كرجل من أعلام الصحفيين ... فكله من سلاسة ورقة وإمتاع .

وأما ميزة هذه النظرات فحسبك منها أن تكون الصراحة فيها فوق الصراحة، وفوق هاتها.

فنحيي « نظرات الشورى » ، ونحمد إلى صديقنا الطاهر إهداءها إلينا ، لأنها فى الحق جديرة بأن تكون فى طليعة الكتب التى تمتع النفس، وتهيء لها عرفان الحقائق كاملة ، لا لبس فيها ولا غموض .

قانون جمعية الشبان الحجازيين

للسيد عبد الحميد الخطيب آمال يرجو تحقيقها لسعادة الجالية الحجازية ، ولايتائها حياة رخية طيبة فى مصر ، وله آمال أخرى يرجو تحقيقها لسعادة هذه الجالية ، وتحقيق أسباب الثقافة لها حتى تكون شعبة صالحة ، تعمل فى حدود من التفكير المتزن ، والتقدير الصائب السديد ... وهو يرجو ـ مع ذلك ـ أن تكون أواصر الأخاء بين المصريين وبين إخوانهم من أبناء الحجاز قائمة على دعامة من الصداقة الخالصة والوفاء المتين ...

هذه الآمال كلها دفعت به إلى أن يوحد من جبهة الجالية الحجازية ، وأن ينشىء لها جمعية تتحقق لك أغراضها النبيلة متى استوعبت قانونها الأساسى ؛ فهذه الجمعية بعيدة عن تناول الأمور السياسية ، وهى تحدد أغراضها بأنها : « أدبية اجتماعية علمية خيرية تعاونية » .

وإذا كانت هذه الجمعية الناشئة قد أثرت فى أوساط المصريين بشىء ، فالحق أنها أثرت فى

هذه الأوساط المصرية كثيراً ، لأنها لا تنتهى من الدعوة إلى استماع محاضرة نفيسة ، إلا وقد هيأت فرصة قريبة لاجتماع أدبى جديد .

وفى يقيننا أن هذه الجمعية لو سايرت تلك الجهود التى بدأت حياتها بها حتى اليوم ، فسيكون من شأنها أن تكون مجدية نافعة ، لا لشعبة الحجازيين فحسب ، بل لكل من يتكلم الضاد من أبناء الشرق العربى جميعاً .

وما من ريب فى أنها ستكون فى مستقبلها موفورة النفع ، لأن اليد التى تحركها يد شاب فتى ، وثاب النفس ، بالغ الهمة .

كتاب الاغانى

يقع فى ٤٣٥ صفحة ، ويقع فهرسه في ١٢٣ صفحة من الحجم الكبير

ظهر الجزء الخامس من كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، من مطبوعات إحياء الآداب العربية التى تتولى إخراجها دار الكتب المصرية ، وهو كسائر مطبوعات الدار فى جمال الطبع ودقة التصحيح .

ويطلب من دار الكتب المصرية ، وثمن النسخة الواحدة منه ٢٠٠ مليم للجمهور ، و ١٨٠ مليما لأرباب المكاتب أو لمن يشترى عشر نسخ منه .

الجامعة الاسلامية

أصدر الصحفى الفلسطينى الأديب الأستاذ « سليمان التاجى الفاروقى » فى مدينة يافا جريدة يومية باسم « الجامعة الاسلامية » ، وقد تلقينا أعدادها الأولى ، واطلعنا على ما فيها من بحوث ، وما فيها من فصول ، وما فيها من نقدات ؛ فاذا هى جماع عزمات جديرة بالاعجاب قمينة بالتقدير ، وإذا كل ما فيها طريف ممتع يدل على أدب صاحبها الجم ، وتفكيره الدقيق ، وحسن تصريفه فيما يضطلع به من أعباء الصحافة الشاقة .

وما من ريب فى أن « الجامعة الاسلامية » قد سدت فرجة هائلة فى ميدان الصحافة الشرقية الراقية . فنرجو لها رحيب الذيوع ، وجزيل الرواج .

الاسلام

تعودنا أن تكون الصحف والمجلات فى الشرق ميدانا تجتمع اليه أشتات الفنون ... وكنا فى حاجة أى حاجة إلى صحف تعنى باذاعة موضوع واحد ، وتعنى بجمعه وسرد أبوابه ، ولم جوانبه ، والدفاع عنه ... إلى أن أصدر الأستاذ « أمين عبد الرحمن » مجلته « الاسلام » فاذا بها عنوان صادق لما يسجل بين دفتيها من فصول ، لا صلة لها إلا بالاسلام وحده .

وفى هذه الفصول إمتاع للنفس ، وإشباع لنهامة الذين ينشدون الحقائق الصريحة عن الاسلام ، وعما يتصل به من رسالات لها جلالها الكثير . فنأمل للصحيفة دوام انتشار ، وبقاء حياة .

بين المعرفة وقرائها

الرق وكيف نشأ ؟

(أم درمان . سودان) مصطفى الصاوى — يقولون إن الله خلق الجنس البشرى من أصل واحد وجعل منه قبائل وشعوبا ؛ فما هو السبب الطبيعى إذن فى ميل بعضهم إلى استعباد البعض الآخر منـذ بدء خلقتهم ؟ ولماذا نرى الجنس الأسود محتقراً ممتهناً فى نظر غيره من الأمم ، وأن أكثرية الرقيق منه ؟

(المعرفة) مسألة الاسترقاق مسألة مخجلة جداً ، بل هى صفحة سوداء فى تاريخ البشرية ، ويرجع منشؤها إلى أقدم عصور التاريخ ؛ وسببها – على ما نعتقد – تغلب القوى على الضعيف ، فالاسترقاق إذن نتيجة الحروب القديمة التى كان الجنس الأسود يندحر فيها – لسوء حظه – فأبت طبيعة البيض المنتصرين إلا استعبادهم واسترقاقهم واستخدامهم فى القيام بمصالحهم وقضاء حاجاتهم ، بل إن بعض الأمم اشتطت فى الاسترقاق كثيراً ، فلم تكن قوانينها لتعامل الرقيق بأكثر من معاملتها للحيوانات الداجنة ، وقد تطورت مسألة الاسترقاق فى كل العصور تطوراً غريباً .

ولم يكن الاسترقاق قاصراً على السود فحسب ، وإنما شمل البيض أيضاً ممن كان مآلهم فى الحرب مآل السود ؛ وكان الملوك والكهنة والأعيان فى عهد قدماء المصريين يكثرون من اقتناء المماليك للزينة والخدمة ، وقد ظلت هذه العادة السيئة إلى عهد قريب .

وقد كان لكل من الهنود والفرس والصينيين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين والفرنكيين (أصل الفرنسيين) حتى منتصف القرن التاسع عشر ، طقوس وتقاليد وأوضاع تختلف شدة وقسوة وغلظة باختلاف العنصر المتغلب .

وفى ثورة فرنسا (١٨٤٨) قضى على الاسترقاق بتاتاً .

ويلاحظ أن جميع الأديان لم تقف فى سبيله ، كما أنها لم تدع إليه إطلاقاً ؛ إلا أن الاسلام حصره فى قيود ضيقة ، فقيده بشرطين : أحدهما أن يكون بحرب شرعية ، وثانيهما أن يكون المحاربون من الكافرين .

وقد كان المسلمون لا يبدءون قوماً بحرب حتى ينذروهم ويخيروهم بين خصال ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب .

هذا وليرجع حضرة السائل – إن أراد التوسع – إلى كتاب « الرق فى الاسلام » الذى ألفه بالفرنسية أحمد شفيق باشا ، وترجمه إلى العربية أحمد زكى باشا ، وكذلك دائرة معارف وجدى ، وقاموس

لاروس ، وكتاب تمدن العرب لجوستاف لوبون ، دائرة المعارف البريطانية ، وكتب الفقه ، ليقرأ الكثير من صفحات المجد والفخار التى سجلها التاريخ لكثير من عظماء السود ، الذين نأمل أن يكونوا قدوة حسنة لاخواننا أبناء حام .

الصحافة المصرية

(القاهرة . مصر) أحمد فتحى ناصف — متى تصبح الصحافة المصرية فى صف الصحافة الراقية ؟ وكيف نضمن لها الحياة ؟

(المعرفة) تعد الصحافة المصرية من أرقى صحف العالم ، فهى تمتاز على جميع الصحف الشرقية بدقة نظامها وترتيبها وتبويب صفحاتها وتنويع موضوعاتها وحسن رونقها ، بل هى أرقى بكثير من صحف بعض الممالك الأوربية والأمريكية ، وهذا بالرغم من القيود والعقبات التى يضعها فى سبيلها المشرع المصرى .

أما كيف نضمن لها الحياة ؟ فان ذلك موكول إلينا معشر المصريين ، لا إلى غيرنا كما يتبادر إلى ذهننا من سؤالك ؛ فلو أن كل مصرى عرف الواجب المفروض عليه نحو أخيه الصحفى المصرى ، لاستطاع هذا الصحفى المصرى ، أن يبذ الأجنبى بمراحل ، ففى المصرى ذكاء وجلد ومرونة ولباقة ودقة وحسن اختيار إلى غير ذلك من خلال ، قل أن توجد فى غيره .

فهل آن الأوان لفهم هذه الحقائق ؟ يا ناس شىء من الرحمة والانصاف ، وقليل من التعضيد ، كفيلان بتتويج رؤوسنا — معشر الصحفيين المصريين — بأكليل من الفخار

محمد بك فريد

(القاهرة . مصر) أحمد عبد عبد العال — قال الشيخ ابراهيم سليمان ، أحد علماء الاسكندرية ، فى رثاء المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى

برلين ! كيف وسعت قبر محمد وعليه ضاقت فسحة الأوطان

فهل دفن فى برلين ؟ وكيف كان ذلك ؟

(المعرفة) توفى المرحوم محمد بك فريد ببرلين فى مساء ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، ودفن بها بناء على وصيته التى أوصى فيها : أن لا تدفن جثته بمصر ، ما دام فيها جندى انجليزى واحد .

ولكن المرحوم الحاج خليل عفيفى التاجر بالزقازيق ، تولى إحضار جثمانه فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٢٠ ، وقد دفن بمدافن العباسيين بجوار مسجد السيدة نفيسة .